

١
ص ١

ص ١

الإدارة الجديدة
لجـ _____ لة المعرفة

رقم ١ شارع الهداية
المتفرع من شارع عبد العزيز

بالقاهرة

٣/٧



مصطفى عبد الرازق



محمد فريد وجدى



أحمد الاسكندري



عبد العزيز البشري



علي الجارم



احمد حسن الزيات



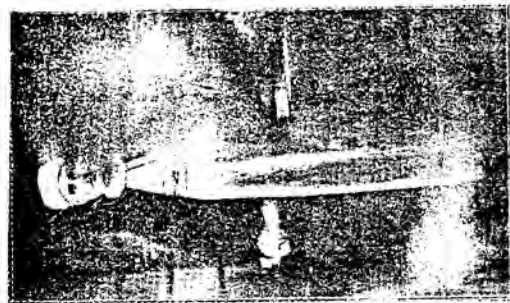
عبد الجواد رمضان



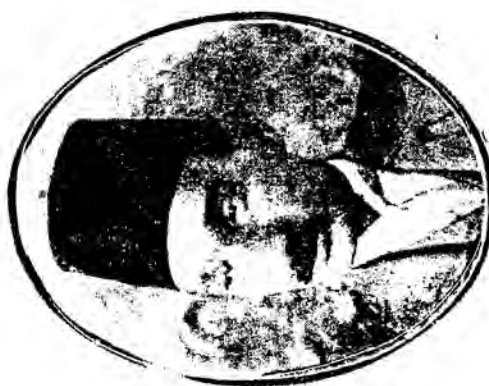
حسين شفيق المصري



كامل الكحلاني



حسن القاياتي



محمود رمزي نجم

[بمناسبة قتال « تعريف أدباء مصر » المنشور في هذا الجزء]

الجزءان : ٨ و ٧
السنة الثالثة

المعرفة

ابريل ومايو ١٩٣٤
محرم وصفر ١٣٥٣

مجلة — شهرية — جامعة

[مقررة في وزارة المعارف العمومية]
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول

عبد العزيز الإبراهيمي

السادس

شعارها : اعرف نفسك بنفسك

المجلد

كل ————— صريحة

الى حضرات القراء

... وأخيراً ، وبعد عطلة دامت بضعة أشهر ، أراد الله للمعرفة أن تستأنف جهادها من جديد ، وأن تعود إلى ميدانها أكثر قوة ، وأشد دربة ، وأكثرتجربة : وأقوى على احتمال الشدائد ، وأصمد للأنضال والكفاح في سبيل الفكرة التي قامت للدفاع عنها ، والاختد بنصرها ؛ تلك الفكرة هي ربط الشرق بالغرب ، وبعث الثقافة العربية ، وإحياء الروح الشرقية ، ونشر المعارف الصحيحة ، وإذاعة العلوم الفلسفية والصوفية - قديمها وحديثها - إلى جانب ما تعنى به من بث أساليب التفكير الحر العامة بجميع نواحيها ؛ سواء أكانت في الأدب أم التاريخ ، في الفن أو الاجتماع ، في العلوم القديمة أو الحديثة ، تجريبية أو نظرية .

و « المعرفة » في هذا كله تتجرى الدقة في النشر ، والتمحيص في الاختيار ، حتى لقد جنت عليها هذه الدقة - أحياناً - مادياً وأدبياً : أما الناحية المادية فلأن صاحبها أبى أن يخاطب عواطف الجماهير دون عقولهم .

وقد كان في مقدوره ذلك وبجيدته، وهو شاب لما يجتمع الثلاثين بعد، ثم هو إلى ذلك درس في معاهد مدنية بحة، بعضها أجنبي بحث، لكنه نأى عن ذلك بتاتاً. غاية ما يعمل للشر المعارف العامة أن يجمع بين الثقافة البعيدة الغور، والثقافة العامة السهلة حتى الحد المعقول الذي يصرف الجمهور إلى بضاعة الخاصة من قادة الفكر وأعلام الرأي، وحتى لا تثير في نفوسهم ضيقاً يشغل عقولهم عن البحث النافع والتحقيق الجدى الشامل.

ولقد راحت «المعرفة» - في ظل هذه الفكرة - تقدم إلى قرائها عصارة الأذهان الجبارة وخلاصة العقول المفكرة، في العلم والأدب والفلسفة والتربية والتاريخ، حتى الأقاصيص فقد استطاعت أن تخضعها للون الخاص الذي اطلأنت إليه.

ولكن «المعرفة» في الوقت الذي مهدت فيه لأول فوج من نتائج رسائلها الجامعة، كانت تلمس الجمهور الراقى الذي يصرف عنها بأساليب شيطانية، فلا تظفر إلا بالعدد اليسير. وهذا الجمهور نفسه هو العمود الفقري في رواج الصحف والمجلات، ومن ثم كان حرماننا منه خسارة فادحة، لو أصاب بعضها غيرنا ما وني عن التمهق، وما تريت في القرار.

لكننا جاهدنا وجاهدنا، ثم كاشنا وجالدنا، بل صمدنا للجهاد حتى آخر سهم نملكه، وسنجاهد - إن شاء الله - حتى التزع الأخير من حياتنا، ولو أدى الأمر إلى بيع ما نملك من متاع أو عقار، بل ما نملك من قوت، في سبيل الفكرة التي آمننا وثؤمن بها حتى النهاية. ولعل من المستحسن أن نصارح القراء - كما عهدناهم في كل ما نعمل - بأننا كنا قد اتهمنا من جمع مواد هذا العدد في مياعده الماضي الذي كان يجب أن يصدر فيه، وهو شهر نوفمبر ١٩٣٣، ولم يكن باقياً منه إلا طبع بضع ملازم، هي أقل الأعمال زمناً وكلفة، ولكننا فوجئنا باكتشاف بركة أثرت فينا كل التأثير.

وكان مانحن فيه لم يرض المسيئين فراحوا يستغلون ثقة بنا بهم، وذهبوا يحصون قيم الاشتراكات، ويقبضون على موارد المجلة في غيبتنا دون أن يصلنا منها إلا القليل؛ فكانت الخسارة أفدح والمصيبة أعم وأشمل؛ على أن يد العدالة لم تلبث أن لحقتهم حتى أنالتمهم الجزاء الأوفى، فنههم من فصلت في أمر خفكت عليه بالسجن، ومنهم من ينتظر حكمها حتى الآن. وكذلك بحق قول الله تعالى: «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

وفي أثناء ذلك أيضاً كان «المعرفة» تلمس الحياة في دفعها بعض الأحياء إلى نلوت، وكانت تلمس حقوقها لدى الناس، دون أن تنجح إلى التماس عطف أو اقتناص عون. ولكن ذلك كان عبثاً. وكان مما فرغنا من طبعه من مواضع المجلة، مقال للدكتور زكي مبارك عنوانه «حكاية أبي القاسم البغدادى» وكتب تحت هذا العنوان: [من كتاب تحت الطبع يظهر قريباً بعنوان: نثر الفنى في القرن الرابع]، وقصيدة بعنوان «هل رمت غيري زوجة؟»، أما كتاب

النثر الفنى فقد ظهر بعد طبع المقال ؛ وكذلك أبلغنا أن القصيدة المذكورة نشرت في زميلتنا « الرسالة » بعد عظمتنا بقليل . ولما لم يكن في مقدورنا حذف هذين الموضوعين لارتباط كل منهما بمواضيع أخرى في ملزمته ، فقد رأينا ألا كتفاء هنا بالإشارة إلى ذلك . وما من شك في أن جماع هذه المشاكل ، مضافا إليها ما كنا نعانيه من مرض شديد الوطأة ، تغالبه ويغالبنا ، وتجاهله فينتكر لنا ؛ ثم تضافر القضايا الخاصة بنا ، ومنها ترك ما كان أغنانا عنها لو كنا نعلم أننا سنلقى كل هذا العنت والضيق والإعسار في سبيلها ، خصوصاً ولما يفصل في أمرها رغم مرور ثلاثة أعوام ونصف .

كل ذلك كان له أثره الذي شغل ذهننا ، وسبب ارتباكنا في عملنا ، حتى كان بعض المشتركين يشكو تأخر وصول الأعداد إليهم ، في حين يشكو البعض الآخر تواترنا في الرد على كتبهم . فإلى هؤلاء وأولاء تقدم عذرنا راجين أن يعتقدوا أن آخر شخص يلام على التقصير هو صاحب هذه المجلة الذي كان يعمل دائماً في جد وكدح ، وبكافح أحداً صاحب فيها الليل النهار في صبر ويقين ، ولكن الظروف القاسية أغلب ، وما تريده المقادير ينفذ رغم كل حساب أو تقدير . على أننا أفدنا من ذلك درساً مئزراً إن شاء الله ، نخرجنا من هذه المعركة أصلب عوداً ، وأشد إيماناً و يقيناً ، وأكثر ثقة بالنفس ، واعتماداً على الله الذي لا رب غيره . ثم أفدنا - إلى ذلك - معرفة الصادق من غيره ، والمخلص من سواه ، فوضحت لنا الطريق ، وتجلت أمامنا السبيل . ونعود من هذا الاستطراد الطويل ، الذي لا بد منه ، إلى ما قدمنا من خسارة أدبية ، كانت نتيجة تدقيقنا فيما ينشر أو بالغ عنايتنا بما نختار من بين ما يردنا من الكتاب ، فإن هذه الدقة ، بدلاً من أن تكون موضع تشجيع وتقدير ، كانت عند بعض الناس موضع لوم وتثريب . بل كانت مأخذاً شديداً علينا ، فراحوا يعملون ضدنا في الخفاء كالخفافيش ، وبسطادون في الماء العكر ، ولولا صفحة بيضاء نقيمة ، ويد طاهرة ، ولسان عف - والله الحمد على ما أولانا - لكننا في خبر كان : فليعلم هذا من لم يعلم ، وليفهم العبارة - وهي هنا صريحة - من لم يفهم بالإشارة . وليثق من لم يثق أننا هنا لا نحاي زيدا أو عمرا ، ولا كبيراً دون صغير ، أو نفرق بين كاتب وكاتب ، أو شاعر وشاعر ، إلا بما يقدم من عمل . وما ندعى العصمة أو الكمال - وحسبها أنهما وقف على الذات الإلهية المقدسة - فإذا كنا قد أخطأنا فإلحظاً طبيعة من طبائع البشر ، ومن ذا الذي ترضى سبحانه كما ؟

وبعد فإننا نخلص من هذا إلى تسجيل الشكر لحضرات الذين استفسروا عنا ووالوا برسائلهم ، ولحضرات المشتركين الذين صدقوا في معاملة « المعرفة » ، فلم يضطرونا إلى مطالبهم أو تذكيرهم بما عليهم .

نظامنا الجديد

وسيلبس القراء مجهودنا العلمى ونظامنا الادارى الجديدين ، فى العدد القادم إن شاء الله ، وهو ما نأخذ له العدة منذ الآن . فها نحن قد نقلنا الإدارة إلى مكان أرحب صدرأ وأكثر غرأ ، وأصلح للعمل من سابقه ، تبدلنا بهما لنا ومستخدمينا السابقين آخرين صادقين نشيطين ، وخصصنا وقتاً للبحث والمراجعة والتحرير والترجمة ، حتى نستطيع القيام بنصيب أوفر مما كنا نقدمه مضطرين .

ولكىلا نستأثر بالعمل وحدنا رأينا أن نشرك معنا قراء « المعرفة » فلسفتمهم فيما يرونه صالحاً وملائماً فى خدمة الثقافة العامة ، فلمن يشاء من حضرات القراء أن يكتب إلينا رأيه فى ذلك ، وفيما يرى وجوب إدخاله من تحسين أو تجديد ، بل فيما يعن له من فكرة أيا كان نوعها ، وسننظر فى هذه المقترحات التى يتفضلون علينا بها ، شاكرين لحضراتهم صادق معوتهم ، وكريم إخلاصهم .

ونلتهم هذه الفرصة لنبشر القراء الكرام أيضاً بأننا بعد العدة لإصدار مجلة أسبوعية ثقافية تجديدية تعمل على خدمة الشباب المثقف ، وتكون لسان حال للنهضة الأدبية والعلمية الحديثة .

السنة الجديدة للمجلة

وبما أن هذا الشهر - مايو سنة ١٩٣٤ - كان موعداً لصدر العدد الأول من السنة الجديدة للمجلة ، وهى السنة الرابعة ، لولا ما سبق لنا بيانه ، فقد رأينا تعديل النظام بما يأتى : —
تصدر المجلة هذا العام حتى سبتمبر سنة ١٩٣٤ ، وبهذا يكون لدى حضرات المشتركين ١٢ جزءاً فى ١٠ أعداد ، فنموض حضراتهم ما فاتهم ، مضافاً إليه جزءان ، إذ المعروف أن المجلة تصدر عشر مرات فى السنة . وأضفنا إلى ذلك — رغم ما فى ذلك من نسيجية تتحملها منفردين — تعويض المشتركين عن جميع الأشهر التى احتجبت فيها المجلة ، فلا نحاسبهم عليها .

فالذين يبدأ اشتراكهم من شهر مايو فى عام ١٩٣٣ ينتهى فى سبتمبر سنة ١٩٣٤ بدلا من ابريل سنة ١٩٣٤ ، وتقاس على ذلك بقية المدد الأخرى . ثم نبدأ من أكتوبر ١٩٣٤ عملنا فى السنة الرابعة للمجلة إن شاء الله ، فنستمر حتى يوليو سنة ١٩٣٥ ، وتحتجب المجلة شهرين هما (أغسطس وسبتمبر) من كل عام ، وعلى هذا النمط يسير العمل باذن الله .

وبعد ، فهذا ما رأينا ضرورة شرحه وتبينه ، وواجب إيقاف القراء عليه ومعرفته ، لأن صاحب « المعرفة » يعتبرهم جميعاً مساهمين معه فى العمل ، والله على ما نقول شهيد ووكيل مأ

عبد العزيز الدسوقي

الاتجاهات الحديثة

لفلسفة الروحية

من أغرب ظواهر هذا العصر ، ما نراه من انصراف علماء أوربا وأمريكا إلى المباحث الروحية بجميع فروعها انصرافاً أخذت يجمع قلوبهم ، ما لكأ عليهم مسارب أحاسيسهم ؛ وهذه الظاهرة تدلنا - سواء أ كانت خالصة للعلم أم غير خالصة - على أن ما أصاب العالم من أزمات نفسية واقتصادية كان له شأنه البالغ في هذا الاتجاه الجديد .

فها نحن أولاء نرى أمثال : فلاميون ، ودورويل ، وتكنسون وغيرهم من خول العلماء يعملون ليل نهار ، وفي تقدم مستمر ، على النهج بهذه العلوم نهجاً علمياً حديثاً يقوم على قواعد ثابتة مقرر ، بل لا يكتفون بما يبدلون من جهود فردية ، وإنما يؤلفون الجماعات ويعقدون المؤتمرات يتول بعضها بعضاً في سبيل تحقيق الغاية التي تهيم على عقولهم ، وهي البحث عن حقيقة « الإنسان الكامل » « أو « السوبرمان Superman »؛ الذي يقول عنه الأستاذ الكبير (دريش Drisch) الرئيس الفخري لمؤتمر العلوم النفسية المنعقد في عاصمة اليونان عام ١٩٣٠ ما نصه :

« إن على المنقطعين لدراسة علوم ما وراء الظواهر الروحية ، واجبات في أعناقهم تأديتها لسعادة البشرية ، وأهم هذه الواجبات - في نظري - أن يوجهوا قواهم لدراسة وتحقيق نظريتهم ، بل يجب على جميع المشتغلين بسائر العلوم ، أن يعنوا بدراسة هذا البحث دراسة تمكنهم من الوقوف على العلاقة الوثيقة لعلومهم بهذا المبحث الجليل ، الذي له أكبر الصلة بسعادة الإنسانية عامة » .

فهذه النظرية التي يقوم علماء أوربا وأمريكا الآن ببحثها وتخصيصها ، ويعنون بتتبعها وتتبع ما شابهها من بحوث ومعارف ، تجعلنا نفتبط كل الاغتياب ، لأن في العناية بها اتجاهها إلى الشرق ممبعث الحكمة والنور ، والناساً لهدايته ووجيه ، وهو مستقرهما منذ الأزل .

على أن هذه الظاهرة إذا سرتنا حقيقة ، فإنها في الوقت نفسه تثير في قلوبنا شيئاً من الألم ، لتهاوننا - ونحن الأصل - فيما هو بشأننا أدخل وبصلتنا أعلق ؛ لكن يعزينا عن ذلك أننا كنا السابقين .

فهذه « السوبرمان » على حد التعبير الانجليزي ، والتي يزعم تلاميذ « نيشه » أنه أول من حققها ونشر استعمالها ، إنما هي مأخوذة من الفلسفة الهندية القديمة ، وبخاصة من نظرية « النيرفانا » .

ومن قبله أيضاً استعملها ابن العربي (المتوفى عام ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م) وعبدالكريم الجيلي (المتوفى عام ٨٢٦ هـ ١٤٢٣ م) في كتابه «الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل» وهو عمدة المتصوفين وإمام الباحثين والسالكين؛ لأنه لب الحقيقة وناموس الطريقة في اصطلاحاتهم. لكن الجيلي يرى في الإنسان الكامل رأياً نعتقده أصح وأسد من رأى نيشته وذلك لما يأتي: يرى نيشته في طريقة الوصول إلى تحقيق غايته، ضرورة هدم جمع النظم والعادات، والأخلاق والآداب الموجودة، ليبنى على أنقاضها نظاماً وقواعد أخرى جديدة يأخذ بسلوكها قسم كبير من ذوي المواهب الخاصة حتى يصلوا إلى درجة السوبرمان، ومن ثم تتاح لهم فرصة أخذ بقية بشر بها وقيادتهم بواسطة إلى ما يتخيله من سعادة وخير.

وكان نقاد العصر الحديث - وعلى رأسهم برناردشو - رأوا أن الطريق التي رسمها تصورها نيشته عقيمة غير محققة، لأنها في نظرهم كل لا يجزأ؛ ولأنها وقف على الإنسان المنتظر، ابن الجيل القادم، الذي يخرج من ظهر الجيل الحاضر.

وكذلك يأتي النيو صوفيون - وعلى رأسهم «آ في بيزانت» - أن يتركوا هذه الفرصة تقلت من أيديهم دون أن يدلوها بدلوهم في الدلاء. فهم يضعون شروطاً لحصول هذا السكال الانساني الذي يروونه لازمة من أكبر لوازم الحياة، والذي لا يتحقق بغير تقمص الأرواح بالافراد. وعلاوا معتقدهم ذاك «بأن الحياة والوجدان والكون ليست إلا مظاهر أو تجليات من مظاهر الله وتجلياته؛ وهو واجب الوجود لذاته لا يدرك الإنسان كنهه، وهو أزل، أما السكون فزائل يبقى ملايين من السنين ثم يزول؛ ومن ثم يعود الخالق إلى الظهور - بعد أن كان كامناً ظاهراً معاً - فيخلق كوناً آخر، وهكذا يتجدد الخلق والزوال، ويصدر السكون عنه بواسطة اتحاد الهوى بالجواهر، وبعبارة أخرى باندماج السلب بالإيجاب، وليس لأنها منفصلة - لان عن بعضهما البعض - بل لأنها مفترقان افتراق كل من القطبين الإيجابي والسلبي عن بعضهما في المغناطيس، حال أنهما موجردان في كل ذرة من ذراته».... و«... تكون مدة حياة الإنسان في هذه الدنيا متصلة بالطبيعة الأرضية فيه، وذلك بواسطة العقل الذي هو قسمان: قسم عال، وآخر عادي؛ فالعالي أو العلوي يصعد إلى أعلى، والعادي أو السفلي يطلب الأسفل أي يطلب الحياة؛ وذلك لأنه ممتزج بالعواطف».

و«عند الموت تطلب الروح والنفس والعقل الانفصال عن الطبيعة الدنيا للإنسان؛ في حين يعود العقل السفلي إلى مصدره - وهو العقل العلوي - يحمل معه مآلعه مدة حلول النفس في الجسد؛ وتظل هذا الثلاث - الروح والنفس والعقل - مطمئة إلى ما أفاده العقل من الخبرة في حال من الوجدان مريحة مستقلة عن الجسم الدنيوي وعن كل ما يتصل به من حدود وأوضاع وعوائق مختلفة. وهذه حال تظل وفقاً لدرجة الارتقاء التي يبلغها الإنسان أثناء مقامه في الأرض، ثم تنتهي برجوع هذا الوجدان إلى الجسم، أي بتقمصه أو حوله في جسم ثان وهكذا»^(١).

أما الجبلى وابن العربى ، وبعبارة أشمل ، أما الصوفيون فيرون أن الطريق إلى تحقيق الكمال تكون بالتخلص من الشهوات الدنية، وإنكار الذات الانسانية، والتخلص من الغلف الجسدانية بالخط من شأن الجسد، والعمل على التحقق بأداب خاصة وسلوك خاص، في تزكية النفس وتطهير الباطن. وعندهم أن الإنسان لا يصل إلى الكمال إلا بمعرفة الحق سبحانه وتعالى ، والعمل على استكناه حقائق الكون، وفهم أسرار الوجود، والزهدي في ألوان الحياة . والكمال درجات، تستلزم كل منها مراتب خاصة بلوغها؛ وقد شرحها العلامة القشيري في رسالته ، وهي طويلة ، فليرجع إليها من شاء .

والذي يهمنا هنا أن نثبت أن الجبلى أول من تكلم في هذه النظرية بعد ابن عربى، وأول من عرف بوقف نفسه عليها . ويعتبر كتابه «الإنسان الكامل» حجة في هذا الموضوع، وإن كان الشراح مجمعين على أن المقصود بالإنسان الكامل عند الجبلى هو سيد البشرية على الإطلاق «محمد بن عبدالله»، وهذا حق لا مريبة فيه .

والإنسان الكامل في نظر أبي يزيد البسطامي (المتوفى عام ٨٥٨هـ - ١٤٥٤م) هو «من غمرته صفات الله، وأصبح غير واع لها، أى دخل في حالة الفناء» ، وهي في النهاية عنده درجة لا تتحقق إلا للأنبياء والأولياء ومن في حكمهم . والكلام في هذه النقطة دقيق جداً، ويحتاج إلى شيء من الإسهاب والشرح كثير، فلعلمنا نوفق للكتابة عنها بعد .

وقبل أن نختم كلمتنا العجلى نعطي القارىء فكرة «الجبلى» من الآيات الآتية، وهي من قصيدته العينية النادرة الوجود . وقد عثر عليها المستشرق العظيم، الأستاذ نيكسون في نسخة بالمتحف البريطاني، فأودعها كتابه^(١) «دراسات في التصوف الإسلامى»:

حقائق ذات في مراتب حقه	تسمى باسم الخلق والحق واسع
وفي فيه من روحى تفخت كفاية	هل الروح إلا عينيه يا منازع
فيا أحدى الذات في عين كثرة	ويا واحد الأشياء ذاك شائع
تجليت في الأشياء حين خلقتها	فها هي ميطت عنك فيها البراقع
قطعت الورى من ذات نفسك قطعة	ولم تكن موصولا ولا فصل قاطع

والخلاصة : هل يقدر لهذا الصراع القائم الآن بين علماء أوربا وأمريكا أن يستمروا يشتد حتى يهتدوا إلى الحقيقة المطمورة في أرض الشرق وكنوزه ؟ ذلك ما سيكشف لنا القدر عنه، ووقتئذ تخفق راية السلام حقاً ، ويتحقق دستور المحبة والإخاء والمساواة .

تعريف أدباء مصر

الى الاقطار العربية

بقلم الأستاذ محمد الهراوى

نشرنا فى العدد الفائت من « المعرفة » ذلك الحديث الذى عقدته رصيفتنا مجلة « العاصفة » ببيروت فى عدد ١٣ اغسطس سنة ١٩٣٣، مع صديقنا الأستاذ الهراوى أثناء رحلته فى الاقطار الشرقية . وكانت قد وجهت فيه شيئاً من العتاب إلى مصر لتجاهلها شعراء الاقطار الشقيقة وأدباءها ، فوعدنا قراءنا الكرام بنشر الخطاب الذى بعث به إليها الأستاذ الهراوى ويرد فيه أثر اللوم والعتاب، ويقوم بتعريف بعض أدبائنا إليهم . ونحن وفاء بهذا الوعد نثبت هذا المقال الذى نشرته رصيفتنا العاصفة الغراء فى عدد ٢٠ اغسطس سنة ١٩٣٣ .

على أنه بدا لصديقنا الهراوى الآن أن يجرى فيه بعض تعديلات يسيرة بالحذف والزيادة، استدراكاً لما فاتته وهو يكتب مقاله الأول بين عجلة الرد وبين وفود الزائرين، ومصيحاً لبعض الترتيب والاعلاط التى وقعت أثناء الطبع هناك .

قال الأستاذ الهراوى :

أخى صاحب « العاصفة » : أرجو أن تفسحوا لى مجالاً صغير الحجم ، ولكنه كبير المعنى ، فى جريدتكم الغراء، لىكى أثبت شكرى بقلبي وقلمي ولسانى إلى آل لبنان ، على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم ، على ما يلقاه المصرى فى بلادكم من أنواع اللطف والحفاوة فى اللقاء والمعاملة . فقد قدرت ذلك قبل سفرى خيالا ، ولكنى وجدته دون الحقيقة بمراحل : وليس الخبر كالعيان . فمذ قدمت إلى هذه الربوع ، وأنا وأسرتى موضع العناية ابتداءً من خدمة الفندق « بيروت بلاس » وأصحابه وغيرهم ، إلى رجال الصحافة الغراء : يومية وأسبوعية ، إلى رجال الأدب والشعر ، إلى الأعيان ، إلى رجال الحكومة .

وبعد هذا الشكر القلبي لجميع من ذكرت على هذه الحفاوة بأبناء مصر وأدبائها وشعرائها ، أرجو أن تعتبرونى مؤيداً لكم فى التغنى بهذه الحفاوة فى جريدتكم الغراء ، ولكنها لا تؤيدكم فى تأثركم من جانب إخوانكم المصريين الذين فهمتم عنهم خطأ أنهم لا يقدرون أدباءكم تقدير أدباء مصر من جانبكم .

فع استئذناكم استجوا الى أن أحتج عليكم بلطف على هذه المؤاخذة التي بنيتموها على صعف ذاكرتي في حفظ الأسماء .

فاذنب إخواني بمصر - وكلهم يترنمون بأشعار رجالكم - إذا قصرت أنا في الخنظ؟ على أني في الواقع غير مقصر، ولكن أنستكم تستدرجونني للحكم على شعرائكم وأدباءكم وتورطوني في الخروج عن مبدئي وعقيدتي في المفاضلة بين شعراء البلد الواحد ، فضلا عن شعراء الأقطار الشقيقة، وقد أثبتت شيئا من رأيي هذا في حديثكم الذي كتبتموه بذكاء عجيب ، ولباقة قوية وهذا موضع إعجابي بكم . على أنكم يأسئذوني الفاضل قد وقعتم في مثل ورطتي حين سألتكم عن بعض أدبائنا فلم تذكروهم، وليس هذا بعيب في ولا فيكم، ولكنه تقصير عام أت من أنه ليس هنالك سفارات أدبية بين هذه البلاد العربية، ولا مجلة مخصصة في كل قطر لأقلام الأدباء والشعراء منه ومن الأقطار الأخرى، وذلك هو ما قلته لكم . والآن أتم حديثي معكم فأبدأ بالتعريف عن بعض أدبائنا وشعرائنا، وأقول البعض احتياطا لذاكرتي الضعيفة . وقبل هذا التعريف أذكر أن هؤلاء الأدباء الأربعة الذين سألتوني عنهم وأفدتكم على البديهة بما ذكرتموه حسنة على المجلة، هؤلاء الأدباء وغيرهم من أحدثكم عنهم في هذه المجلة هم موضع فخر مصر والشرق ولا يقلون مرتبة عن كبار أدباء الغرب لافي التفكير ولا في الأسلوب من ناحية الأدب العربي أذكر لكم من كبار أدباء مصر الآن ما يردني غفو الخاطر بلا ترتيب ولا تعقيب :

الأستاذ السيد عبدالعزيز البشري، ذلك الكاتب والعالم العظيم الذي يمثل بكتابته وقلمه روح الأدب المصري في ظرفه ولباقة وتوفر النسكته الخفيفة الظريفة، وله كتاب « المرأة »، وهو عجوبة العصر في تحليل الشخصيات التي كتب عنها، وله مقالات رشيدة في الصحف السيارة، كما له أدب جدي في المؤلفات العربية المقررة بالمدارس المصرية.

والأستاذ السيد مصطفى عبد الرازق، الكاتب المفكر الذي يعني بما يقول بأرق عبارة وأتمن أسلوب وأصح، وله غرام بالفلسفة الإسلامية قديمها وحديثها، وحج بدرس الأدب والشعر، كما له نبذ هي محل الإكبار والإعجاب، تبين - على اختصارها في القول - أبعاد معنى يقال .

وشقيقة الأستاذ الفاضل السيد علي عبد الرازق الذي يحول قلمه في نواحي العلم والأدب والإصلاح الديني والاجتماعي . وهو صريح الرأي بينه عن عقيدة مدروسة ، وأسلوبه الكتابي مثل يحتذى لمن أراد نموذج الأدب الصحيح الصميم .

والأستاذ السندري المدرس بدار العلوم : عالم لغوي ، وأديب كبير ، واسع الاطلاع على الأدب العربي . وتمثل كتابته أسلوب كتاب العرب أمثال الجاحظ وابن خلدون . وهو ركن من أركان النهضة اللغوية الأدبية.

وأخونا الأديب الكبير الدكتور زكي مبارك الذي أدخل بقلمه الرشيق العالى أسلوب النقد الحديث في الأدب العربي، وله جولات موفقة في تحليل المؤلفات والمقالات للأدباء والشعراء والكتّاب، ولا يبالى أن يخالف رأيه سواء من المنقودين مادام غرضه إصلاح نظرية النقد بصرف النظر عن حرية الرأي.

والأستاذ السيد عبد الله عفيفي الكاتب والشاعر العظيم، وهو مغرم ببحوثه في الشعر المصري المدفون واستخراجه لتعريف الأدباء عن ماهيته وجوهره ولتت النظر إليه، وهيمنة يسدى عليها أجل الشكر.

والكاتب المفكر سلامة موسى، وهو من ناحيته ميال إلى الأخذ من الغرب بلا تحفظ. وذلك رأيه وهو محترم له، وإن لم يوافق عليه الأكثرون، عميق التفكير مختصر الأسلوب.

وهناك كتاب سياسيون وحزبيون لا أدخلهم في هذا الباب، لأننا في صدد الأدب البري، منهم الأستاذ عبدالقادر حمزة، والأستاذ عباس الجمل، والأستاذ عبد الله عنان وغيرهم ممن لو عمدوا إلى الأدب وحده لكانوا أئمة ينسج على منوالهم.

وأذكر لكم أيضاً من رجال الشعر والأدب واللغة الأسماء الآتية :

الأستاذ أحمد الزين وهو من رجال العلم والأدب، موظف في دار الكتب المصرية، ويقوم بمراجعة أكبر الموسوعات الأدبية، وهو عالم لغوي وشاعر عظيم، وله قصائد في كل باب، ويمتاز بالحفظ والرواية عن الأقدمين والحديثين، وهو مرهف في سماع الشعر، حسن التفتي به في إنشاده. والأستاذ محمد الأسمر وهو شاعر شاب، وشعره أكبر من عمره، وله طرف تفسر من أن إلى أن في «الأهرام» كلما بدا له أن ينظم في فكرة تعرض له أو موضوع يرى مناسبتها، وهو مبدع اللفظ حسن التفكير طريف الموضوعات.

والأستاذ حسين شفيق المصري، وهو كاتب وشاعر فحل، يفيض الله على قلبه ما شاء أن يكتب فيه في الشعر والنثر والمواويل والأزجال والفكاهة والجد والسياسة والنقد، وهو يقوم بتحرير عدد عظيم من الجرائد والمجلات الأسبوعية، وله «مذكرات فضولي» في مجلة كل شيء وطرف وتحف يذيلها بأبيات قليلة النظم، كبيرة المعنى، تعد من الحكم التي تحفظ والتي تخلد على الزمن. والأستاذ علي الجارم مفتش اللغة العربية في وزارة المعارف، وهو شاعر من الدرجة الأولى في حسن الديباجة العربية السليمة وهو أشبه الشعراء بالبحثري، وله قصائد مأثورة خالدة، هي محل إعجاب الكثيرين من شعراء الأقطار العربية.

والأستاذ السيد حسن القاياتي، وهو شاعر جليل سليم الأسلوب حسن الديباجة إلى أقصى حد، رقيق الشعور، واسع الاطلاع على الأدب العربي، ويرجع إليه إخوانه الأدباء والشعراء

فى الذوق والاستفتاء ، وله مقطوعات عالية ، ويكتب الآن تحت عنوان « العثرات » ، قد أخذ على الكتاب والشعراء من المأخذ اللغوية والأدبية ، وبيته منتدى لأهل الفضل والأدب ، وهو من أسرة عريقة بيتها مفتوح لأصحاب الحاجات .

والدكتور أبو شادى وهو طيب ، ويقول الشعر على مذهب خاص ، وله جرائد « مملكة النحل » و « الدجاج » و « أبولو » ، وله مؤلفات أدبية وروايات شعرية وكتب طبية ، وهو نشيط ومفكر ويعمل بمجهود عظيم فى إنشاء جمعيات للشعر وأندية للأدب .

والأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة . وهو صاحب أدب متمتع ، وقلم فياض ، سليم الأسلوب ، رقيق التعبير ، وكان مدرساً للغة العربية فى الجامعة الأمريكية ثم درس فى فرنسا واختير أستاذاً للجامعة العراقية ، وهو وديع الخلق ، على الأدبين : أدب النفس وأدب الطرس . والأستاذ أحمد أمين أستاذ الجامعة المصرية ، وهو رئيس لجنة التأليف والترجمة التى تخرج الآن أنفس المؤلفات العصرية العربية ، وله كتاب « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » اللذان هما الآن محل إعجاب رجال العلم والتاريخ ، ويكتب مقالات فى الرسالة ذات قيمة فى الفكر ، والأدب . والأستاذ كامل الكيلانى ، وهو شاب ذكى ونشيط ، له حركة مباركة فى إنشاء مشروع رابطة الأدب العربى ، وله مؤلفات قيمة فى الأطفال ومجلة مؤلفات أخرى ! وأظنه معروفاً عندكم فى لبنان لسياحته الأخيرة التى تطوع فيها لخدمة الحركة الأدبية بماله الخاص .

والأستاذ فريد وجدى وهو كاتب عظيم ألف وحده دائرة معارف القرن العشرين ، وله جرائد سيارة ومؤلفات ذات قيمة علمية وتاريخية ، وله بحوث رائعة فى الدين والأدب والاجتماع وهو موضع استفتاء الكثيرين فى اللغة والعلم والدين والآداب .

والأستاذ محمد مسعود العالم العظيم والكاتب القدير ، والباحث اللغوى والتاريخى ، المترجم النابغ ، والأديب الواسع الاطلاع ، له « تقويم مسعود » منذ كان المحرر الأول فى « المؤيد » ، وله كتب من قلمه الفياض ، أو من ترجمته الدقيقة ، كما له جولات حديثة فى الصحف عن الفلك والآثار وغيرها . والأستاذ أحمد محرم شاعر كبير عربى الأسلوب ، ساهى الديباجة ، حماسى الشعور ، له ماض مجيد فى حركة الأدب والسياسة ، ويقم فى مسقط رأسه دمنهور ، وهو فى الصف الأول من شعراء مصر .

والأستاذ أحمد الكاشف ، وهو يقول الشعر بفطرته ، فياض القلم واضح الديباجة ، وهو من شعراء الدرجة الأولى ، ثم هو وديع الأخلاق ، ويعمل فى زراعة أطيانه « بالقرشية » ، وهو بين القاس والقلم من رجال الصناعتين .

والأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، وهو عربى صميم ذو ديباجة فياضة بالأساليب الممتازة فى الأدب وعليها طابعه ، وله مؤلفات قيمة جداً ، منها « إعجاز القرآن » الذى طبع على نفقة جلالة

مولانا الملك فؤاد، وله مؤلفات «السحاب الأحمر» و«حديث القمر» و«المساكين» و«تحت راية القرآن»، وهو ذكي وقاد الذهن غيور على الدين، من بيت علم قديم؛ وهو وإن كان أصله من الشام، لكنه ولد في مصر فاحتضنته فهو منها ولها.

والاستاذ أحمد رامي: هو خريج المعلمين العليا وتعلم فن المكتبات في أوروبا، وله شعر غاية في الطرافة وحسن الأسلوب والبيان في اللفظ والمعنى، وأخرج ديوانين من الأدب الحديث، وله أغاني كثيرة للألحان أم كلثوم «تردد بين اللغة العربية والزجل العامي».

والاستاذ أحمد نسيم: وهو شاعر دخل له ماض مجيد في الحركة الأدبية والسياسية من عهد الحزب الوطني المصري أيام المرحومين مصطفى كامل ومحمد فريد، وهو الآن يقوم في دار الكتب بإصلاح ما تخرج من دواوين الشعراء مثل مهيار ونابغة بنى شيبان وغيرهم.

والاستاذ عبد الباقي إبراهيم خريج دار العلوم ومدرس في المعلمين، يقول الشعر السليم كلما خطر له خاطر فيه، وهو ينظم لنفسه، ولا ينشر شعره إلا قليلاً.

والاستاذ عبد الجواد رمضان خريج الأزهر الشريف ومدرس اللغة العربية في مدارس الأوقاف الملكية، ينظم الشعر الجيد جداً ويؤثر في نشره إلا القليل منه، وهو محبوب من إخوانه لصفاء نفسه وجرأته في الحق وقوته في اللغة والأدب.

والاستاذ علي محمود طه، وهو شاب يشتغل مهندساً ولكنه مفرغ بالشعر ينظمه على أحسن ما يكون، وله وقفات فيه خطت به إلى الأمام بسرعة فهو في مصر من الشعراء المعدودين.

والاستاذ الماحي رئيس السكرتارية بالأوقاف، شاعر عربي الأسلوب، حسن الديباجة ينظم على طبيعة نفسه، وهو وديع الخلق صافي النفس خادم لاخوانه محبوب منهم.

وسنؤتي التعريف بباقي أدباء وكذلك أدبيات مصر وكاتباتها وشاعراتها، ومن ثم الأقطار الشقيقة.

الهراوى

رداء

نرجو حضرات الأدباء والأدبيات الذين لم يبعثوا إلينا بصورهم أن يتفضلوا بإرسالها كي يتيسر لنا نشرها في الأعداد القادمة.

استرراك

نشرنا خطأ بصحيفة ٦٤، بمناسبة ديوان المرحوم إسماعيل باشا صبرى، أن القائم بجمعه وطبعه الآن، هو الاستاذ المستشار «محمد بك عزت»، والصواب أنه هو حضرة الاستاذ حسن بك رفعت المستشار بمحكمة الاستئناف وصهر المرحوم صبرى باشا. وكذلك نشرنا في الشهر من ضمن المواضيع «آتى يزانت ومذهب الشيوصوفية الحديثة» ولكننا عدلنا عنه بعد طبع بعض النسخ لضيق المجال، وكتبنا بدلاً عنه في اللحظة الأخيرة «الاتجاهات الحديثة للفلسفة الروحية».

الأستاذ الأكبر أرنت هيكل

بقلم الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي بك

ذكرتني المقالة ذات هذه العناوين: « وحدة الوجود والاعتقاد بالخالق، خلاف بين هيكل ولودج، بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى » فى الجزء الأول من السنة الثالثة (المعرفة) — مرثية فى الأستاذ الأكبر أرنت هيكل (رحمه الله)، كان الوجد به (لاعلميه) قد أملاها على يوم نفاه الناعى . وفيها إشارات موجزة إلى بعض (مقالاته) .

وقد رأيت أن أقعدها فى بهو (المعرفة) فى زاوية مع مقال العالم الباحث الشهير الأستاذ (محمد فريد وجدى) والعظيم والملك ، يزاحمها فى (بيوت الله) من دونها . وقد قال الله تعالى : « إنا المؤمنون إخوة » .

وإن الذى ضاعف تحبيب الأستاذ الأكبر، والإمام الأعظم (أرنت هيكل) إلينا — ولو سماه خصومه (بابا) الملاحدة — أنه كان يبجل فى (كتبه) عظيم هذه الدنيا ، ومعنى هذا الكون ، عجيبة الدهر سيدنا وزعيمنا « محمد بن عبد الله » ، وأقرأ (الفصل الخامس عشر) من كتابه (أحاجى الكون) أو أسرار الوجود كما أراد الأستاذ (وجدى) أن يسميه بالعربية ، وأقرأ رحلة (الإمام) إلى الهند ، وسواها من آثاره — تعرف تبجيله .

وإنه لو قام ذو همة ، وتقل أو ترجم (ولا تقل عرب) أقوال الأستاذ الأكبر ، فى هذه (النصرانية) التى يدعو فى المشرق إليها المضلون المتسمون (بالمبشرين) « لعنهم الله بكفرهم » وأضل أعمالهم » — فإنه لو قام ذو الهمة هذى ، بذلك (وللترجمة رجال) لأطرف الناس خير طرفة ، وكان عمله من أكبر ما يتزلف به إلى الله ، وكتابه ، ورسوله ، وإلى العلم .

وخذ الآن ما وعدناك به فى مستهل هذا القول :

« حملت إلينا جوائب الأنبياء نعى الأستاذ الأكبر (أرنت هيكل) عالم (الكرة الأرضية) فى هذا الوقت و « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » فجزعنا ، وارتعضنا من الحزب . ثم هون الوجد أن (الإمام) قد بلغ أكل العمر ، وأنه لم تتبدل صورته — وما الموت إلا صورة تتبدل — حتى أضاء فى العلم كل طريق حالك ؛ فرشد المتعجيز ، واهتدى الضال . فإن الأستاذ لم ينفك منذ سبعين سنة يبت الحقيقة فى كل مكان ، ويجهز بها فى كل حين ، ويهيب بالناس إليها ، ويحوشهم عليها ، ويصارع خصيمها الباطل ، ويصارع نصرانه ، وجل القوم أو كلهم « إلا من رحم ربك » نصرأوه . ولم يك لتأوله دهاؤهم ، ولم يك ليخشى صولة الصائل ، وسلطان ذى السلطان .

ولما جاء الأقاليم الجرمانية هذا القول الدرويني ، وقرته علماءؤها المقت والمهزأة — أكرم الأستاذ مشواه ، وأفشى فضائله وخصائصه في الجمهور ، وكدح في تهذيبه وتنقيحه . وقد كان يطلبه وهو غلام لم ييفع ، ويستهدى أستاذه (جان مكر) فيه . فلم يأتلق هذا الضياء في الأصقاع الانكليزية لانبليج في الأمصار الجرمانية ، وكان الأستاذ صاحب (المقالة) الدروينية . فما (دروين) أو (سبنسر) بأفقه من الأستاذ ولا صارحته الطبيب : بأمر كتمته إياه . ولقد استقرى من دقائق العلم ما لم يستقرياه ، وأكتمته ما لم يكتنهما .

ولولا الأستاذ لم يصير مذهب النشوء إلى الذي صار إليه ، ولم تزل ريب ، ولا دحضت شبهات ، ولا وضحت مشكلات ، ولا كشف حجج (ريمند) الموهوبة في عضلات الوجود كاشف . قال الأستاذ هو الذي خلص ما التبس ، وأثار ما أظلم ، وعلمنا ما لم نكن نعلم « قالوا : سبحانك ! لا علم لنا إلا ما علمتنا ؛ إنك أنت العليم الحكيم . »

والأستاذ هو الذي قال وبين أن النفس الانسانية هي وليدة النفس الحيوانية ، نفس (الحيوانات اللبني) فانها طلعت من هنالك ولم تبرح تتعالى حتى انتهت إلى حيث لقيناها . فليست النفس ، وليس صاحبها بفريقين متضادين : هذا خالد ، وذاك بائد ، وإنما هما شيء واحد . وما النفس إلا حادث طبيعي ، وإنه لم تستأثر بها (الاناسية) وتعزى منها (الحيوانات المرتقية) ولكن قد أخذ كل قسطه ، والأقسام تختلف « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

والأستاذ هو صاحب القول بالوحدة « وصاحب تحملتها التي شادها على ثلاث قواعد : (الفضيلة ، والحقيقة ، والجمال) واتخذ الكون كله أجمع معبدا « ولله المشرق والمغرب فأينا قولوا فتم وجه الله » .

وهذه (النحلة) وصلة بين العلم والدين ، تطمئن فيها نفوس المتحربين ، فلا يتلهفون على الذي قد ذهب .

والأستاذ هو رب كل مبتدع ، ورب كل قول في العلم بليغ باهر ، زراعي متين سديد ساحر . وإنا إذا قمعدنا نذكر محامده وناقبه « وهي عديد الحصى » « جاء الضعف ، وأننا العجز » ، وإن « همة القول لتتخفف عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد الوصف بتقصير عن أيسر قوافله ومسائره » كما قال (الشعالي) في (الصاحب) .

هذا مسطرناه أيام الشباب ، وحين نعى (الأستاذ) ناعيه وتبناه الصورة .

« ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها يوم أحلام »

محمد إسعاف النشاشيبي

[بيت المقدس]

رجل الغد

موضوع المحاضرة التي ألقتها المربية الفاضلة الآنسة زينب الحكيم
في نادى أصدقاء الكتاب المقدس بالفجالة

سادتى. سيداتى :

يذكرنى هذا الموقف بالوقت الذى أنشأ فيه المرحوم بطرس غالى باشا « الجمعية الخيرية القبطية » فى سنة ١٨٨١ ، حيث كان من بين الخطباء - يوم افتتاحها - الأستاذ الشيخ محمد عبده ، والشيخ محمد النجار ، وعبد الله نديم وغيرهم .

ولو أن الموقف الليلة ليس موقف إنشاء بناء جديد ، إلا أنه افتتاح عهد جديد للمرأة القبطية المسلمة ، تصافح فيه علناً المرأة القبطية المسيحية فى دارها هذه لأول مرة منذ إنشائها ، كما سبق أن صافح الرجل المسلم أخاه القبطى فى عهد المرحوم بطرس غالى باشا من نحو ٥٤ سنة .

والواقع أيها السادة أنه لا يمكن أى فرد مهما بلغت به قوة الحيلة ، أن ينجح فى التفريق بين مسيحي ومسلم خارج مصر أو داخلها ، لأن أهل مصر رجال حزمة ، ونساء خفيفات « لا دغارة » تستهوى نفوسهم الصغائر أو توهم عزائمهم الشدائد . ولقد كان المرحوم سعد باشا ، والمثلث الرحمت البطريارك السابق ، الفضل فى القضاء على ما تسعى إليه عناصر كثيرة للتفريق بين العنصرين المتحددين اللذين يؤلفان الأمة المصرية ولا يزالان متحدين مع ما يبذل من السعيات للتفريق بينهما . والآن أيها السادة والسيدات ؛ أتحدث إلى حضراتكم عن رجل الغد . ومن هو رجل الغد ؟ هو طفل اليوم وفتى اليوم وشيخ اليوم .

ولست أعنى ذلك الذى لم يتجاوز الثامنة أو التاسعة فحسب ، إنما أعنى الطفل كما يعبر عنه الانجليز ، فإن لفظة الطفل تطلق على الفرد حتى سن العشرين ، ولا إخالن مبالغة إذا قلت إن تلقيب الانسان بالطفل مدى حياته يكون أقرب إلى حقيقة نصيبه منها ، فليس لفظا : الشيخ والهرم ضدى لفظ الطفل والشاب ، فلقد يكون الفرد فى عامه الخامس أو أدنى ، وعقليته عقلية رجل ، ولا بد قد علمتم حضراتكم أن أصغر فارس فرنسى عمره خمس سنوات ، وأن رجلا عمره خمس سنوات فى أمريكا ألف كتاباً ، ولقد يكون الشاب الذى لم يتجاوز الثامنة عشرة أو الذى لم يتم عقده الثالث فى كياسة الرجل المجرب والشيخ المحنك .

ومصطفى كمال الذى نهض بتركيا - بعد أن أذن على جنازتها مؤذن الموت أو كاد كما ترون

وتسمعون عن إصلاحه فيها وإنشائه لها من جديد - أصغر المجددين سنًا الآن . ونيوتن صاحب نظرية الجاذبية كان أصغر فتى في العالم أجمع حاز مثل مركزه ! فقد عين أستاذًا للرياضيات في جامعة كمبريدج ولم يتجاوز الثانية والعشرين . وها هو ذا مصطفى كامل الذي عمل لوطنه في الجزء الأخير من حياته ما لم لعمله أجيال بأسرها في الأعوام ، قد مات وعمره ٤٣ سنة فقط . كأن أسكندر المقدوني الذي فتح الفتوحات وطبقت شهرته الآفاق مات وهو ابن ثلاثين سنة . هذا وقد يكون رجل الأربعين في عقلية اليافع ، وقد يكون الهرم الذي أكل على الدهر وشرب أبله غراً ولا تساوى عقليته عقلية دجاجة أو سمكة ولا أقول طفلاً . إن الطفولة في شؤون الحياة غير طفولة السن وإن تكن هذه مرتبطة بتلك غالباً ؛ حيث أثبت لنا علم النفس قديماً وحديثاً ضرورة ملازمة نشاط الإنسان وجميع ما يحيط به لحالته الخاصة لرأسه المعينة بقدر الإمكان .

أما وقد أخلفت التجارب ظننا في ثمار حياتنا ، وفلذات أكيادنا منذ القدم بحيث لم ينبغ من مجموع سنان هذا الكون إلا أفراد تكاد تحصر عدداً في كل علم وفن ، وهؤلاء هم الذين شقوا طريقهم في الحياة سواء أتهيأت لهم الظروف أم لم تنبأ ، فقد وصلت من هذا الحكم وهذه الحقيقة إلى أنه لا بد في نظامنا العالمي العملي والمعنوي نقص معين يرجع إلى ضعف سبل تطورنا ؛ وبما أن المجال مجال تحليل علمي عملي نرى من ورائه الوصول إلى حل برصينا ونتيجة فعالة لنظمنا إليها لرجل الغد ، أقول :

إن هذا الجيل يسمى جيل الطفل ، وإنه اسم موفق لشدة اليقظة التي أصبحت تحوط الطفل متدرجة ببطء من أيام أفلاطون وبلوتارك اليوناني الذي عاش في القرن الأول للميلاد . وتقدمت تلك الحركة بشكل أسرع من أواسط القرن الثامن عشر حتى بلغت الذروة اليوم . وفي يقيني ، أن هذه العناية الفائقة واليقظة الصادقة نحو الطفل لم تكن إلا وليدة انتباه العقول الفذة المدبرة التي أدت رسالتها إلى العالم على أكل وجه ، وإذا كان هؤلاء قد تنذوا إلى عالم الجهاد والكفاح وسط العواصف القاصفة والأفكار الهائجة والمثبعية جهلاً وغلظة دون أن تساعد أو تعضد في إبان كفاحها ، فلا بد أنها لاقت من الجهد أشقاه ، وقاست من ألوهن آله ، ومن الشدة أمضها . ومع ذلك ظهرت لنا من بينهم عبقریات تبقى مدى الدهر ، وأمثال هؤلاء كثيرون قدماء ومحدثون .

فها هو ذا إدسون النور إله السحر ، وتاريخ حياته حافل بالصعاب من ألقه إلى يائه ، ولكن هل هذه الصعاب أوتقت نبوغه وعبقريته دون أن يبلغ جل أغراضه ؟ هل منعت ظروف الحياة القاسية من أن يخفف من قسوتها ، وأن يشمل العالم أجمع بنور اختراعاته التي تنيف على الألفة ثم هنالك قام أمين الذي كانت روحه روح أديب ، روح حساسة ونفس جياشة نائرة

تغزل للبحث والتنقيب ، فتستطلع ما في حياة الكون وحركته من نشاط وجمال ، بل كانت عيناه الواسعتان كما يقول هيكل : « تريدان أن يرى جدّة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحياء وإلهاماً أكثر مما تؤدي إليها المباحث الجافة منطقاً وجدلاً . فكان يحرص على متاعه منها ، ويدعو غيره لهذا المتاع ، وذلك لا يؤثّر إلا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معاني هذه النعم . فقام أدى رسالته بالتعبير عن شعوره بوصف ما في هذه الحياة من مختلف ألوان الجمال » ، إلى أن قال : « وحياة قام كانت كلها متجهة إلى هذه الدعوة ، وكانت متجهة إليها بقوة آخذة بنفسه ، متغلبة عليه ، حالة منه محل الإيمان بها إيماناً صادقاً » .

إنك لتدهش أن تعلم أن قاسماً كان مع كل هذا قاضياً فستشاراً إبان حياته ، وقد قصدت أن أقل لحضراتكم حرفياً هذه الفقرات عن حياة قاسم بقلم هيكل ! لأنني أعتبرها جمعت فأوعت ، وتسجل نفسية كاتب نزيه ، وتظهر سمو خلقياً لذلك الكاتب ! وما أجل ما تمتدح به رجل رجلاً ، وليس أعظم من أن يبكي رجل رجلاً ، ولأن تمتدح امرأة امرأة . وبودي أيضاً أن أرى حضراتكم نموذجاً للأسلوب الكتابي الراق والتفكير النثري المنظم ، فلو أخذت نموذجاً لكاتب من طراز آخر وسمعت صدوركم لسماع شيء من كتابته النثرية . لما ترددت في اختيار الدكتور طه حسين ، إذ هو في نظري شخصية عبقرية مزدوجة كقاسم أمين ، فكما كانت لقاسم قدرة تعدد العبقرية كالكتور طه ، فإن الأخير يمتاز في إيجاد فروع للعبقرية الواحدة : (فهو عبقرى إذا كتب في الأدب ، وعبقرى إذا كتب في النقد ، وعبقرى العباقرة إذا كتب في السياسة) . وهو مع هذا ليس أديباً أريباً خصب ، بل هو فوق ذلك مرب ماهر ، واجتماعى حصيف ، فتفضلوا بسماع حديثه لابنته في كتابه « الأيام » ص ١٢٧ ، والقارىء لحديثه إلى ابنته يرى عظم الفرق بين طفولته وطفولتها ، وكيف أنه تحمل ما يستطاع وما لا يستطاع للتغلب على شؤون الحياة وتنشئة ابنته هذه وأخيها على أحسن ما يمكن ؛ كذلك نلاحظ أنه في حديثه يولى ابنته ثقة على صغرهما مما يربى شخصيتهما ويشجعها على الاعتماد على النفس ؛ وسلوكه هذا مع أطفاله قدوة طيبة لمن سيكون رجل الغد .

ويهمنى أن آخذ « شوقى » كمثل أعلى للشاعرية المصرية ، فقد كان عبقرياً متفنياً ؛ أما شعره على على حدة فلست في حاجة إلى ذكر شيء منه لحضراتكم فكلكم قارىء وكلكم مطلع . وإن ما تخيرته - لأن أسمعته حضراتكم - قطعة شعرية من قصة كليوباترا لا تظهر شيئاً من عبقريته في هذه الناحية ، ناحية القصص التمثيلية الشعرى ، فلقد صور نفسية المرأة القوية في أشد مواقعها بشكل يشهد له بالمقدرة الفائقة . وليس يعنيننا كثيراً موضوع أزمة كليوباترا النفسية ومحاولتها التخلص منها بالطريقة التي حصلت ، وإنما نريد الوقوف على قدرة « شوقى » في تصوير

تسمية امرأة . وهى من القطعة الشعرية التى مطلعها « هلمى الآن منقذتى هلمى » ، والتى منها :

سقطت روما على ملكى ولست جواهر أسرتى وحلى آلى
فمرت الموت لم أجبن ولكن لعل جلاله يحمى جلالى
ومنها: وقد علم البيرة أن تاجى نمته الشمس والأسر العوالى
ومنها: يطالبنى به وطن عزيز وآباء ودائعهم غوالى
ومنها: أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجبال

وبعد؛ أما الآن لنا الأوان وحان لنا الوقت، أن نقوم قومة الرجل الواحد، ونتشبه بتلك المرأة العظيمة فنأبى الضيم على أنفسنا، ونتشبه بحقوقنا كاملة، ونرد جائحة الاستعمار عن عزتنا القومية فتستमित فى الدقاع عن وطننا وحقوقنا إلى آخر رمق لنا فى الحياة ؟ ثم لننتقل إلى عبقرى من طراز آخر ، ذلك هو شلى الشاعر الانجليزى .

ويعجبني منه وقد نشأ فى أسرة جميلة وورثه جده غنى طائلاً ، أنه زهد فى المال ورغب عن الدعة والراحة ، وترك بيت أبيه وأهله جميعاً ، لا على أن يستغل مأوتى من موهبة الشعر وما ورث من مال فينسى ملاكه ولا يستمع لوحيه ، ويذكر شيطانه فيتبع خطواته كما فعل من العرب عمر ابن أبى ربيعة ومن الانجليز بيرون الشاعر ، وإنما سما بنفسه الزكية وإحساسه الراقى إلى جمال الطبيعة وفسيح الخيال ، فترك للناس من بعده أثراً نافعاً يبتى على كر الأيام وممر الليالى .

إلى هنا قد يسألنى البعض فيقول: وما الذى كافأت به الحياة أمثال من ذكرت؟ فأقول: يكفى أنهم انتفعوا بتشغيل قواهم ومواهبهم فى حياتهم إذا لم يكونوا قد انتفعوا أو استمتعوا بشيء آخر . وحقيقة ليس منا من ينكر أو يستهين بما نال عطاء الرجال وعظيمات النساء فى مختلف العصور من أذى ونضال شاق وتضحيات جسام ، إلا أن كل هذا معفو عنه ، ومشاد بفضل به فلولا تضحيات عطاء النفوس ، العناء الهمة ، العطاء الجذوال والإقدام والمثابرة ! لما وصل العقل البشرى إلى ما نراه فيه من رقى وتطور .

ولو حاولت أن أستمر فى سرد أسماء بعض العطاء والعظيمات ولو اسماً واحداً لكل فريق ممن أمتازوا بعبقریات خارقة ، لطلال فى المقال ؛ فهناك مدام كورى ، وبوديشيا زعيمة المدافعات عن الوطن ، ومنيسورى صديقة الطفل ، ورابعة العدوية زعيمة المتصوفات ، وأم الحسين زعيمة الرحيات ، وهناك نيتشه ، وتسلا ، وسعد ، و نابليون ، ومحمد على ، ولودج ، وغاندى ، وغير هؤلاء كثيرون جداً . والذى أريد أن أقوله الآن ، أن هؤلاء على كثرتهم قليلون بالنسبة إلى عدد الانسان فى العصور السابقة وفى العصر

فكيف نصل برجال الغد إلى أن يكونوا عباقرة مثل هؤلاء ، إذ لم يكن فى جميع نواحي الحياة فى أكبر جزء من المستطاع الممكن ؟! إن زماننا غير زمان من سلفوا ، وقد جاء فى

الأثر الشرقى وقد سبق الغربى ما نصه : « لا تقسموا أولادكم على آدابكم ، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » . والحقيقة أننا نريد ثماراً يانعة ننتفع بها تفعاطياً ، ونصل بواسطتها إلى تأسيس مجتمع راق ، تكون القيادة فيه للعقل (أى قوى النفس جميعاً) لا للغريزة الأولية ، أو أن يستمر الخلف مرتكنا على السلف ، والسلف ضاعطاً على الخلف ، مما يفقدهم ميزاتهم الطبيعية من تفكير ونشاط ، فيتراجع الجميع القهقري بدل السير قدماً إلى مراقي الإنسانية . وإن ما يتطلبه أطفالنا اليوم غير ما كان متبعاً بالأمس ، لذلك إذا أردنا أن نسهل على طفل اليوم الوصول إلى هذه الغاية التى نطمح إليها ، فلن يكون ذلك بغير تيسير السبل لظهور نزواته ورغباته وميوله الدفينة إلى حيز العمل المنتج علماً وعملاً ، مع ملاحظة اتزان أجهزته الجسمية خصوصاً جهازه العصبي ، وهذا ما يجب أن يأخذ جزءاً كبيراً من عنايتنا ونشاطنا ، فإننا لو اهتممنا بفعل ذلك ، لرأينا العجب العجيب من ناشئة اليوم ، خصوصاً أن العصر عصر عمل منتج ، وأصبحت الطريق معبدة واضحة ، ويمجد الطفل من الوقت ما يساعده على التفكير والابتكار ، لاسيما وأنه من مزايا الكائن الحى النشاط الذاتى العقلى ، وليس ذلك مقصوراً على أبناء أمة واحدة وإنما يشترك فيه كل كائن حى فى هذا الوجود ، لذلك كان لزاماً أن نطرق باب الرقى البشرى العالمى من هذه الطريق ، وقد اتفق فى ذلك غالبية المربين قديماً وحديثاً ، فقال لوك الانجليزى (١٦٣٢) فى هذا المعنى : « إن المعارف الحقيقية لا تنال إلا بتمرين العقل . ولكل عقل مميزات خاصة ، لذا وجب أن تكون التربية مؤسسة على ما لكل طفل من مميزات ، وعلى حاجاته الاجتماعية أيضاً ، وأن نهتم بما يكون عليه فى حياته العملية » .

وقال روسو (١٧١٢) : « ليس معنى الحياة مجرد التنفس ، بل معناها العمل باستعمال أعضائنا وحواسنا وقوانا العقلية . واستعمال كل ما بقى من جسمنا حتى نحس بوجودنا ، فالغرض من الحياة ومن التربية أن نعيش عيشة تامة » .

وقال بتسالتسى (١٧٤٦) : « يجب ألا يكون التعليم غرضاً فى ذاته ، بل واسطة فى التربية العقلية وتقوية المواهب جميعاً عملياً » وقال فروبل أبو الطفل وحاميه : « يجب أن تكون طرق التربية مرشدة للطفل دون ظهور وتابعة لقيادته بحكمة لى يسير وفق طبيعته لاضدها » .

وإن من أهم قوانينه فى التربية قانون النشاط الذاتى . وإنا نبرهن على صحة نظريته هذه ، بأن تمرين أى عضو فى عمل ما ينتج تقوية ذلك العضو فيه ، وينميه نمواً متناسباً مع تمرينه . وكذلك الطفل إذا استعمل مجهوده الذاتى فى فرع خاص من الرياضات العلمية أو العملية ، فإنه يحصل على النمو المطابق لهذا المجهود ، وبالعكس إذا أساء استعماله فإنه يعطى نموه تعطيلاً متناسباً مع إهمال هذه التمرينات ؛ ومن ذلك ترون أن العقل بقوته الأصلية ونشاطه الخاص به يؤسس لنفسه عالمه الإدراكى . فالعمل والنشاط والحركة تحقق للشخص عالمه الخاص ، ولا سيما

أن النشاط الذاتى الصادر عن البواعث النفسية الخاصة والناجم عن الرغبة والارتياح ، والقائم على توفر القوة للفرد يمكنه من الحصول على الفائدة المقصودة من التربية الصحيحة .

هذا وإن النشاط الذاتى - أو ما أسميه أنا السعى الصادر عن الطفل بطبيعته - يعهد للنفس والعقل فرصاً عظيمة للتهديب بتنسيق وربط بنات أفكاره بما يحيط به . وبذلك يفهم الطفل أن الغرض من وجوده كوحدة مستقلة فى ذاتها دعامة أولية تؤسس عليها الإنسانية .

وبعد فما لا يختلف فيه اثنان أن حرمان الفرد ومن ثم الجماعة ، من ميزة النشاط العقلى والتجارب العملية ، جريمة خطيرة على التقدم القوى والعدالة القومية والنظم الطبيعية .

البلد المصرى بلد الثورات السريعة الهبوب السريعة السكون ؛ وذلك شأن البلاد المغلوبة على أسرها ، ومصر تفوق غيرها فى ضياع نشاطها لسرعة تفرقها وتعدد أحزابها ، ولذلك فاستفادتنا من ثوراتنا قليلة نسبياً ، وإذا ضربنا صفحاً عن الثورات السياسية ، وفكرنا فى شئ أشد مساساً بموضوع بحثنا هذا ، وأخذنا ثورة تعديل المناهج الدراسية منذ عام ١٩٣٤ مثلاً ، ومثلاً حيوياً يهم كل فرد فىنا ، وجدنا أننا لانسير على نظام معقول صريح للوصول إلى أغراضنا فى مختلف الشؤون بله شؤون التربية والتعليم ، تلك المسألة الهامة العويصة التى يتوقف عليها رقى العالم أجمع . لقد اتفق فى هذا البلد على وضع خبر العشرين إلى الثلاثين مادة لتدرس فى المناهج ، وكلف الطفل ذلك من طور الروضة إلى الدراسة العالية فالتخصص ؛ هذا عدا الاجتماعيات التى تجدر العناية بحركاتها وتشجيع الفشء بشتى الوسائل على الاندماج فى سلوكها ، بدل اندفاعه إلى تيار المجتمع الفاسد ، فيغزو المقاهى وأماكن اللهو كالمسخر لإخلاء جيبه وإفلاس مالية والديه ، وتخريب أخلاقه وإفساد مستقبله .

ولكن ، لنقف هنا قليلاً ونسائل أنفسنا : هل أفادتنا ثورة تعديل المناهج ؟ الجواب مع الأسف سلباً ، لأننا نرى الطلاب متأففين والآباء غاضبين والمدرسين ناقلين ، والحقيقة أن المناهج بهذا التعديل لم تخرج لنا رجالاً كنا نطمح فى إيجادهم ، والأسوأ من ذلك أن من شذ بذكائه ونشاطه واستعداده أهمل شأنه ، واستولى عليه اليأس من دوام عدم تشجيعه .

ومن هذا نرى النفوس ثائرة - ولقد يكون لها الحق فى بعض النواحي - غير أنى أرى أن سبب هذا كله يرجع إلى أساس هام لم ينتبه إليه أحد من القائمين بالإصلاح فى مصر ؛ ذلك هو إصلاح شأن الطفل فى السنوات التى تبدأ من يوم جملة إلى أن يلتحق بالدراسة (الروضة) فى سن الخامسة ، متغاضين فى ذلك عن أهمية علاقة الآباء بالبناء . عرف الأمر عنها إلا التزر اليسير ، وثانياً يشكو الجميع من مواضع لا يجب أن تكون موضع شكاية ، بل يجب أن تكون موضع تقدير وعناية ، مثال ذلك أنهم يشكون من كثرة مواد الدراسة مع أن ذلك فيه إعلاء لشأن الطالب ، حيث إنه عامل قوى لتوسيع مداركه وإثراء لشخصيته ، وإن ذلك بمثابة

تواة أولى تمكنه في المستقبل من الصعود عليها إلى أقوم درجات البحث والتفتيش، ومن هذا ترى أن الشكاية كان يجب أن تكون من سوء طرق التعليم وتواكل أوجهل القائمين به، وسوء ترتيب الدراسات المتنوعة في السنة الواحدة وفي مرحلة التحصيل كلها، وجعل دراسة جميع المواد إلزامية لكل طالب، وغير ذلك.

أما السبب الأول وهو الجدير بالعناية الفائقة في نظري، وهو السبب الذي من أجله ضربت الأمثال بالعابرة سألني الذكر، على أن أهيب برجل الغد أن يقتدى بهم، وذلك لكي يكون خير قدوة لأطفاله حينما يكون أباً إن كان رجلاً، وأما إن كانت امرأة خصوصاً وأن العلم والتجارب أكدت أن هناك علاقات ثابتة بين الوالدين وأبنائهم، فهناك:

١ - علاقة طبيعية، وتلك هي رابطة الزواج التي ينشأ بواسطتها الطفل، ومما لا ريب فيه أن هناك ميزات طبيعية ثابتة توضح علاقة الطفل برجل وامرأة هأما، وأبوه؛ فإذا كانا سليمي الجسم والعقل عبقرني المواهب، ظهر ذلك في نتاجهما الذي يجب أن يكون محدود العدد حتى يستطيعا تنشئته بسهولة ونجاح.

٢ - ثم هناك الرابطة الانفعالية بين الوالدين والأبناء، وهذه الصلة مميزة للرابطة الطبيعية، وكثيراً ما نسمع الوالدين يرددان: ابني! ابنتي! ولدي! مع قصد التشديد على إياء المتكلم، وأقل ما في هذا التعبير الانفعالي من مظاهر، هو مظهر الحب الأبوي، وهذا يعني به دائماً ما يكنه الوالدان لأولادهما من المحبة، ولا يشترط أن يعني به ما يكنه الأولاد لأبائهم من محبة، (لأنهم يكتسبون ذلك كما تقدمت بهم الأيام).

٣ - ثم هناك الرابطة العقلية، فكلماتنا الطفل وتقدمت به سنو عمره، تمت عنده رابطة عقلية خاصة، فهو يحفظ أو يتعلم من والديه إذ يتحدث إليهما عن الأشياء؛ ومما لا شك فيه أن الرابطة العقلية هذه لها ارتباط وثيق بالرابطة الانفعالية سالفة الذكر.

٤ - وأخيراً هناك الرابطة الاجتماعية بين الوالدين والأبناء، فنلاحظ أن الوالد الفخور بابنه والمسرور منه يعرضه لتجارب مختلفة وأشياء ممتازة لا ينالها باقي الأطفال من نفس الأسرة، لأن حالهم لا تدعو إلى الفخر، وليسوا حائزين الرضاء التام من والديهم، والحكم العادل في أمثال هذه الأحوال يتوقف على مقدار ثقافة الوالدين ومقدار دراستهما لأبنائهم، وهنا يظهر فرق كبير بين الطفل الذي يأخذه والده هنا وهناك، وبين الطفل الذي يظل قعيدة البيت حتى إذا ما خرج إلى المجتمع كان أبلاً قليل التجربة، غريباً في محيطه.

لذلك، فنحن في حاجة ماسة إلى عدة فعلية للأباء والأمهات لكي نعاونهم على النهوض بأسرهم من جهة تربية النشء والتعاون على الحياة المشتركة؛ ولقد قدمت أن لفظه الطفل

يصح أن تطلق على الانسان مدى حياته لكي يستطيع الدرس والتنقيب طول هذه الحياة ، إذ لاخير في عقل يقف تفكيره، وحياة تنتهي غايتها.

إذن: نحن في حاجة إلى مدارس خاصة بالآباء تشبهاً بما اتبعته الأمم الراقية للأخذ بناصر الانسانية ، فنذ أوائل القرن العشرين تنبه علماء الاجتماع والتربية إلى الدور الهام الذي يمثله الآباء في تربية رجال الغد لما بين هؤلاء وأولاء من الروابط والعلاقات، وكيف وجد أن هذه الروابط بين الآباء والابناء غير كافية بإعداد النشء إعداداً مرضياً ، لذلك يجب أن نعوض الآباء ما فاتهم في أوقات تحصيلهم ، فزودهم في تلك المدارس بكثير من العلوم المستحدثة ؛ كعلم النفس التجريبي والاجتماع والمنطق والفنون المتنوعة لما لها من أهمية في تربية وتكوين عقلية الناشئ ، كما نساعدهم على دراسة الطفل بنوع خاص في أشهر أطوار حياته خصوصاً طوري الطفولة فالمرحلة ، إلقاء ما عساه ينتج من مشاكل خلقية واجتماعية في المستقبل .

وعليه يجب أن نسرع في إنشاء اتحادات وجمعيات للآباء بحيث تضم الأمهات والآباء من كل الطبقات لنباحتهم وزردهم في أمور تربية رجال الغد ، كما عملت انجلترا وأمريكا عام ١٨٧٧ الأولى و ١٨٩٧ الثانية . وبالضرورة سينشأ عن هذا معاونة المدارس على مهمتها الشاقة ، وسنقدر العناية بالأطفال المهمل والمتشردين ، ونعنى بموضوع رعاية الطفل بشكل أعم إن لم يكن بتلك المدارس الخاصة فليكن بكثرة المحاضرات والدراسات والتجارب العملية .

فإن حالتنا الراهنة في مصر حال يشفق على البلد منها ويرثي لآخلاقها ، وإنه طالما لا تأخذ بيد بعضنا بعضاً ، ولا نشد أزر بعضنا بعضاً ، وطالما لا يوجد من يهتبه الله لأن يأخذ بناصرنا ويهديننا الصراط المستقيم ويوجهنا الوجهة الصالحة ، فلن نستطيع أن نطمع في عيشة راضية وجنة عالية على هذه الأرض .

والواجب علينا جميعاً أن تمثّل بقول سالم بن عبد الله: « اجعل الناس أباً وأخاً وابناً ، فبِأبائك ، واحفظ أخاك ، وارحم ابنك » . وعلينا أن نعمل كثيراً ولا نتنظر أجراً كبيراً . ولا يفوتني أن أقول: إن على المرأة - وأنا واحدة من جنسها - أن تشعر عن ساعد الجدد ، وأن تساهم بميزء وافر من نشاطها وذكائها ومنابرتها لأن تؤدي رسالتها على أكل وجه ، وأن تأخذ بيد الرجل في تسامح مهما كلفها ذلك من مشقة .

وليعلم الرجل المصري أن رسالة المرأة المصرية لا تنفذ إليه إلا إذا استعد لاستقبالها . فإذا كان يرجى للمرأة المصرية الجديدة أن تضارع أختها الثالثة أو أن تتشبه بمثيلاتها من نساء الغرب اللاتي غيرن صفحة التاريخ بما أوحين إلى النوابع والعباقرة ، فلا بد من إعداد الرجل المصري لتلقى رسالتها بقبول حسن ، وأن يهملها المسكان اللائق بها حتى تنهض بمصرنا نهضة سمو توصلنا إلى الكمال التام .

على طريق بيروت

للاستاذ أحمد الصافي

ويوم عدت من سفر بعيد
إخال البرق بين السحب ناراً
وكنّا في أتومبيل سريع
كفيل في الفلاة له عيون
كأن الدرب سوداء الأفاعى
تلوّى في السرى وتشيل صدرأ
نروم لرأسها النأى وصولاً
عشقنا رأسها النأى ومن ذا
ركبنا بطن فيل فوق أفعى
فإلاح على الطريق لنا مشاة
أب شيخ، وطفل دون سبع،
ورابعهم كأهل الكهف-كلب
يسير بجنبهم يحمى حمام
فندق بالأتومبيل المولى
فظن بأنه وحش غريب
فتار بوجه ذاك الوحش يعوى
رم له بشدقيه اقتراساً
إم السائق القاسى انتقاماً

وقد غطت أديم الأفق سحباً
تشب بغابة حيناً وتخبو
تساوى عنده بُعد وقرب
تشم كأنها في الليل شهب
سرت ما بين آكام تدب
لها فلصدرها خقض ونصب
وليس يعوقنا في السير صعب
لرأس الحية السوداء يصبو
وذاك الفيل يزأر إذ يحب
يؤلف بينهم نسب وحب
وأم ذات منها القود شيب
يلوح كأنه في الشكل ذئب
وفي عينيه نيران تشب
إلى أهليه وجهاً لا يحب
توجه منه نحو الأهل خطب
وهب نخلت عاصفة تهب
ويغدو بالنباح له يسب
وما ضاقت به في السير درب

فوجه سيره للكلب ظاماً
فظل الكلب يرفس رفس موت،
تفجع أهله فبكوا عليه
بكوه وكيف لا يبكون خلاً
وجاء الطفل يبغى ضم كلب
لقد نشأ معاً والكلب جرو
يداعبه ويؤنسه بتقر
رأى دمه فصب عليه دمعاً
أيا كلبى العزيز! فدتاك نفسى
وظل يروم مسح التراب عنه
يحاول حمله حيناً فيعيا
ويلثمه لينعشه بلثم
تلقى اللثم عن أبويه طباً
فراح يزيد ذاك الكلب لثماً
وظلت أمه تبكى حناناً
يروم أبوه سحب الكلب منه
تمسك طفله بالكلب حباً
تركناهم وفي قلبى شجون
فثرت على الأنام لقتل كلب
وقلت: بأى ذنب أوردوه
بكيت وللسماء رفعت رأسى
[دمشق]

وأورده الحمام وقال كلب !!
عظام حطمت وانشق قلب
بدمع ملؤه ألم وكرب
وفياً قد قضى عنهم يذب
له معه هوى ماض ولعب
وليس عليه سن الطفل يربو
وذاك الطفل فوق الأرض محبوب
وصاح وصوته نوح وتذب
ألا حى وكل، فذا أكل وشرب
وللدم منه فوق الأرض سكب
ويبغى أن يسير به فيكبو
كأن اللثم للمجروح طب
له، إن نابه جرح وضرب
وبالدم قد تلطخ منه ثوب
لدمع الطفل أو لدم يصب
ليدفنه فلم يمكنه سحب
وهل يرضى بدفن الألف صب؟
ولم يابه معى للأمر صعب
وصرت كأنى للسكل حرب
رداه، وهل دفاع الكلب ذنب؟
وقلت: أما لهذا الكلب رب؟!
أحمد الصافي

الشباب والعروبة في القاهرة

[كتبت في الأصل لجريدة « الجامعة الإسلامية » بـ « يافا » ، ولم يتيسر إرسالها في الميعاد المحدود ، فرأينا إثباتها هنا بنصها وفصها]

تفضلت « الجامعة الإسلامية » فرغت إلى أن أساهم معها في عددها الذي شئت أن تتوجه باسم « الشباب » ؛ ومن الحق أن « الشباب » يستطيعون في هذه المرحلة من مراحل العصر الحديث أن يقتبطوا كثيراً ، لأنهم لم يمدوا خافتي الصوت إلى ذلك الحد الذي لا يفتح آذان الشيوخ ، ولأنهم قد مهدوا للحياة — على ضروبها — أسباباً من التفوق من شأنها أن تحمل على المفارقة والمباهاة .

وعندى أن الشباب — في الوقت الحاضر — قلما يعني بأشباع عاطفة الغرور في نفسه بمقدار ما يعنى بتوجيه الجيل الحديث توجيهاً مترناً موفقاً ، ثم فيه ما فيه من مجانبة لهذه العثرات الثقيلة التي تحطمت على صخورها أحلام الأجيال الغابرة ، وفيه ما فيه من تحقيق لألوان من النفع الحافل بكل ما هو خير شامل .

والذين يدرسون اليوم أطلع « الشباب » دراسة علم وتحقيق ، يخيل إليهم أن الجانب الروحي هو الذي يسيطر على هذه الأطماع سيطرة كبرى ، وهذا من خير ما نسوقه — معشر الشباب المشتغلين بالبحوث العلمية الروحية الفلسفية — دليلاً وأى دليل على اندحار المادية ، رغم ما يبدو في مظاهرها الحالية من طلاء ورواء ، ويلوح لعين الأعشى بريقه فيظنه نوراً حتى إذا جاء لم يجده إلا برقا خلاباً ، ونسوقه دليلاً آخر على أن التنبه الروحي قد أخذ يستقر بعد إذ تقلقل من مستقره قروناً عديدة ، فأخذ ينتعش وينتعم نسيم الحياة من جديد ، بفضل العلوم الحديثة التي نفتقد أنها من أكبر العوامل على تثبيت المعتقدات الروحية ، لا على هدمها كما يظن الكثيرون . والواقع أن الشباب اليوم لا تنطوى نفوسهم على الأماني الممسولة والآمال الكاذبة الداعية إلى السيادة المادية وما فيها من ضروب الإرهاق والاستعمار ، وإنما يسيطر عليهم أحلام ناعمة بيضاء ، وأمان سامية ، يريدون بها أن يحققوا من دستور السلام والإخاء والمساواة أكبر جانب ، حتى لا تنطفي عليه تلك العقائد التي أرغمت العالم على أن يعيش في تناحر وتدابير ، بل في جحيم الخصام وسعير الحروب .

هذه النزعات الجديدة بما فيها من جلال ، وما يتخللها من روعة ، وما ينعمرها من خير ، هي التي

أتاحت للشباب تلك المنزلة السامية في النفوس ؛ وما أحسب إلا أنها هي التي هيأت للزميلة الكبيرة الممتازة « الجامعة الإسلامية » أن تصدر هذا العدد الممتاز لتصور فيه جهود الشباب من جانب ، ثم لترجى إليهم من نصائح الكتاب ما يستطيعون به أن يتجهوا إلى منتهى ما ربههم في خطوات سديدة وسعى رشيد .

وأعود إلى حظي من المساهمة في عدد « الجامعة الإسلامية » الممتاز ، فأقف بالقراء المنتشرين في جوانب الشرق العربي كله موقفاً لا أدري ، أهو موقف الحيرة ، أم هو موقف التردد ، أم هو موقف بين هذين ؟ فقد تلفت حولي لأمسك بقلمى عنان موضوع أستطيع به مجابهة الشباب في شيء من التوفيق ، ولكنني كنت كثير الحيرة بين ألوان التفكير ، كثير التردد بين صور الشباب المتعددة وأمانيه الواسعة ، فأنا أعلم من نزعات الشباب ما يعلمه الذي يكابد أعنف مراحل وأزخرها بالجرأة والتمرد !! « على حد تعبير الشيوخ وتصويرهم له » ، وما زال - والله الحمد الذي لا يحمده على المكروه سواء ، إن صح أن ثمة مكروه - في دور الشباب الباكر . وهنا لا أكتف الزميل الجليل صاحب « الجامعة » القول بأني كدت أودع دعوته أضياف المحفوظات ، معتذراً من إجابة الدعوة الكريمة بهذه الشواغل المرتجلة المألوفة ، ولكنني توقفت عن هذا الخاطر فجأة .

إذ لم لا أحدث الشباب عن مظاهر العروبة في القاهرة ؟ القاهرة التي احتملت في الصيف الفائت ألوانا من الجدل الحاد العنيف حول هويتها اليوم : أهى مصرية فرعونية ، أم هي مصرية عربية ؟

إذن فلا أحدث عن القاهرة من هذا الضرب ، على ألا أحمل في هذا الحديث آمالاً تهب مع الريح ثم لا تلبث أن تذهب بها الأاصير ، أو تتمثل أحلاما تعانق السماء ، فنمس أقصوصة الوحدة العربية من ذلك الجانب الذي هلهله الهاقون بها ؛ فالشباب الذي تركز اليوم في أذهانه تلك الأقصوصة سيعمل الآن ، وبعد الآن ، على أن يجعلها حقيقة صريحة لا دثار عليها رغم أنف الموتورين . سأحدثك عن القاهرة حين لا تبدو في مظهرها القومي وحده ، بل حين تأخذ زينتها من ألوان الشرق العربي كله ، فأقول لك إن العروبة على ضروب صورها تجد في مدينة الأهرام والأزهر حياة خافلة بما تثير في النفس من أعمق عواطف الغبطة والسرور .

واسمحوا لي أن أزعج بحق أن « القاهرة » تستطيع وحدها أن تقطع أريكة الصدر ، يوم يفاخر الناس بما تزدهم به العواصم الإسلامية من جماعات وجامعات ، وإذا كان الأزهر يحمل بين طواياه أسباباً من المجد ، فأوفر هذه الأسباب عندى أنه أتاح للشعوب الإسلامية أن تجتمع في صفحه ، وأن تتزود من ثقافته . ولقد بقيت هذه البقعة الطاهرة من مدينة « القاهرة » تؤدي رسالتها حتى اليوم أداءً لا تعثر فيه ولا التواء ، ثم تجمعت إلى هذه الرسالة أسباب أخرى

يتصل بعضها بالصحافة ، ويتصل بعضها بالسياسة ، ويتصل بعضها بالأدب بعيداً عن الجو الصحفي ، وكانت جماع هذه الأسباب وليدة الحرب الكبرى قبل أن تكون وليدة الصلات التي جمعت طائفة من الشعوب العربية تحت التاج العثماني حتى آخر الحرب الكبرى .

كانت هذه الصلات وليدة الحرب ؛ فالشبان المصريون الذين اتجهوا إلى الميدان الشرقي قد عادوا إلينا وملء قلوبهم ذكريات طويلة عن هذا العهد ، برغم ما كان يكتنفه من ضروب الأحداث ؛ وما من شك في أن الشبان العرب قد مهدوا لأنفسهم ألواناً شتى من الأواصر ، وصوراً رائعة من العلاقات مع إخوانهم الذين نزحوا إليهم من مصر . ومهما يكن نظرنا إلى مكانة أولئك وهؤلاء ، فإننا لا نستطيع أن ننكر أثر هذه الأواصر والعلاقات وعملها الساحر في النفوس ، على ما فيها من سداجة بالغة وبسطة لينة .

بعدهذه المرحلة أتيح لنا في مصر أن نعلم الشيء الكثير عن فلسطين وعن الشام كله وعن العراق وعن كل شعب عربي كابد الحرب عدواً أو صديقاً ، ثم استطاعت الأيام التي وحدت بين أولئك الشبان البسطاء أن توحد بين طوائف أخرى أعمق صلة بالحياة ، فاذا جهودنا السياسية منتظمة في سبط واحد ، وإذا جهودنا الأدبية بعدئذ تتلاقى في جدول واحد ؛ وكأن ماء النيل قد امتزج بمياه بردى وأواه الفرات .

هذه الوحدة هي التي تعيش الآن في أسلوبها الشعبي ، وهي التي يريد المصلحون لها أن تعيش في أسلوب رائع وسمت أخاذ ؛ وإذا كنا قد لمسنا حظ « الوحدة » أو بعضاً منه في الشام وفي فلسطين والعراق ، فهلا يدعوك ذلك إلى التساؤل : أي حظ أصابته في القاهرة ؟

إن العروبة ترى في القاهرة أروع ما تشهده من حياة ، ففيها مصريون صدروا عن القرية المصرية ، ولم يعرف أجدادهم من الشرق العربي إلا مكة ، ولم يعد الشرق العربي عند حدهود السماع ، ولكنهم مع ذلك يتحرقون إلى العروبة شوقاً ويتدهنون بها غراماً .

ففي دار العروبة القائمة على سيف النيل ، حيث يبسط فيها صاحبها العلامة « أحمد زكي باشا » سماء العروبة الأصيل ، يستطيع الشرق أن يجازف في غير أناة ، فيقبل عليها دون أن يقال له من أنت ؟ وإنه لملاق فيها آناء الليل وأطراف النهار إخوانا يتصل كل واحد منهم بأمة شقيقة ، فهذا مغربي من الشمال الأفريقي ، وهذا عربي من صميم الكاب ، وذلك عربي من أخاذ بغداد ، وهذا عربي صدر عن كابل أنماستان ، وهكذا وهكذا يتلاقى بالأهم العربية كلها مجتمعاً في أفراد منها عند هذا الصعيد .

فاذا أخذ الشرق حظه من « دار العروبة » ، وشاء الصلة بأفراد من أعلام المصريين ليطلع على مافي طويلاً من نزعات حيال العروبة وأبنائها ، إذا به يدهش ويدهش حين يقرأ في طيات قلوبهم صفحات مودة بذكر العروبة ، زاخرة بذكرياتها العميقة الطيبة .

ثم كل شيء في القاهرة يتناول العروبة وفق أسلوبه، فالأستاذ الدكتور منصور فهمي عميد كلية الآداب يعيش اليوم وفي دخيلة نفسه روح عربية لا تعرف حدود الأصقاع، ولا مسالك انفلك، والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية في الجامعة المصرية لا يحفل بجلسته من الجلسات، أو يعني بحديث من الأحاديث، بمقدار ما يحفل بجلسات العروبة، وأحاديثها الرائعة التي يمنحها نصيبها الأوفى، والأستاذ أحمد فهمي العمروسي بك عميد معهد التربية السابق قلما يتخير في رسائله حديثاً لا يخاطب به العروبة في مظهرها الشامل، وغير هؤلاء جماعات وأشخاص كثيرون - لا يسمح المجال بذكرهم خوف الإطالة والملال - منتشرون في القاهرة، لهم طابعهم العربي، وأسلوبهم العربي، وميولهم العربية، وأطامعهم في أن تكون الصلة بين الناطقين بالضاد صلة وثيقة مخفوفة بالنجاح واضطراد الفوز.

وما يقال عن هذه الجوانب الثقافية يقال عن نظائرها من الجوانب الأخرى، فنحن في مصر نعتقد أن مشاركة بنى عمومنا من العرب لنا فيما نترفر عليه من أعمال - أيا كان نوعها - إنما تحمل معها حياة من الإخاء السحري، ووشيجة من وشائج القربى المتينة، التي لا تستطيع قوة في الأرض - بالغة ما بلغت - أن تفصم عراها، أو تهد من بنيانها الشامخ الذرا، الرفيع العباد. وقد يسرك كثيراً أن تعلم أن الحفلات التي تقام في القاهرة لا نعددها ناجحة ما لم يكن من شهودها جماعة من أقطاب الشرق العربي، وما لم يكن من خطابها جماعة أخرى من خطبائه المصاقع أو من شعرائه المبرزين النابضين؛ وقد يسرك كثيراً أن تعلم بأن الوافد من الشرق العربي على القاهرة لا قدرة له على الدعوى بأنه نزع عن بلده إلى بلد غريب، وأنى له هذه الدعوى العريضة، وإخوانه المصريون يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم؛ بل أنى له بهذه وهو مخفوف أبداً بأصدقاء تنطوى نفوسهم على أعمق عواطف الود والإخاء، يوفرون عليه أسباب التزود من الحياة القاهرية التي لا ضرب لها في الشرق كله؟ وقد يسرك أيضاً أن تعلم بأن الفكرة التي تبدأ أول مراحلها في العراق أو في أقصى الجزيرة إنما تلتقي حظها من الذبوع والانتشار في القاهرة قبل أن يتناولها الباحثون وكأئهم يجادلون رجلاً لا يبعد عنهم إلا شبراً واحداً.

فهل يتاح لهذه المظاهر الجياشة بألوان الآخاء وضروب الود لها أن تحرك في «الشباب» عواطف أخرى؟ من المرجح عندي أن الشباب سيتناولونها بالتأمل الكثير، والتفكير الهادئ، وسيبتكرون لها حياة جديدة من حقها أن تكون استقلالاً طيباً لهذه الصلات العميقة حتى تخرج من أسلوبها المشتت إلى أسلوب آخر أشبه ما يكون بالقصيدة الموحدة القافية. وإلى أن يبتكر الشباب هذا الأسلوب لاستغلال مظاهر العروبة في القاهرة أمد أيدي إليه مصالفاً صارعاً إلى الله أن يهيء لنا من أمرنا رشداً.

شوقي وحافظ

لحضرته صاحبة العصمة السيدة ف. ع

حضرة الأستاذ الفاضل صاحب المعرفة :

تحية وبعد : لعلكم تذكرون هذا الحديث الذى دار بيننا عن مكانة المرأة من الأدب، بحضور حضرة شاعرنا المجيد الأستاذ المراهوى صاحب الفضل الأكر على شعر الطقولة وأناشيدها، وغير ذلك : ولم كان حضرته متحمساً لأن يثبت أنه يوجد عندنا (أى بمصر) أستاذات فى العلوم والتربية ، ولكن لا توجد شاعرات أو مشغلات بالأدب أسوة بنهضة الرجل فى ذلك . ومن حسن الاتفاق أنى حصلت على مسودة لدرة شعرية لسيدة فضلى من كرائم الأسرات المريقة فى الفضل والأدب إلى جانب ما انقردت به من رسوخ قدم فى رفع لواء العدالة ؛ ونيلها القدر المعلى فى استقامة القسطاس فى مصر . وإنى أبعث إلى مجلة « المعرفة » الغراء بهذه الخريدة من شعر هذه السيدة الشاعرة المطبوعة ، لأؤكد لحضرة الأستاذ المراهوى أن هناك مئات من الشاعرات والأديبات تظلمن القصور العالية ، وتمكسد أعمالهن الأدبية فى مكتبات تلك القصور حتى يحين الوقت الذى يستطيع المجتمع المصرى أن يستمتع بثىء منه . وإنى لا أذكر أنى قرأت أو سمعت - فيما قرأت وسمعت من رثاء حافظ وشوقي والأشادة بفضلهما على الأدب وتلخيص مجهودهما ورثائهما الحار وإيفائهما حقهما من الشكر فى إيجاز وسلاسة وأمانة- مثلاً رأيت فى هذه القصيدة .

وإنى أرجو أن تكون فاتحة موفقة لأن نحصل على قصائد أخرى لحضرة السيدة، فإنى أعلم علم اليقين أن لدى حضرتهما الشىء الكثير فى مختلف المعانى، ورجاؤنا ألا تضن علينا بذلك خدمة للأدب.

منصفة

خطب دهن مصرأ فأعيا الشعر والأدبا	وزاد فى القلب نيران الأسى هبياً
هوت لمول مصاييها النجوم أسى	وخلفت مسرح الأفلاك مضطرباً
شوقي وحافظ بانا عن خمائلها،	فن يعيد إليها الأنس والطربا؟
طير بعدها أنات ثاكلة	تقول: كانا نغار الروض واحتجبا

مضى الذى استنزل الالهام يبعثه
يا مُرسلاً فى ديار الخلد إنك بالـ
أثكلت مصرأً وبغداداً وأندلسا
ياموت يكفيك ماجرعت من غصص،
فى القلب والجفن جرح غير مندما
أستغفر الله لا كفرأً ولا جرحا
هى المقادير لا تجرى لنيل منى

فقيدُ مصر فقيدُ الشرق أجمعه
ماشب إلا حريأً بالإمارة فى
أو شاب إلا أميرأً بالنبوغ وما
قالوا: جرير، فقلنا : لا يضارعه
وإن غلت (أسواق علم) فى معارضه
ما أجل الدر نظماً فى قلائده
قد كان يملأ جو الشرق مفخرة
عنه يسرى كل نازلة
قومية نهضت فى غرة سطعت
نقد، ووصف، وتهذيب، وتسلية،
قدمثلت فى خيال الشعر مملكة
شوق وحافظ كانا الرافعين لو
كم أمدًا النشء فى تكوين نشأته

يشاطر الشرقُ فيه الغربَ منتحبا
باب الملوك وإن لم يؤتها نسباً
من شاعر قبله قد أحرز اللقبأ
ولا طراز جرير منه قد قربأ
أسواق «أحمد^(١)» كانت كلها ذهبأ
وأبدع الزهر منشوراً إذا كتبأ
بين الشعوب وكان البالغ الأربأ
وكان يهتز فى أفراحه طربأ
بنورها يهتدى من ينشد الأدبأ
فوق المسارح زادت أمره عجبأ
أحيا بها الفرس والأترأ والعربأ
اء المجد للشرق أنى للعلا ذهبأ
وهيأ لله دى نحو السها السببأ

(١) إشارة إلى كتاب المرحوم شوق بك المسمى «أسواق» هو من خير ما كتبه فى النثر

وأغنيا اللغة الفصحى وما برحا مهدّبين بها الأقلام والكتبا
حتى أطاعا وشيكا أمر ربهما وأورثا النيل فخرا جاوز الشها

إن يعقب الأول الثانى فلا عجب فما عهدناها إلا قد اصطحبا
على دين لسكر منهما ، أبى ضعفى به ، وهو يعي الأبد الأربا ؟
كلاهما قدرنى لى « درة » نزع منى بدرة فكر زانت الأدبا
« من لى بفضل بيان أستعين به » على رثاء يؤدى بعض ما وجبا 11

إن التراب لمن أجسام من سبقوا وخلفوا الدمع هطالا ومنسكبا
يصيب منه نبات الأرض نضرته لونا وشكلا ويجلو حسن ما اكتسبا
هو الغذاء الذى نما عناصره هو الحياة التى من مأها شربا
فقوته من قلوب طالما نعمت وشربه من جمال طالما عذبا
ولم تفر غير أرواح لها صعدت وغادرت دونها الأفلاك والشها
فإنه أكبر فى كينونة نزعته منا الخلود وفما الله قد وهبا
وفى قضاء وفى عيش وفى قدر وفى احتمال الأسى فى أن يقال خبا

فى ذمة الله فى فردوس رحمة شوق وحافظ من بدرين قد غربا
إن يخشيا ضجعة الأحجار دونهما فمن جدود تحي فيها النسبا
أو يخشيا ضجعة والترب فوقهما فمن قلوب وانكن مزقت إربا
عليهما رحمت الله دائمة دوام غيث على قبريهما صيبا
إليهما من دعاء الشعب أطيعه ما أحرنا مصر والأهلين والصحبا

الاسلام والعلوم الجغرافية

محاضرة ألقاها بالألمانية في رابطة الثقافة الاسلامية بهينا

الأستاذ أحمد زكي وليدى بك
أستاذ التاريخ التركى بجامعة استنبول سابقاً

إننا نبتعد شيئاً فشيئاً عن الزمن الذى كانت تعتبر فيه التحولات التى نجمت عن الفتوحات العربية والتركية والمغولية وعن هجرات هذه الأقوام من شمال شرقى وجنوب غربى آسيا نكبة على تاريخ العالم وتعد كارثة على الحضارة الانسانية . أما الآن فالعلماء أمثال هنرى بيرينيه والاخوين اسكندر وأوجين كوليشر، ثم هنا فى فينا الأستاذ روبش والأستاذة ارناباسلت، يبرهنون على العكس أن هذه الحركات لعبت دوراً عظيماً إيجابياً فى تاريخ المدنية .

إن حوادث التاريخ مرتبطة فيما بينها ، فبدون الثقافة الكلامسيكية لا يمكننا تصور وتقدير الثقافة الاسلامية ، وكذلك الحركة الثقافية الحديثة فى الشرق لا تتصور وتقدر بدون المدنية الأوروبية، وبالمثل لم تكن الثقافة الافرنجية لتقوم لها قاعة ما لم تقم المدنية الاسلامية فى التاريخ، وكما قال بيرينيه « بدون محمد لم يكن أحد يتذكر شارلمان » .

ولو لم تدخل فى الاسلام شعوب وسط آسيا (الإيرانية والتركية) لبقى الاسلام ديناً محصوراً فى غرب آسيا، ولما صار مدنية طلمية استطاعت أن تفتشر إلى شواطئ المحيط الهادى، ولو لم يفتح المسلمون الأتراك بلاد الهند لما تيسر للهند أن تشترك فى الحركة الثقافية التى قامت فى غرب آسيا فى المصور الوسطى ، وكذلك لولا الضغط العربى والبربرى عن طريق اسبانيا لما انتشرت التجارة الألمانية البحرية فى بحر البلطيق .

ولم تنسج التجارة والعلاقات الثقافية بين آسيا (شرقاً ووسطاً وغرباً) وبين شرق أوروبا إلا بعد الفتوحات المغولية - ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر - التى نشطت بها حركة تأسيس الشركات التجارية العالمية . وقد أصبحت اليوم هذه المسائل - وخاصة تأثير سيول الهجرة الجارفة من آسيا نحو العالم الخارجى - محل عناية عظمى عند كثير من العلماء . إن العرب والبربر وكذلك الأتراك المفلول لم يكن لهم من التأثير فى الحركات الثقافية للشعوب الأخرى، أن يثروا عوامل النهضة فحسب ، بل إن ثقافتهم ذاتها كانت غنية بالمادة غزيرة القوة ، ونجد اليوم أن دراسة الحركات الثقافية من الوجهة البسيكولوجية وعلاقتها الزمانية والمكانية إحدى المسائل التى تستغرق عناية المؤرخين والجغرافيين المعاصرين .

تكوّن الجغرافية الإسلامية أساس مثل هذه الدراسات، وقد بين باركرات وتوماشك وبارتولد وبسترانج وشفارتز بوضوح أهمية هذه المعلومات عن غرب وأواسط آسيا؛ فلو لا العلوم الجغرافية التاريخية الإسلامية لما وصل إلينا علم عن حياة المدن وثقافتها في غرب ووسط آسيا ليس فقط في العصر الإسلامي بل في زمن الساسانيين. وقد وضع فريش وماركارت ويعقوب ونيمت أهمية هذه الجغرافية لشرق أوروبا، كما وضعها رينو وساخاو وفرايد جنوب شرق أوروبا وجنوب شرق آسيا.

وإن مؤلفات علماء الجغرافية الأقدمين من العرب (البثاني والحوارزمي وسهراب) تعتمد في وصف أقاليم المعمورة على المصادر اليونانية. وأما الجغرافيون الذين يرجع أصلهم إلى وسط آسيا (مثل الجيهاني والكرديزي والمؤلف المجهول لكتاب حدود العالم، ثم البيروني) فقد خلصوا هذه المعلومات تدريجاً من التأثيرات اليونانية والانجيلية واليهودية.

ولسكن تتوفر المعرفة عن شرق آسيا وشرق أوروبا، كان قيام الدول الثلاث التركية المسلمة أعني القرأجانية (أو الأيليكية) في وسط آسيا والغزنوية في جنوب آسيا والبلغار المسلمين على شواطئ الدونجادا أثر عظيم، فتمكن العلامة البيروني من تدوين تواريخ مضبوطة عن شرق آسيا والاقيانوسية عن طريق التركستان الشرقية والبلق البحرية في جنوب وشرق آسيا، ثم عن شرق أوروبا عن طريق التجار البلغار والحوارزم، وأمكنه أيضاً عن طريق سفراء الصين والتركستان الشرقية الذين كانوا ينتمون إلى أصل تركي إسلامي وأتباع عن طريق البحر والهند إلى غزنة في أفغانستان الحاضرة، أن يستقي معلومات وبيانات عن القطب الجنوبي وراء المحيط الهندي. ويستفاد من سائر كتابات البيروني أن التجار المسلمين الأوائل من عهد الأمويين أسسوا مستعمرات في البحر الأخضر أعني المحيط الهندي حول جزائر جاوه، وتزوجوا من نساء تلك الجزائر.

وإني أظن أن كلام الجغرافي ابن رسته (طبعة دي جويه ص ٨٨٠) عن مكان في أرض الزنج حيث يكون النهار ست ساعات فقط، يرجح أنه كان يعني جنوب أستراليا، ولو أن القس أ. كايس الألماني وجبريل فيراند الفرنسي أرادا تعليل كلامه تعليلاً آخر.

وقد كان البيروني أول مسلم أورد بيانات بأسماء نهر أنغار في شرق سيبيريا وبأخبار السكان في مناطق بحيرة البايقال ومناطق أسكندناوه القديمة المسماة «ورنك» ثم عن صناعة المعادن في شمال شرق أوروبا، وكذلك عن البحر المنجمد الشمالي. وتمكن عن طريق التجار المسلمين في أفريقيا أن يحصل على معلومات قيمة عن جنوب أفريقيا، وعن موزمبيق (سفالة الزنج) وعن البلاد الواقعة جنوبى خط الاستواء، حيث يظن البيروني أن الوقت يكون هناك شتاء حين يكون عندنا صيفاً — وطبعاً لم يكن بين معلومات هذا العلامة المطلع أمثال جبال قاف

(الموجودة في المتقولات الاسلامية) ولا الخرافات اليونانية عن عجريب وهيبربورى (Agribhie ec Hyberborie) ثم عن سد بأجوج ومأجوج التي كثيراً ما بحث عنها الجغرافيون المسلمون الأقدمون في شمال بحر الخزر أو خلف جبال تيانشان ، فلم تكن في رأى البيرونى سوى الأجزاء الغربية من سور الصين ، كما يعتبره كذلك العالم التركستانى محمود الكاشغرى في خريطته ، والجغرافيون المعاصرون أيضاً مثل دى جويه ومارقوارت .

ومع هذا بقى الشرق الأقصى مجهولاً نوعاً ما عند البيرونى أيضاً ، فعنده أن الإقليم الثانى ينتهى حيث تنتهى الأقاليم : الخامس والسادس والسابع . أما في عهد المغول فلم تبق هناك بقعة لم تكن معروفة للمسلمين في شرق أوروبا وشمال شرق وجنوب آسيا . فالوزير المغولى في إيران (رشيد الدين) قد دون بيانات هامة مطولة عن الجغرافيا وعلوم وصف الأقاليم في وسط وشرق آسيا ، كما ترك لنا مؤلفات غن تاريخ الصين والهند وأوروبا جافلة بالصور المقابلة ، وتلك الصور توضح بدقة أشكال الصينيين والأوربيين وأزياءهم في ذلك العهد البعيد . ونجد في هذه الكتب نبذاً قيمة عن الصين والهند وأوروبا (وتوجد أحسن المخطوطات الباقية من هذه الكتب المصورة في مكتبة طوبقبوسراى باستانبول) وكان للجغرافيين المسلمين في عهد المغول تأثير في العلوم الجغرافية في الصين ، فإن الخريطة الصينية الرسمية التي يرجع تاريخها إلى عام ١٣٣١ هـ - كما أثبت البرت هرمان - إما أن تكون قد رسمت بإرشاد الجغرافيين المسلمين أو إنهم هم الذين وضعوها . وهناك مهندس مسلم آخر هو قطب الدين شيرازى خدام المغول في إيران ، وقد رسم خريطة عام ١٢٩٠ للبحر الأبيض المتوسط وقدمها إلى الملك المغولى الأيلخانى أرغون خان ، كما أن المغوليين جنكيز وتيمور وغيرهما استخدموا كثيراً خرائط الجغرافية لأغراض حرية فنية . وفي عهد خلفاء أرغون - وهما غازان وأولجايتو - ألقت جغرافية للعالم اشترك في تصنيفها علماء من مختلف الأقطار .

ولكن مع الأسف لم يمكن العثور إلى يومنا هذا لا على الخرائط السالفة ولا على هذا المؤلف الجغرافى للعالم ، وما تلى ذلك من مؤلفات فهو فقير في مادته الأصلية . ولكن مع هذا فقد ترك لنا المغول - وخاصة تيمور - أوصافاً مفصلة لأسفارهم الحربية وخطوط زحف جيوشهم التي كان يرسمها لهم كتابهم المعروفون باسم بخشيه ، ثم ترجمت هذه الكتابات فيما بعد إلى اللغة الفارسية .

وقد تمكنا لأول مرة من الحصول على معلومات تختص في الجغرافية والمركز الاقتصادى لآسيا الصغرى وإيران عن طريق الجغرافيين والمؤرخين في عهد المغول ، كما عرفنا أيضاً لأول مرة عن طريق المدونين المغول - مثل رشيد الدين دوصاف ، وربانبة المراكب العربية (مثل أحمد بن ماجد وسليمان بن أحمد المهندي) - شيئاً عن طرق التجارة البحرية في جنوب

شرق آسيا والتي نشطت من جديد أثناء نفوذ المغول في إيران والصين كما وصلتنا معلومات وأخبار دقيقة عن جزر الأرخيبيل الملاي .

إن الجغرافيين المسلمين إذا ووزنوا بأمناتهم من اليونانيين تبين أنهم خطوا بالعلم خطوات واسعة مميزة كما استقصى ذلك بارتولد ، لأنهم اهتموا بحياة الشعوب المدنية والاقتصادية والثقافية ، أكثر مما اهتم بها علماء اليونان كما وصفوا عاداتهم ولغاتهم وعقائدهم .

ثم إن تعيين خطوط الطول والعرض للمدن كان مضبوطاً خاصة عن البيروني ، ووصف مراحل الطرق في البلاد كان أيضاً وافياً خاصة عند جغرافي العهد المغولي (حمد الله قزويني وحافظ أبرو) حتى إنه لو وضعت خريطة لإيران وما وراء النهر حسب معلومات هؤلاء لوجدناها لا تختلف اختلافاً بيناً عن الخرائط المستعملة اليوم .

ولكن مع الأسف نجد أن المصادر الجغرافية الإسلامية خاصة في الشرق نفسه ليست في متناول المهتمين بهذا الموضوع ، وكانت العناية حتى الآن موجهة نحو الطبقات القديمة للجغرافيين الأقدمين (ومنها ما نشره دي جويه ونالينو ومزيك) ، ولكن لم يترجم منها إلى اللغات الأوروبية سوى القليل (مختصر ابن خردادبه وقدّمه وجزء من الحوارزمي ثم المقدسي والبتاني) ولا يزال من المتعذر العثور على بعض مؤلفات أعلام الجغرافيين (مثل مؤلفات الجيهاني ومفصل ابن خردادبه ، وكتاب صور الأقاليم لرشيد الدين) ومعظم ما وجد إلى الآن من هذه المؤلفات لا يزال بهيئة مخطوطات محفوظاً في مكاتب الممالك المختلفة ، وهذه المخطوطات المبعثرة في المكتبات المختلفة لم يتح إلا للقليل من العلماء دراستها وهي دراسة غير كاملة (مثل بارتولد ولسترنج ، وإذن فهذه المؤلفات تصبح لها قيمة وفائدة الفنية إذا هي طبعت مشفوعة بالانتقاد والتحليل .

وإنني أقول : « الانتقاد والتحليل » ، لأن المصادر الجغرافية الإسلامية لها أخطاؤها أيضاً ، ومعظمها - وخاصة ما ألف بعد القرن العاشر - تبرز منه صورة مميزة للجغرافية التاريخية لذلك العصر أيضاً . فالجغرافيون - ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر - كالأدريسي والدمشقي (وهذان مترجمان إلى الفرنسية) والبكري (ماعدا تقريره عن غرب أفريقيا) والعمرى (وهذا مترجم جزء منه) ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، يصورون الدنيا ليس فقط كما رأوها هم بل كما وصفها المؤلفون الأقدمون أيضاً ، وكثيراً ما ذكروا ما كتبه هؤلاء الأسبقون دون الإشارة إلى أسمائهم . فثلاً الأدريسي يجمع بين تقارير الأقدمين من المؤلفين المسلمين واليونانيين مع تقارير معاصريه دون أن يذكر أن هذا المزج من عنده هو ، وهكذا انتقلت هذه الأمزجة فيما بعد إلى مؤلفات خلفه ومنهم ابن الوردي وابن سعيد الأندلسي .

لذلك أصبح من السهل أن يقع الإنسان في الخطأ فينسب تقارير المؤلفين الأسبقين إلى

المؤلفين المتأخرين . ومع ذلك فهذه التقارير إذا حقق بالبحث الانتقادي التحليلي مصدرها فقد يمكن في بعض الأحيان الوصول من وراء ذلك إلى بيانات عظيمة القيمة . وحتى المؤلفين في القرنين السادس عشر والسابع عشر مثل الشيخ أبي الفضل العلامي وأمين أحمد رازي في الهند وكاتب جلبي في تركيا ومحمود بن ولي في تركستان (وهذا الأخير مؤرخ من العصر المغولي المتأخر وقد عثرت على أهم مؤلف جغرافي له سنة ١٩١٤ من بخارى) قد استقوا معلوماتهم من مصادر موقودة الآن . كما أن أمين أحمد رازي استعمل مثل غيره كتابات جغرافية لرشيد الدين لم توجد للآن ، وهكذا نجد أنه إذا غنى بجمع ودراسة مثل هذه المؤلفات الإسلامية الجغرافية في العصر المتأخر دراسة تحليلية انتقادية ونشرت لكونت كنزاً ضخماً للمدققين من علماء تاريخ الثقافة العالمية .

وهذا أريد أن أعطي مثالا يرى كيف أن الذين أوجدوا العلوم الجغرافية الإسلامية كانوا يدركون تفوقهم على اليونان ويعتمدون بتقديرهم الشخصية ويعرفون حق المعرفة ما يجب عليهم أدائه نحو العلم . وهذا أذكر نبذة من كتاب لم يسبق نشره للبيروني عن أصول التحقيق الجغرافي ، وهذا الكتاب أتمه في سبتمبر سنة ١٠٢٥ في غزنة (في أفغانستان الحالية) والنسخة الخطية الوحيدة بخط المؤلف موجودة في مكتبة جامع محمد الفايح باستانبول (نمرة ٣٣٨٦) قال :

« إن غرضي هو معرفة خط الطول لبلد معين على سطح الكرة الأرضية وهو غزنة ، فأني الآن أمكنني أن أحقق خط عرضها ، أما عن خط الطول فقد عاقبتني عدة موانع عن إمكان التثبت منه ، ولكني لو كنت ألتبس لنفسى عذراً بهذه العوائق لكنت كافراً بأنعم الله تعالى الظاهرة والباطنة ، ثم بفضل ولي النعمة التي يسبغها علي (الأمير محمود الغزنوي) ؛ ولكن كانت هناك موانع أخرى وهي عدة مشا كل عامية وحلها أدعو الله سبحانه وتعالى التوفيق ولم يقل عزيمتي في سبيل حلها الوقوف على شفا الخطر روحاً وجسماً . وإني سأسارع في تحصيلها وإتمامها قبل حلول الأجل . فأني أقول إن معظم المعلومات في كتاب الجغرافية (لبطليموس) عن الطول والعرض لبلاد معينة من سطح الأرض مصدرها السماع من الناس من مختلفه شاسعة البعد وباستخدام هذه المعلومات لابد أن يكون لبطليموس قلة من الطريق الصحيح - وعلى كل حال فالأساس الذي بنيت عليه هذه المعلومات هو التسويع ، لأن تلك البلاد كانت متعذرة الوصول بسبب التباين الملى . نعم لأن هذا التباين الملى كان العائق الأكبر للسياحة في البلاد ، فنحن نرى أن بعض الشعوب - مثل اليهود - تعتقد أنها تكون مقربة إلى الله إذا اغتالت أضدادها من الشعوب الأخرى . أو أن بعض الشعوب - مثل الروم - كانت تعتبر الأجانب عبيداً ، وهذا

هون عاقبة ، أو أن السائح لكونه أجنبياً في تلك البلاد قد يعتقل وتحوم حوله الشبه المختلفة فيكون مركزه محفوفاً بالمخاطر .

أما الآن فقد تغيرت الظروف ، فإن الاسلام امتد من شرق الأرض إلى غربها حتى الاندلس فوصل شرقاً حتى حدود الصين وإلى أواسط الهند وجنوباً إلى الحبشة وبلاد الرنج (يعني جنوب أفريقيا والأرخبيل الملايوى وجاوه) وشمالاً حتى بلاد الترك والصقالبة (السلاف) وجمع الأمم المختلفة على أساس الألفة التي هي صنع « تفرد الله به » ، ولم يبق منهم إلا ما يكون من فساد ذوى العبث وقطاع الطرق وصارت البقية المعصرة على الكفر تهاب الاسلام وتعظم أهله وتهادئهم ، فأصبح آئذ تحصيل الأبعاد الجغرافية بالسماع أوئق وأصح ؛ فكثيراً ما نجد في كتاب الجغرافية (لبطليموس) بعض المواضع موقعتها في شرق مواقع أخرى بينما تكون في الحقيقة المشاهدة غريبة الموقع وبالعكس . والأسباب التي أدت إلى هذه الأخطاء إما ناشئة عن خلط أبعاد المراكز التي بنيت عليها خطوط الطول والعرض ، وإما ارتحال الأقوام من هذه البلاد إلى مواطن أخرى مع نقل أسماء هذه البلاد معهم . انتهى كلام البيرونى . وإذا تبيننا من هذا المثال كيف أن البيرونى كان يعلم جيداً أنه ومعاصروه من الجغرافيين المسلمين في ظروف أسعد من ظروف المؤلفين اليونان ، فإننا نرى أيضاً في كتب أخرى لهذا العلامة أنه استفاد من هذه الفرصة أيما استفادة لكي يزيد في معلوماته وينميها ، ويبدو لنا أنه كان دائماً شغوفاً بالاطلاع على كل جديد في العلوم التي نهضت باتساع الدول الإسلامية في جنوب ووسط آسيا في عصره .

ثم إن لهذه القطعة التي ذكرناها للبيرونى مغزى آخر فهي ترينا كيف أن علماء خوارزمياً (خوارزم الآن في تركستان الحاضرة) قدر انتشار الاسلام في وطنه وفي بقية العالم أجمع ورحب بتعاون الشعوب المختلفة في سبيل المدنية نتيجة لدخولها في حوزة الاسلام .

وفي خوارزم - في عهد البيرونى - لم يكن هذا التعاون مقصوراً على المسلمين بل تعداه إلى المسيحيين . أما الآن فإننا نعيش في زمن يطغى فيه الشعور القومى شيئاً فشيئاً في أنحاء العالم ، وكذلك ظهرت بين المسلمين من غير العرب بسبب نمو ذلك الشعور مضادة لعالمية الاسلام وديوع اللغة العربية ، ولكن يصبح من الخطأ الفاحش أن يهمل ذلك الدور الإيجابي الذي لعبه تعاون الشعوب في العصور الوسطى في آسيا بسبب الاسلام أو أن تعد أعمال علماء المسلمين - سواء أكانوا إيرانيين أم أتراكاً أم هندوياً أم غيرهم من الشعوب في نظر الحركات القومية المعصرية - باطلاً أو جديرة بأن تطرح جانباً أو أن تنسب مؤلفاتهم التي كتبت باللغة العربية إلى زعامة العرب السياسية في ذلك العهد .

ولم يفث البيروني أن يقدر - بشعور صحيح أيضاً - أثر التعاون الذي قامت به الشعوب المختلفة في ميدان الثقافة في مؤلفاته الأخرى . وكان الاسلام في نظر البيروني مدينة أكثر منه ديناً، واللغة العربية لغة علمية أكثر منها لغة للقرآن .

وكان توطيد قوة الاسلام في مبدأ الأمر في وسط آسيا قائماً على التوافق بين انتشار النفوذ السياسى للعرب وبين ميل تجار تلك البلاد إلى ترك نظام الإقطاعيات الذي كان سائداً هناك، وقد خدموا الاسلام إذ ذاك مثل المبشرين حتى في الأماكن الشرقية النائية الخالية من النفوذ السياسى للعرب ، مثلما أنهم فيما بعد في الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) خدموا جنكيز المغوسى ضد إخوانه المسلمين مثل خوارزم شاه وغيره من ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون على نظام الإقطاعيات الذي يعمته هؤلاء التجار؛ وذلك لأنهم رأوا مصلحةهم التجارية في ذلك .

ثم إن احتلال العرب للتركستان لم تصحبه ذكريات مؤلمة عند الشعب التركستانى بعكس ما كانت الحال عند الشعب الإيرانى . وقد تكيف الاسلام بالتدرج بما يطابق روح تلك البلاد حتى إنه في زمن البيرونى كانت السلطة السياسية كلها في أيدي المسلمين من أهل البلاد أنفسهم ، فكان الاسلام عندهم ديناً يحمل فكرة إرشادهم إلى سبيل التعاون بين الشعوب المختلفة فصادف ذلك هوى في أفئدة علماءهم مثل البيرونى .

ويجب أن نتذكر جيداً أن ما أمكن الإتيان به من العظام في التاريخ قام على أساس تعاون الشعوب في فكرة واحدة ، وذلك لم يكن جلياً في تاريخ نهضة الثقافة الاسلامية في العصور الوسطى فقط بل في جميع أدوار تاريخ البشر .

وعندى أنه إذا عني بنشر المدونات الجغرافية الاسلامية مع التحليل والانتقاد كما بينت آنفاً، عن طريق اهتمام الهيئات الاسلامية الحاضرة من جهة، والتعاون العملى مع علماء أوروبا من جهة أخرى، لأمكن أن تهيأ تربة صالحة لبذور التعاون الجديد المثمر لهذه الدول والشعوب الاسلامية .

ومن الواضح الجلى أن دراسة تاريخ ثقافة العالم الاسلامى تقوم على أساس متين إذا لم تبق كالسر محصورة بين علماء اللغة والمستشرقين ، بل باتساع نطاقها من جهة البحث والتدقيق حتى تشمل كل الدوائر العلمية العامة . وكذلك إذا أصبحت هذه المصادر الشرقية لجميع فروع العلم في متناول معاهد العلم ووكلياته التى تشغل بالبحوث في تاريخ حضارة البشر .

فلهذا أعتقد أن ترجمة هذه المصادر الجغرافية الاسلامية وسائر مصادر تاريخ المدينة الاسلامية إلى أمهات اللغات الأوروبية واجب تشارك في تأديته جميع الشعوب المتحضرة في العالم؟
أحمد زكى وليدى

الحفريات في العراق

للاستاذ محمد يحيى الهاشمي

مدرس اللغة العربية بجامعة برلين

شوق العظيم لمعرفة المعادن المنتشرة في البلاد العربية جميعاً من الخليج الفارسي إلى جبال الأطللس ساقى للاطلاع على كثير من البحاثين الغربيين الذين أموا بلادنا لدراستها من كل الجهات؛ فبعد أن درس الأوروبيون أرضهم وعاموا ما فوقها وما تحتها شبرا شبرا طافوا آفاق العالم ليدرسوا الأقطار النائية عنهم، لأنهم يودون أن يعرفوا الحياة كما هي؛ ومعرفة الحياة كما هي اضطرتهم أن يفحصوا كل نقطة من النقاط كي يتبعوا عن الحكم المستعجل. هكذا تواضعوا المعرفة وجمعوا قوام وسعوا سعيهم نحو هدفهم فتقدموا وهكذا تقاعسنا ونمنا فتأخرنا. لقد اكتفينا بالقليل، وإذا علم أحد منا شيئاً سيراً ظن نفسه أنه أدرك علوم الأولين والآخرين. نعودنا ألا نشجع بعضنا بعضاً على العمل فنتبسط هممتنا ونعش بذلك في دياجير الظلمات لا تفتح أعيننا لنرى مافي الكون. أو يظربنا أن نرى العلماء الأوروبيين من ألمانيا وإنكلترا وإفرنسيين وهولنديين يشتغلون في استنباط علومنا ونحن لا تفكر في هذا الموضوع التفكير اللائق.

ولو تزجرون الطير يوماً علمتمو لما تحتها من عثرة وشتات هل علمت أيها الأخ أن الأوروبي يدرك مدنيتنا وقيمتها العلمية والتاريخية أكثر منا؛ ألا نعتبر بالبحاثين من شتى المدن؟ ربما يقال إنا قوم فقراء وليس عندنا من المال ما يقوم بالملوب للبحث والتنقيب والاشتغال العلمي والنهوض بأمتنا الكريمة. نعم إنه كذلك ولكن التكاتف والعمل المشترك يزيل كل عثرة؛ أما الإهمال فيشبط الهمة ويكون سبباً لأن يعيش بعض أبناء وطننا المخلصين مبعثرين في العالم لا وطن يأويهم ولا شعب يأخذ بيدهم، ينظرون إلى الشرق بحنين وألم وإلى الغرب بإعجاب وتقدير. وإذا سردت هنا شيئاً طفيفاً عن بعض التنقيبات في العراق، تلك الأرض التي أشغلت علماء الأوروبيين عصوراً عديدة، لعلمنا ما هي الهمة العظيمة التي يبذلها الأوروبي متكاتف اليد لإحصاء كل شيء والاطلاع على كل حقيقة.

العراق: أرض الحضارات العريقة الأصل، موطن آشور وبابل، مشيد إيوان كسرى، مقر الخلفاء العباسيين، جذبت قلوب كثيرين من البحاث الكبار الذين وقفوا جل حياتهم

لكشف الغطاء عن مدينة من تلك المدنات ، حيث في هذه الأرض شتى الوثائق التاريخية القيمة المغمورة تحت التراب التي تجيبنا عن أسئلة عديدة وتحل لنا جم الأغاز .
والذي يجلب دقة نظر الأوروبيين اليوم ، كيفية ولوج المدينة الإسلامية في فارس والعلاقة ما بين الساسانيين وهم الفرس قبل الاسلام ، وأوائل المدينة الإسلامية في العراق ؛ فهناك كانت حروب طاحنة بين الفرس والروم ، وبين العرب والروم ، وكذلك بين العرب والفرس .

بلاد ما بين النهرين كانت الطريق الوحيدة إلى الهند في العالم القديم الموصلة بين الشرق والغرب ، والتي يجري فيها النهران العظيمان : الدجلة والفرات العاملان على خصب أراضيها ؛ فلا غرو أن تكون تلك الأرض مطمح أنظار الفاتحين منذ ذلك الزمن البعيد الذي دون لنا التاريخ عنه أخباراً ضئيلة .

ولقد تجول كثيرون من الأوروبيين للبحث والتنقيب في تلك الأصقاع ؛ فمنهم من كان يبحث عن المعادن والزيوت ، ومنهم من كان يسعى لنش تراث الأقدمين ليقراً أخبارهم ، ويرمي نظرة عميقة في طراز حياتهم الماضية . ولقد أراني الدكتور شعيد المعاون في متحف قيصر ويلهلم في برلين في الشعبة الإسلامية ، آثار مدينة سامرة « سر من رأى » ؛ تلك المدينة التي بناها الخلفاء خارج بغداد على ضفة نهر الدجلة ليعيشوا قسماً من حياتهم بعيدين عن ضوضاء المدينة وفي سكون الطبيعة الهادئ . ولو رأى الانسان تلك الآثار من مدينة (سر من رأى) في المتحف لكاد يظن أنها غرف حديثة ليست منبوذة من الآثار القديمة ؛ لأن الاعتناء والدقة والاهتمام بالشئ يجعله قريباً من كيانه الأول .

اشتغل البعث الألمان في جمع آثار هذه المدينة قبل الحرب العامة ، وقد جمعوا ماقدروا عليه ؛ أما اليوم فيشتغلون في العراق في تلك المدينة المهمة جنوبي بغداد ، التي جمعت آثار ثلاث مدنات : « مدينة العرب والفرس والروم » ؛ ألا وهي مدينة كرتينون التي يسميها العرب « المدينة العتيقة » .

ساح الأستاذ سار Sarre المدير السابق للشعبة الإسلامية لمتحف برلين عام ١٩٢٠ في أرض العراق ، وأدرك أن كثيراً من التسميات الدارجة على الأفواه لا تطابق الواقع ؛ مثل القصر الذي يزعم أنه إيوان كسرى هو ليس إيوان كسرى بل هو قصر رومي ، واستدل على صحة قوله من طراز البناء والمخطوطات الموجودة فيه ، وقد رأى ضرورة القيام بالحفريات وتفتت خطته عام ١٩٢٨ بمساعدة الجمعية الألمانية لدراسة الشرق وجمعية إسعاف العلوم .

كنزيفون

عن العصر الذهبي لـ كنزيفون يخبرنا كثير من كتاب العرب والمؤرخين والجغرافيين المبعثرة. مخطوطاتهم في شتى خزائن مكتبات أوروبا ، ولكن لم تنظم تلك الوثائق التاريخية حتى هذا اليوم ، وتصير سهلة الاستعمال. وهذا الباب لايزال مفتوحاً لمن أراد أن يبحث ، وقد استخرج من تحت الأرض كثير من آثار البناء الفارسي لخزانات القصر المعروف بـ (ثقي - كسرى) من كنزيفون ، واستخرج أيضاً بعض الآثار من أوائل العهد الاسلامي في مدينة « سلمان - ياك » أي سلمان التقي .

والمدينة الثانية المهمة هي مدينة زليخة التي كانت مقابلة لـ كنزيفون على ضفة نهر الدجلة ، ولكن النهر لايمر اليوم من مدينة زليخة ، بل بين أطلال كنزيفون ، ويشاهد جلياً آثار ضفة النهر القديمة ، وهكذا غير النهر مجراه على معمر الدهور على ما كان عليه في السابق . وتلك الآثار التي جمعت موجود قسم منها في متحف بغداد ، والقسم الآخر في الشعبة الاسلامية لمتحف برلين . وقد سنت اليوم الحكومة العراقية قانوناً تمنع فيه إخراج الآثار ما لم يكن لها منيل في البلاد .

ومند عامين تشكلت لجنة ألمانية أمريكية للبحث عن الآثار في العراق ، وقد كان يرأس اللجنة الأستاذ كونيل Kuenel مدير الشعبة الاسلامية لمتحف برلين الحالي ، وذهب معه المهندس المعماري (واخسموت wachsmuth) المعماري الشهير في مدينة ماربورغ في ألمانيا ، ومن الأمريكيين ذهب الأستاذ يوسف اوبتون Joseph opton للمعاون في الشعبة الاسلامية في متحف متروبوليتان Metropolitan في نيويورك . وقد وجدت اللجنة مساعدة كبيرة من الحكومة العراقية ، وتمكنت من اكتشاف آثار جمة في فن البناء والزينات المنزلية القديمة ، ولا يزال المدققون والمتخصصون في الآثار وتاريخ الفن الجميل يشتغلون في كشف ألغاز تلك الآثار وفهم طراز البناء الاسلامي القديم .

فعسى أن نعتبر بالسعي الحثيث الذي يبذله غيرنا في معرفة وطننا ، فنبدل كل جهدنا لمعرفة حالنا ، ظاهراً وباطناً ، قديماً وحديثاً ، ولا نكون أقل من الأوروبيين في معرفة أنفسنا وتاريخنا ومدينتنا ، وربما نسرك ما أضعنا فنجمع قوانا لنعيد مجداً مضى ومدينة اندثرت ، وما ذلك على شبابنا الناهض الفتى بعزير .

محمد يحيى الهاشمي

مدرس اللغة العربية في جامعة برلين

في حانة خمار

[بين خمر الديان وخمر الدنان]

جمع مجلس للشراب في حانة بعماد الدين جماعة من أهل الأدب ، من بينهم الأستاذ حسين شفيق المصري ، ووفد عليهم الأستاذ محمود رمزي نظيم - وهو صوفي أقلع من زمان عن اللهو والشراب ، والتزم حانات صفاء الصوفيين - فشاء المجلس أن يفسد عليه التوبة ، فاتهمه بضعف الشاعرية إذا لم يقرع الكاس بالكاس ، وينزع منزعهم ويكرع من دنهم ، فقال: دونكم والمساجلة الارتجالية .
وانطلق شفيق ونظيم : الأول بلسان الكاس والطاس ، والثاني يرد عليه بلسان الصوفيين ، فيترجم عن حان الألحان في صفاء الوجدان ، فاتهى ارتجالها بهذه الحرية الشائقة :

افسد الدن وهات	دمه فيه حيأت
واسقنيها فهي عندي	نزعة من نزعاتي
آه لو يدري بما فيه	ها غواة الصالحات
فهي للأرواح نور	في ظلام الشهوات
عصروها من كروم	مثمرات نضرات
وعناقيد تدلت	كالثرثرا زاهرات
قطفتها غايات	كالنجوم الساطعات
وتولى عاصروها	نشر تلك النفحات
باكروها وهي بكر	وأثوها في الغداة
بعد ما أشعل جمر الصـ	بيح فحم الظلمات
ذهبوا منها كؤوساً	بطلاها حاليات
تحملت ذوب نضار	من شعاع الشمس آت

هاتها بين الندامى والحسان الخفرات
وانثر الزهر علينا بدرات بدرات
ذائب الياقوت هذا فاق سحر الساحرات
يطرد الهم بعيداً خلف ستر الغفلات
إنها الخمر فهمسات في للحظ الموائى
شفة الكأس بهامة ل شفاء الغايبات
وترى راشقها يتر عند الرشقات
هزة الواجد قد فاز بعض القبلات
يابنات الكرم إننا نحن عشاق البنات
فتعالين إلينا فوق راحات السقاة
إنما أتت واح أرواح الحياة
كل شيء أنا ناسيب سوى: خذها وهات
فأدرها واسقنيها تحت عرش الثمرات
إنها الأتس متاحاً في صفاء اللحظات
أيها الناهي! رويداً ياعدو الطيبات
إن في الكأس وفي العود د مثار النشوات
أنا لولاها لما فاز رقت ظل الحسرات
لا ولا كنت طروباً إنها أحيت موائى
كلما جدت همومي بددتها سكراتي
يا أخا كل غوى إتنا خير الغواة
هم بهافي الحان واطرب في الليالي المقمرات

لا تبيح بالسر هذا بين أحلاف الصلاة
إنما الخلد لقوم عملوا للباقيات
ليتنا متنا فرحنا من حياة لحياة
بين ولدان وهور رائمات غاديات
إنما نحن غصون وجناها للمات

حسين شفيق المصري

محمود رمزي نظم

حياتي

لست أدري ولا إخال سأدري أين أو كيف أستطيع حياتي؟
أنهكتني الآمال فكرياً وجهداً وهي دون المرموق في المحاتي
أستبين المأمول في ظلمة الغي ب قوى النهى سليم الأداة
فإذا نلته تبينت فيه غير ما أبتغيه من رغباتي
ربما كن ما أنال كما شئت مت وتشويهه من العارضات
ف عجيب تناحر الناس للعي ن وما طيبه لهم بالمواتي
وفجاءً مروفه تتوالى أو وجاءً تنسل في اللذات
إنهم فيه بين ماض دفين يبعث الحزن أو مغيب آت
ورغاب ما بين هذين كانت في مشار من الأسي مغفلات

عبد اللطيف ثابت

حكاية أبي القاسم البغدادى

بقلم الدكتور زكى مبارك

[من كتاب تحت الطبع يظهر قريباً بعنوان : النثر الفنى فى القرن الرابع]

١ — مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدي محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكرك قليلاً جداً فى المجموعات الأدبية ؛ ولم نستطع الوصول إلى معرفة أخباره فى كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس MEZ هداًنا فى المقدمة الألمانية التى صدر بها طبعته لهذه الحكاية إلى أن الأزدي كان يعيش فى صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد فى الربع الأخير من القرن الثالث ، فقد كان فى سنة ٣٠٦ هـ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله : « ولعمري بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة ، وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعاً وستين جارية ، فى الجانيين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ، ما يفوت حدود الوصف ، هذا سوى من كنا لا نظفر بهم ولا نصل إليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا إذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، وخلع المذار فى هوى قد حالقه وأضناه ... » (١) الخ . وفى مكان آخر يتحدث عن مجلس أنس قضاء مع ابن الحجاج وأبي محمد اليعقوبى وأبي الحسن بن سكرة (٢) ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أولهم إلى سنة ٣٩١ ، وثالثهم إلى سنة ٣٨٥ ؛ فحكاية أبي القاسم البغدادى وضعت بلا ريب فى أواسط القرن الرابع .

٢ — وليست حكاية أبي القاسم التى وضعها أبو المطهر الأزدي إلا فنوناً من القول أراد بها وصف المجون وتصور الماجنين من أهل بغداد وأصفهان ، فهى ليست قصة بالمعنى المعروف ، ولكنها مجلس واحد يطرد فيه القول من فن إلى فن فى دعاية وظرف ؛ و(أبو القاسم البغدادى) بطل القصة رجل جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق ، وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندري فى مقامات بديع الزمان ، فإنا نراه يدارى أهل المجلس وينافقهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى إذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعباً متمرداً عارفاً بفرائب الخلاعة والمجون .

(١) ص ٨٧ من حكاية (أبي القاسم البغدادى)

(٢) ص ٨٨ » » » » »

ولنعط الكلمة لهؤلف ليحدثنا عن منهج كتابه :

«... بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله والسلام، أما الذي أختاره من الأدب فالخطاب البدوي، والشعر القديم العربي، ثم الشوارد التي افترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء، والنوادر التي اخترعتها أفراس المحدثين من أعيان الشعراء، هذا الذي أحصله من أدب غريب، وأفئنيه وأحلى به وأدعيه وأرويه من ملح ماتنفسوا به وتنافسوا فيه، ويصدق شاهدي عليه أشعار لنفسي دونتها، ورسائل سيرتها، ومقامات حضرتها، ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادى كنت أفاشيه برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستحشنة، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفضحة، فأثبتها خاطري لتكون كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين على تبيان طبقاتهم، وكالاتموزج المأخوذ عن عاداتهم، وكأنها قد نظمتمهم في صورة واحدة يقع تحتها نوعهم، وتشتبك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب، وتفاوت المنازل، ولعلني صرت في ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ في فصل من كلامه: « وإنا مع هذا نجد الحكاية من الناس يحكي ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً »، وكذلك تكون حكايته للمغربي والخراساني والأهوازي والسندي والزنجي، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم، فأما إذا حكى كلام الفأفاء فسكانه قد جمع كل طرفه في كلام كل فأفاء في الأرض في لسان واحد، كما أنك تجده يحاكي الأعني بصورة ينشئها بوجهه وعينه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله، فكأن هذا الحاكى قد جمع ما هو مفترق فيهم، وحضر جميع طرف حكايات العميان في أعمى واحد، ولقد كان فلان^(١) يتقف بيناب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مرئش ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا ينهق، وقد يسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك كحركته أصوت هذا الحاكى وكأنه قد جمع جميع النغم التي تناسب نهيق الحمار فجعلها نهيق حمار واحد ارتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الخيول، ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير لأنه يصور بيده كل صورة، ويحكي بنمته كل صوت، ولأنه يأكل نبات كما تأكل البهائم، ويأكل اللحم كما تأكل السباع، ويأكل الحب كما تأكل الطيور، لأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان ».

وإذا قدمت هذه الجملة فأقول: هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى حره، أو ليلة كذلك، وإنما يمكن استيفائها واستغراقها في مثل هذه المدة، فمن نشط

(١) هو في البيان والتبيين (ابو دبوابة الزنجي) ص ٣٩ ج ١

لسماها ولم يعد تطويل فصولها وفضولها كلفة على قلبه ، ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة يعيرني بها ، لاسيما مع انتهائه منها إلى الحكاية البدوية الأدبية التي أردفتها بها ، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة في لحنها ، وحلاوتها في قصر مقنتها ، وحرارتها في حسن منقها) ، كلفت له من البسط جهده المتعب على وغيره الممتع له ^(١) ثم إن لي قدمة شوط أستعيره وأستفيره من شعر أبي عبد الله بن الحجاج وهو قوله :

ياسيدي دعوة من شعره يجري على العادة والعرف
لا بد أن يغفل عن لفظة طريقة يأتي بها سخفى

٣ — وهذه المقدمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة في بغداد لعهدده ، وسياق الحكاية صريح في أنه قصد إلى وصف جانب خاص هو جانب العبث واللجون . والطريف في منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته إلى أن اللحن قد يكون أصرح من الفصاحة في عرض الملع والفكاهات ، وأن السخف قد يكون وسيلة إلى طريف الألفاظ في بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البغداديين فيما دونه أبو المظهر غير قاموسية ، أعنى أنها لم تدون في المعاجم ، وأبو المظهر يتقصد إليها قصداً ؛ فهو رجل مثقف العقل يجري في درس اللغة على مناج . من ذلك ما أنطق به المحدث :

— يا أبا القاسم ، تعرف شيئاً من السباحة ؟

فيجيب :

— يا أحمق ! ياسواذى لا يحسن أن يركب البقر ، وتركى لا يحسن أن يتزع القوم ! أنا والله أسبح من الضعيف ومن التنين . أعرف من السباحة أنواعاً لم يحسنها قط ، هناك ولا بطة ، أعرف منها الشق والزرع والغمر والاستلقاء والتراور والشكبي والطاووسي والنقرني والمقرنق والموزون والسكامل والطويل والمقيد ، كان أستاذي في جميعها ابن الطوا والزنايري .

وفي هذا الحوار يباينا أبو المظهر أسماء العوم ، وهي أسماء لا نجد شرحها كاملاً في القواميس ، ولا نجد في أهل زماننا من يعرف ما لها من مدلول ، وقد تكون أسماء العوم في أندية الرياضة المصرية ما يمت إلى لغات أجنبية ؛ ولا يقف أبو المظهر عند هذا بل ينطق المحدث بالفاظ الملاحين فيقول :

— يا أبا القاسم ، أريد أن أعرف شيئاً من ألفاظ الملاحين وأحوالهم ، فيقول :

— : يحتاج أن تعرف ألوان المراكب في السمن والسميريات ، والمراكب العاليات ، والزباب

(١) في هذه العبارة تركاكة وغشيش .

والكندوريات ، والبالوع ، والطيطاب ، والجدي ، والجاسوس ، والورجات ، والقوارب ،
والخيطيات ، والشاملي ، والجفريات . (١)

وللحديث بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين ، وهي خطة تذكر بتأصنعه المسيو كولان
حين عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فانظر كيف
سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون ! ويتمثل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة في
بغداد ، فقد سخر من أهل أصبهان إذ يجد السالك محال كربهة الأسماء مثل : « موضع المجذومين »
و « درب الصم » و « درب العمى » ، ويقول : « هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن
مثل من أرى ببغداد من الوراقين ، والخطاطين ، والخياطين ، والخرطين ، والزرايين ، والمزوقين ،
والطباخين ، والطحانيين ، ومن لا يحصى عدداً من الخذاق المعجزين ؟ » (٢) .

٤ — ولأني المطهر صور فنية يقصد إليها رغبة في الدعاية ، من ذلك قوله في وصف مناقق :
« ويقبل - خلال الأحاديث - على من يليه من اليمين فيقاوضه ويتسمع من أحاديثه ويستش لها
ويقول : ياسيدنا ! ذا والله ليس كلام البشر ، إنما هو سحر يوله القلوب والأسماع ، كلام والله كبرد
الشراب ، وبرد الشباب ، بل كالنعيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قطع الزهر ، وعقد السحر ،
ما هو إلا كالشمس بالولد الكريم ، إلى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة ، صافي الزجاج ،
حلو المساغ ، يما في به المريض ، ويجبر به المهيض ، يقود سامعه إلى السجود ، ويجري مجرى
الماء في العود ، قد اتسع له بحمد الله مشروع الإطناب ، وانفج عنه مسلك الأسهاب ، فهو
منثر الدر على الدر .

فيقول الذي على يساره :

في أي شيء أتم ؟ فيغمر إليه بعينه ويقبل عليه ويقول :

ياسيدنا ! إنا في محنة صلعاء بلا طاقة شعر ، في كلام أثقل من الجندل ، وأسر من الخنظل ،
هذان المحموم ، وسوداء المهموم ، لمثله يتسلى الآخر عن كمله ، ويفرح الأصم بصممه ، كلام
والله يصدى الخاطر ، إن لم يعش الناظر ، كلام تنعش الأسماع من حزونه ، وتنجير الأوهام من
وعورته ، لا مساغ له في الأسماع ، ولا قبول من

ثم يلتفت إلى اليمين فينشده صاحبه الذي يليه شعراً فيقول :

أعيذه بالله . ما أضفى نظره ، وأنتى درره ، وأنزج بحره ، وأحكم نخته ونجده (٣) ... لوجعل
خلعة على الزمان لتحلى بها مكثراً ، وتجلى فيها مفاخرها ، شعر والله يختلط بأجزاء النفس ، الآذان
والله تصير أصدافاً لهذا الدر !

ولتلفت عنه ثانياً إلى اليسار فيقول :

ياسيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العجاء : قيل الاستمارة ، وتلك الإشارة

(١) راجع ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) ص ٢٤ (٣) في الأصل نجره بالخاء المهملة

الفاترة ! ياسيدنا ، بلا حلاوة ولا طراوة ، ليس إلا إقواء وإبطاء وأخطاء . لو شعر - أعزه الله - بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على الخمين ثالثاً ويأخذ في تقريره ويقول :

سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق ، المجد لسان أوصافه ، والشرف نسب أسلافه ، ماورث المحاسن عن كلالته ، ولا ظفر بها عن ضلالته . شجرة طيبة أصلها فى الماء وفرعها فى السماء ، ثم هو بحمد الله فى الكرم والجود بحر لا يظمأ وارده ، ولا يتنقع بارده ، لو أن البحر قدره ، والسحاب مده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه ، وفى العلم البحر الممد لسبعة أبحر ، كأنما يومه بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب ، وأغصانها علم ، وبثمرتها عقل ، هذا بحمد الله مع خلق كسيم الأنوار ، على صفحات الأشجار ، فى تفحات الأسحار ، خلائق فى ذكاء الخلق ، وشمائل فى صفاء الشمول ، أذكر من حركات الريح بين الريحان ، جد كملو^(١) الجد ، وهزل كحديثه الورد ، سبعة ناسك ، وتفاحة فاك ، وعشرة يكاد مأوها يقطر ، وصحوها من الغضارة يطر . ثم المنظر الذى تبهى وضائه العيوف ، متبرقع والله ببديع الجمال ، متعوذ من عين السكال ، متخلل مخائل الأمثال . أحلى والله من الوبل ، على المحل ، الخلق وضى ، والخلق رضى ، والفضل مضى . محاسن أنا والله منها فى روضة وغدير ، بل فى جنة وحرير .

ويلتفت إلى من يليه ويقول على العادة فى النفاق والخبث .

ذا والله سخنة عين عصارة لؤم ، فى فؤاده خبث ، كالكمأة لا أصل لها ثابت ، ولا فرع ثابت ، لو قذف والله الليل بلؤمه لطفئت أنوار نجومه ، لا يبض حجره ، ولا يثمر شجره ، حجة لا تروى ، وزند لا يورى ، قالب جهل مستور بثوب ، يعثر فى عنان جهله ، ويتساقط فى ذبول خرقة ، صخرة خلقساء لا تستجيب للمرتقى ، وحية صماء لا تسمع إلى الرقى ، كأنى إذا ناظرته أسفر منه عوداً ، وأهز طوداً ، ثقيل الطلعة ، بفيض التفصيل والجملة . يحكى ثقل الحديث المعاد ، ويمشى على العيون والآكباد ، هو والله فى العين قذاة ، وبين النعل والإخص حصاة ، كأن وجهه على الحقيقة هول ، المطلع النحس يطلع من جهته ، والخل يقطر من وجنته ، وجه يشق على العين ، وكلام لا يسوغ فى الأذن ، ما كئت أدرى والله أيمحدث أم يحدث ، مدخل أكلة أمذر^(٢) من مخرج ثقله ، لا يفرق والله بين محساة ومفساة ... الخ^(٣) .

وأول ما يلاحظ فى هذه الصورة كثرة القسم ، وكان ذلك لمهد المؤلف من طبيعة البغداديين ، والصورة عادية من حيث السياق ، فليس فيها تحليل لطبيعة المناق غير هذا الوضع

(١) فى الأصل « نلو » بالعين المعجمة (٢) أمذر : أخيت ، وببيضة مذرة فسد (٣) راجع ص

البيسط، وهو اللون والتقلب، والظهور بوجهين، وتلك أظهر ما في شيم المنافقين .
وليس لأبي المطهر يد في تلوين هذه الصورة فهي جملة من الحماد والمقايح جمعها من ألفاظ
معاصريه، وكنا أشرنا في النص الفرنسي إلى أنه اقتبسها من كتب الثعالبي، ويظهر لنا الآن
أن الثعالبي هو الذي اعتمد على أبي المطهر في نظم هذه الصور الفنية .
٥ - ومن هذا الباب ما كتبه في وصف الثقل :

« يا أول ليلة الغريب، إذا بعد عن الحبيب، ياطلعة الرقيب، يايوم الأربعاء في آخر صفر،
يا لقاء الكابوس في وقت السحر... يا خراجا بلا غلة، يا سفرأ مقروناً بعله. يا خلق من طيلسان
ابن حرب، يا شأم على نفسه من ضربة وهب. يا بغض من قدح البلباب في كف المريض،
وأنكر من نظر المفلس في وجه الغريم البغيض، يا أنتن من الكنيف في سحر الصيف، وأثقل من
طلعة البغيض على الضيف. يا وجه المستخرج في يوم السبت، يا إفطار الصائم على الخبز البحت. يا برد
من الشمال في كانون، وأوسخ من فراش الجرب المبطون. يا أقدر من ذباب على جعس رطب،
وأحقر من قملة في أذن كلب... يا مذر من جفنة الدباغين، وأنتن من ريح القصابين. يا بلد من
حضيض الحمام، وأنتن من حانوت الحجام، يا أقدر من طين السماكين، يا أوحش من شخص الظالم
في عين المظلوم، وأكره من صوت البوم، إذا صك سم المحموم، يا أرح من غم الدين، وأشد
من وجع العين، وأوحش من بكرة يوم البين. يا ليلة المسافر، في كانون الآخر، على آكاف
بأس، وبرد قارس، يا أذل من ناسج برد، وداغ جلد، وراكب قرد، وسائس عرد. يا أثقل
من طفيلي يعربد على الندماء، ويقترح أنواع الغناء، ويتشهى بعد أكل الغذاء والعشاء، ألوان
الصيف في الشتاء، مجئاً للساقى، قاطعاً على المغنى، يوائب ويدنى (١). يا أشد على الأحرار من
تطاول الحجاب، وعبوس البواب، وجفاء الحجاب، وسوء المنقلب والإياب. يا أشد من كربة
صاحب المتاع الكاسد، وأضييق من قلب الكاشح الحاسد، وأكرب من الاستماع إلى المغنى
البارد. يا أكره من هجران الصديق، ومن النظر إلى زوج الأم على الریق، ومضيق الطريق،
بل من سوء القضاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء، وحسد الأقرباء، وملازمة الغرماء (٢)
وخيانة الشركاء، وملاحظة التلأ، وملابسة السفهاء، ومساءلة البخلاء، ومعاداة الشعراء (٣).

وقد أشرنا في النص الفرنسي إلى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة الخوارزمي، ونرجح
الآن أن الخوارزمي هو الذي حاكى أبا المطهر في وصف الثقل، لأن الخوارزمي مات سنة
٣٨٣ أو ٣٩٣، وأبو المطهر كان شاباً ماجناً في سنة ٣٠٦، فمن المستبعد أن يكون عاش طويلاً بعد
اتتصاف القرن الرابع. وقد عدنا فوازنا بين الرسالتين: رسالة أبي المطهر، ورسالة الخوارزمي،

(١) في رسائل الخوارزمي (يزنى) (٢) في الاصل الغريباء (٣) راجع من ١٢٠

فوجدناها تتوافقان في ألفاظ، وتختلفان في ألفاظ، وفي العبارات المتقاربة تظهر الدقة في جانب الخوارزمي، فأبوالمطهر يقول:

« يا أنتن من الكنيف ، في سحر الصيف » ، والخوازي يقول : « يا كنيف السجن في الصيف » ، وهي عبارة أفذر وأشنع .

ورسالة الخوارزمي طويلة جداً ، ولكن هيهات أن يصل إلى ماوصل أبوالمطهر من الإغش والإقذاع ، فإنه نثر أهاجيه في كتابه نثر الشوك ، وهذه الأهاجي البشعة من مظاهر الحضارة في بغداد ؛ ولنعيد القارئ أن يدهش من ذلك ، فإن الحضارات تقتضي فنوناً من المناقب والمناقب لا تستطيعها البداوات . وعيوب أصحاب الحرف والصناعات ، ورذائل المترفين ومساوي الموسرين لا تعرف إلا في الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أهاجي أبي المطهر عنواناً على قوة الحضارة في بغداد . وهل يستطيع البدوي أن يفهم كيف تكون القذارة في جفنة الدباغين ، وريح القصايين ، وطين السماكين ؟ هيهات ! فلك وأمنالها بلالاً لا يعرفها إلا الحضريون !

٦— ومن طريف الصور ما جرى به قلمه في وصف الجمال ، وهو كأهل عصره يتحدث عن جمال النساء وجمال الغلمان ، في الفن الأول يقول :

« وذكاء البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يذكر ، فاطنك بجزعوبة من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحه ، والفطنة مع الصباحة . . . قد أطر الغناء شاربها ، وزوى الإباء حاجبها ، ورخم الدلال ألفاظها ، وفتر النعيم ألحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها ، وألانت النعمة أطرافها ، ولذلل لراشف مقبلها ، واغتص بالبرني مخلصها ، وأطر ماء النعيم بين رياض وجناتها ، وترقرق جريال الشباب على صفحاتها ، وتورد من صبغ الحياء خدها ، واهتر من نضارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها ، وارتجت من الشحم روادفها ، وتشربت أنوار الحسن سوافها ، ثم أعيدت ساخطة على محبها ، وقد قطب التيه جبينها ، وشمخت النخوة بعريتها ، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة ، وتأبى قبول معاذيره المزخرفة ، حتى إذا انتهى عاشقها في الاستكانة والخضوع ، وبلأكامه بسوارب الدموع ، اقترت مبتسمة عن شتيت الدر ، ونضحت بلطيف كلامها على ذلك الجوى والحر ، ثم أقبلت نرجستها تدمعان رحمة لعاشقها المبتلى ، فترى والله حباب الدموع وخمر الخجل ، ونفساً تموت فتحيها بزاد من القبل ، وتجمشت بعد ذلك زيارته في ملأه من الظلام ، ووافته وهو سادر في ساعة الأحلام ، وقد يرى أمامها أرج المسك القتيق ، وعبق الجومنها برأ الراح العتيق ، انثنت متائلة وقد بل أنبهر غلائلها ، وفتر الآين مفاصلها ، وأرعد الوجد فرائصها ، وغمز المشئ أخصاها ، وجعلت تمن عليه بالمأماها »

وتدعى فضل غرامها ، وتناسم من أحاديثها بما هو أقر لعينه ، وأشهى إلى نفسه ، من طول بقاءها ، وبلوغ نعمائها ، تدوى بالحافظها ، وتدأوى بالفاظها ، تروى بمقلتها ، ونحيى بقبلتها... الخ الح. (ص ٧٦ ، ٧٧)

وفي الفن الثاني يقول :

« كم تشغلنى يأبله ، وتسألنى عن الأباطيل ، وتقطع كلامى بما لا يفيدك ؟ ما أرى والله على رأس أحدكم غلاماً نظيفاً غنج الحركات ، حلو الثمائل ، خنت الأعطاف ، بابل الطرف ، ... يمشى بخصر دقيق ، وردف ثقيل ، غنت عليه المناطق ، ودل على حسن صنعة الخالق ، خداه جلنار ، وعيناه ترجس ، وشاربه زمرد ، وشفته مرجان أو عقيق ، وثغره در ، وريقه رحيق ، كأنه دينار منقوش ، أو جرعة عسل ... لو جذب عضو منه انقطر ، أرق من نسيم الهواء ، وألذ من الماء بعد الظمأ ، كأنه طاقة ريحان ، أو غصن بان ، أو قضيب حيزران ، أو طاقة آس ريان ، كأن جبينه هلال ، وكأن حاجبه خط بقلم ، كأن عينيه عينا جؤذر ، وكأن أنفه حد سيف ، وكأن وجته الحجر ، أو لون الراح ، وحمرة التفاح ، أحسن من نور زهر الربيع الباكر على الغصن الروى ، أحسن من الروض الممطر ، كأن شاربه طراز بنفسج على ورد جنى ... كأن شاربه زئبر الخبز الأخضر ، وعذاره طراز المسك الازفر ، على الورد الأحمر . إذا تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق ، عن الدر الأبيض ... كأن فيه حلقة خاتم ، وكأن ثغره البرد أو أقحوان تحت غمامة ، كأن فاه الحجر ، نبت فيه الدر ، كأن عنقه إبريق فضة ، ... كأنما لبس بدنه قشور الدرة ، كأنه فضة قد مسها ذهب ، كأن بطنه قبطية ، وساقه بردية ، وقدمه لسان حية ، كأن وجهه الشمس ، وكأنه دارة القمر ، وكأنه المشتري ، وكأنه الزهرة ، وكأنه الدرة ، وكأنه الغمامة ، أظهر من الماء الزلال ، وألذ من معانقة الخيال ، وأزهر من النار ، وأزكى من الأرض التى تنبت البنفسج ، ... كالطبي الفرير ، والقمر المنير ، والغصن النضير ، والمهابة على الغدير ... الخ (١) » .

وهذه الصور أيضاً منقولة عن معاصريه من كتاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذى يجمع بين أواصر الإنشاء المتين ، فهى أوصاف حشرت حشراً ، ولم يتكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأسجاع ، بحيث يصعب التمييز بين ما نقله وما ابتدعه ، وإن كنا نجد جودة القصص فى مثل قوله يصف غلام ابن عرس :

« كان إذا حضر ألقى إزاره وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستمتعوا ، فإنى ولدكم ، بل بدمكم ، أخدمكم بغنائى ، وأساعدكم على رخصى وغلائى ، من أرادنى مرة واحدة أردته ألف » .

مرة ، ومن أحببني رياءً أحببته إخلاصاً ، ومن مات لى مت عليه . لم أنجل عليكم بحسنى و ظرفى ؟ ولم أتمسر عليكم ؟ وإنما خلقت لكم ، ولم أظاول عليكم ، وأنا غداً مضطر إليكم ؟ إذا بقل وجهى وتدل سبالي ، وتولى جمالى ، وتكش خدى ، وتعوج قدى . حاجتى والله إليكم غداً أشد من حاجتكم إلى اليوم . لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطباع ، وقلة الرعاية والحفاظ ... الخ (١) .

٧- وقد وصف الخمر فى أما كن متفرقة من حكايته ، أظهرها ماجاء فى صفحة ١٠٩ وصفحة ١٣٢ ، وهى كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لعرضها فى هذا الفصل ، ونشير إلى أننا استعطفنا وصفه للخمر بأنها « أرق من دين أبى نواس (٢) » ! .

٨- وقد يلتصق أبو المطهر بنظرات فلسفية يعمل بها غلبة المجون على الناس ، فقد وصف أحد المؤلفين فى زمانه بأنه كان إذا سمع غناء تمرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر ، واستعر ، وعض بثنائه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لكمة فى ساعة . وهنا يسأل السامرون : — يا أبا القاسم ! كل هذا يجرى لسمع غناء ؟ فيقول :

« هذه صورة إذا استوات على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا تمك ، وغاية لا تدرك ، لأنه قل ما يخلو الانسان من صبوة أو صباية ، أو حسرة على فأت ، أو فكر فى متعنى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال ، فالناس كأنهم على جدبلة واحدة فى هذه الحال . » (٣) .

٩- وقد عرض لفكاهات البغداديين ونواديرهم فى غير موضع ، وهى فى الأكثر فكاهات ماجنة لا تحسن روايتها فى هذا الفصل ، ولا بأس من إيراد هاتين النادرتين :

استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لعرج كان بها فقالت : إن كنت تريد جملاً تحج عليه فما أصلح لك ، وإن كنت تريد جارية للمتعة فالعرج لا يمنعك من ذلك . (٤) . وقال آخر لجارية : ليتك أمسيت تحتى ! فقالت : نعم ياسيدى ، مع ثلاث آخر ! (٥) أى إذا كان على الجنابة .

وفى الكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم وقيانهم ، وأوصاف سابقة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم . ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على تشبى اللهو والمجون .

(١) ص ٨٥ (٢) جاء فى ص ١٣٢ (نشاط الشراب يطوى على ما فيه من الخطأ) ، ونشاط تحريف ، وصوابه (بساط) و « متابعة الأبطال ، ترك الشيوخ كالاطفال » و (الأبطال) بحرفة ، والصواب (الأبطال) ، و « يأخذ من قلمهم - ويضعك من عقلم » و (قلمهم) بحرفة ، والصواب (قلمهم) .

(٣) ص ٧٨ و ٧٩ (٤) ص ٧٥ (٥) ص ٧٦

وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعاً لأكثر المعاني الهزلية، فلم يترك باباً من أبواب الدعابة إلا طرقه، ولم يدع معنى من معاني الخلاعة إلا ألم به، وأحسبه حشراً في كتابه أقدر ماروى من الشعر المباحن الخليع.

ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج النفس إليه في ساعات الملل.

١٠- وفي الكتاب ألفاظ لاتزال حية على ألسنة عوام المصريين، كقول شاعر في وصف ثقيل:
ياكل شئ وحش مهول يارأس خنزير ووجه غول^(١)
والشاهد في (شئ وحش).

وقول آخر:

ياسفل الناس وأوباشهم من بين صفعان إلى ضارط^(٢)
والشاهد في (أوباش) وهي مقابلة عن (أوشاب)

وقول أبى القاسم: «ياسفل العالم! إذا أسكرتموني فمن يزني حينئذ بأمر هذا الديوث الذي أنا في داره؟»^(٣)
وقول شاعر:

وبك ستي كلميني قبل أن أبصر مثله

وعوام المصريين يقولون: «فلان عليه حمة لسان» يعنون أن له لساناً طويلاً؛ أى ثثاراً. ومثل هذا التمييز ورد في بيت ماجن تقيح روايته.

١١- وجملة القول أن كتاب أبى المظهر الأزدي سخيف، ولكنه مع سخفه ظريف؛ والمؤلف خليق بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء:

شيخ سخيف ولكن يأتي بسخف ملبح

وهناك قصيدة رائية لأبى دلف الخزرجي من شعراء القرن الرابع اسمها القصيدة الساسانية^(٤)؛ وهي في الشعر كحكاية أبى القاسم في النثر، كتابها تصف أخلاق الأوباش وتحكي ألفاظهم، ومراجعة هذين الأثرين مفيدة لمن يعنيه أن يعرف ما أهملت المعاجم من ألفاظ الجماهير السوقية. وبكل مدينة أحياء ماجنة تتفرد بألفاظ وتعبير تمثل ما فيها من شواذ الأخلاق. وفي القاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البلد) لهم كنايات وإشارات لا يفهمها الخواص، كالذي يقع لأهل Belleville من أحياء باريس.

(١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٤ (٣) ص ١٢٦ (٤) تجد هذه القصيدة متروحة في بقعة الدهر

وجوه الإعجاز

بقلم الأستاذ السباعي السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم العليا

تكلمنا في العدد الماضي عن إعجاز القرآن بمرض عام ، ووعدنا أن نتبعه بالكلام على
« وجوه الإعجاز » ؛ وهانحن أولاء ، نفي بالوعد :

ليس بين العلماء خلاف في أن العرب عجزوا أمام تحدى القرآن إياهم فلم يأتوا بشيء مثله ،
ولكن منهم من لم ينسب هذا العجز إلى ضعف فيهم أقعدهم عن المحاكاة ، ولا إلى قوة بلاغية
في القرآن أوقفوا أمامها خاسعين ، وإنما نسبوه إلى أن الله سبحانه وتعالى صرفهم مع قدرتهم أن
يحاكوه صرفاً ، وهذا هو القول بالصرقة المنسوب إلى النظام ، زعماً منه أن ذلك أدل على تأييد
الله لرسوله ، لأن عجز القادر أقوى دلالة على هذا التأييد من عجز العاجز لقصور فيه ، ولكن
ذلك قول ظاهر الفساد واضح البطلان لم يقل به غير صاحبه ، ولولا أنه النظام أحد شيوخ
الكلاميين وأستاذ الجاحظ - وإن كان الجاحظ لم يرض منه هذا القول على ما ذكرناه - ما تعرض
لنقده أحد من الباحثين ؛ وهذه أدلة الفساد إن كان في حاجة إلى تدليل :

أولاً : - لو كان عجز العرب بالصرقة ولم يكن القرآن نفسه معجزاً خلا من كل فضيلة له
على غيره من الكلام ، ولصدر عن كثير من العرب عجب ودهش من تلك القوة الخفية التي
تحول بينهم وبين أن يقولوا مثله ، ولا تزال في صدورهم أفئدة لم تزلزل ، وفي أفواههم ألسنة
لم تعقد ، فما بال ذلك لم يصدر عنهم وما بالهم كان الظاهر عليهم - وهم نقدة الكلام ، وصيارفة
القول - العجب العاجب . فصاحة القرآن والدهشة الآخذة من بلاغته ، حتى كان الكثير منهم
على عذاه وكفرانه يسجد لفصاحته وبيانه ، وقد أثر في ذلك الكثير أوله أسلم الجهم الغفير .
روى أن أعرابياً سمع قوله تعالى « فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقاً
لا يقدر على مثل هذا الكلام ، وروى أن آخر سمع قارئاً يقرأ « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن
المشركين » فسجد وقال : سجدت لفصاحته ، وهذا عمر على قسوته وشدة قبل إسلامه دخل
على أخته وزوجها وهما يقرآن سورة طه فرق قلبه لما سمع وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم
من ساعته . وإنا لنسوق هنا حديث الوليد بن المغيرة وقد سمع من النبي عليه الصلاة والسلام
« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم
لعلكم تذكرون » فرق قلبه لهذا البيان وعلمت بذلك قريش وهو فيهم من هو ، فأناه أبو جهل

فقال له : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه كيلا تأتي محمداً بقرض لما يقول، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له، فقال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أغلاة مفرق أسفله، وإنه ليعلم ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ماتحته، قال: لا ترضى عنك، قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: « هذا سحر يآثره عن غيره، » ذلك ما قال الوليد بن المغيرة ذو المال والولد والقوة والعدد وأحد رجلى القريتين اللذين تمت قريش أن لو كان القرآن نزل على أحدهما كما حدث الله عنهم بقوله « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون »؛ فهو رجل مكة ورجل الطائف عروة بن مسعود، نعم ذلك ما قال بعد تفكير وتقدير وإصرار على ما به من جحد وعناد، وهو يدل على ما لم يقدر على إخفائه، فقد صرح في حديثه أن ما يقولون لا يشبه شيئاً من هذا القرآن، ووصفه بما وصفه بما يدل على هذه المغامرة، وأخيراً كان حكمه عليه قوله فيه « هذا سحر يآثره عن غيره »، فجاء ذلك الحكم حاملاً في ثناياه أن القرآن قوة خارقة، تنظر قريش إليها نظرتها إلى السحر، وكفى بهذا من المعاندين إذعاناً وتسلياً.

وماد من أقدمنا هذا الحديث من عدو طاع شهادة منه على الإعجاز - والفضل ما شهدت به الأعداء - فلمنسق تصوير القرآن لهذا الحادث شاهداً آخر في الموضوع أيضاً، فقد جاء قصصه رائعاً معجزاً، قال سبحانه لنبيه وقد ساء صلى الله عليه وسلم صدق قريش الوليد أن يسلم، واستسلام الوليد لها في رمية القرآن بالسحر، يؤسبه ويصبره ويهدد هذا المقتون وبزجره : « ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالا ممدوداً، وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد كلا، إنه كان لآياتنا عنيداً، سأرهقه صعوداً، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر، سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقى ولا تذر، لواحدة للبشر، عليها تسعة عشر ».

فهذه الآيات قد صورت الحادث تصويراً شمل أطرافه في بلاغة وقوة أداء من بيان مكانة الوليد ومقدار ما شمله لذلك من غرور جعله يقول ما يتول، وأن ذلك لم يغنه شيئاً فيما أراد الله من سعيه.

وثانياً: لو كان إعجاز القرآن بالصرقة كما يقول النظام، وليس ذلك لفضيلة فيه، لزال الصرقة بزوال زمن التحدي ولأصبح في مكنة الفصحاء والبلغاء أن يقولوا مثله لخلوه في ذاته من صفة الإعجاز. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ولن يكون؛ فقد تبارى بعد ذلك فرسان الكلام وأتى

رجال النثر بفاية ما في طوقهم من بيان، ومع هذا بقي بينهم وبين ما جاء به القرآن البون الشاسع والمدى البعيد على ما أمدهم به من هدى وأنالهم إياه من رشاد، فتأيد بهذا ما كان من إجماع الصدر الأول على أن معجزة الرسول العظمى باقية مابقي الزمان وأن لا معجزة له باقية سوى هذا القرآن .

ثم كان ما كان من تدوين علوم الفصاحة والبلاغة وتعميد الطريق إليهما لكل طالب لها راغب فيهما ، ولكن بدلا من أن يعين ماوضع لهما من قواعد ، وفصل من فصول رجال الكلام إلى أن يشبهوا فيما يقولون شيئا من القرآن ، أراهم الشقة بعيدة عنهم ، والمحاولة مستحيلة عليهم، لما تكشفت عنه تلك القواعد من مزايا القرآن التي لا تحصى، وفضائله التي لا تستقصى ، حتى لقد عمد إمام المؤلفين ورئيس البلغاء والمتكلمين عبد القاهر الجرجاني إلى تسمية ما ألفه في هذا الباب « دلائل الإعجاز »، وليس بعد إقرار مثله إقرار ، ولا ينبتك مثل خبير، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه .

ومن العلماء من قال إن التحدى جاء في كلام الله القديم القائم بنفسه وهو إحدى صفاته العشرين، ومن ثم وقع العجز لأنه محال أن يتهاى لبشر في صفة من هذه الصفات ما لله جل شأنه فيها، وليس هذا بأقل غرابة من القول بالصرفة إن لم يكن أغرب منه ، فإن الكلام القديم قبل صوغه في هذه الصورة التي بلغ بها، لا مثل له ولا وقوف للعرب على كنهه ، فكيف يتحدثون بشيء غير معروف لهم ، والتكليف بغير المعروف لا تسميغه العقول ولا تقبله الأفهام ؟ فإن قيل إن المراد تحديهم بما تضمنته هذه الصورة بعد تبليغها ، قلنا إذن الإعجاز في المعاني لا اللفاظ، وإذن يكون سائر الكتب المتزلة معجزة كالنوراة والإنجيل، لأنها صور معبرة عن كلام الله القديم، وما قال بذلك إنسان ، ولا ذكرت تلك الكتب عن نفسها شيئا من هذا كما ذكر ورد القرآن .

على أن في القرآن نفسه ما يفهم أن التحدى كان يطلب إلى العرب الإتيان بمثل هذه الصورة اللفظية في نظمها وتأليفها دون النظر لمعانيها، فإنهم حين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم - كما حدث الجاحظ آنما - أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، ورموه باقتراء الكتاب على الله ، قال لهم : فها توها مقتريات كما هي الآية « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من أنستطعم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن الله لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون »، ومع هذا لم يرم ذلك منهم خطيب ولا طمع فيه شاعر كما أسلفنا ، وفي ذلك دلالة كافية على أن القرآن أعجز بنظمه البديع وتأليفه العجيب الذي أنتج البيان الرائع ، وأتى بالسحر الحلال .

وذهب فريق من العلماء إلى أن القرآن أعجز بما تضمنه من التفريق بالغيوب والكشف عما

في الضمائر مصيباً في ذلك كله الاصابة جميعها، وبما اشتمل عليه من القصص الحق لسير الأولين وأخبار الماضين، مما لا يقف على مثله عالم بالسير دارس للآثار، ولكن ذلك لا ينهض وحده دليلاً على الإعجاز، لأنهم إن كانوا يريدون منه أن العرب عجزت عنه لعدم قدرتها على أن تنبأ صدقاً، ولا استحالة وقوفها على مثل ما جاء به قصص القرآن لخروج النبؤ عن طرق البشر، ولأنها من حيث القصص لم تك على علم بالسير ولم تسلك له سبيل التحصيد، فإننا لا نرتضى ذلك أيضاً دليلاً على الإعجاز الذي يجب أن يكون للقرآن، وإلا كان ماورد في الكتب المنزلة قبله ميراً عن غيب أو قاصاً لقصص، وما أكثر هذا الأخير فيها معجزاً كذلك !

وقد سبق أن هذا لم تذكره تلك الكتب عن نفسها مثلما ذكر القرآن الكريم، وأنه لم يقل به إنسان، كما سبق أيضاً أن رسول الله حين قالوا له: أنت تعرف من أحوال الأمم ما لا نعرف، ورموه بالافتراء، قال: فها توها مفتريات، وتحداهم بذلك القرآن فما أقدموا ولا حاولوا، بل كان ماورد في القرآن نفسه بعيداً عن التنبؤ والقصص - وهو معظمه - فأفاد صفة الإعجاز، وفي مقدور العرب أن يحاكموه، مع أن الإعجاز ثابت لكل كم منه تحقق فيه القدر الذي تنازل إليه التحدى من السورة القصيرة أو الآيات اليسيرة، كما هو منطوق الكتاب وعليه يكاد يعتقد الإجماع.

أما إذا أرادوا أن محمداً وهو بشر لا يمكن أن يكون مصدر هذه الغيوب كما لا يمكن وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب أن يكون جعبة هذه الأخبار - وخاصة إذا لم يعرف عنه في الحال الأولى سحر ولا كهانة، ولا في الثانية اتصال بمن كانوا على بعض العلم بهذه الآثار، وأنه وهذا شأنه لا بد أن يكون صادقاً في نسبة هذين إلى الله، لأنه وحده المستأثر بعلم الغيوب ودون غيره الملم بتواريخ الأولين، وبذلك ثبت نبوته، وينسحب الصدق إلى سائر النواحي من القرآن - تقول أما إذا أرادوا هذا فإننا لا قبله دليلاً على الإعجاز أيضاً بالمعنى المراد، لأنه ينتهي بنا إلى ما انتهى إليه الأسر الأول، إذ كل ما بينهم ما من فارق أنا اتخذنا في الأول عجز العرب، وفي الثاني عجز محمد دليلاً على أن بعض الكتاب يحتم عن طريق معناه أنه من عند الله، وبذلك ثبت نبوة محمد ويتناول الصدق سائر الكتاب، ولكننا لازلنا على هذا وعلى ذلك بعيسدين عن إثبات الإعجاز للقرآن إثباتاً ينال جميعه بالذات لا بعضه بالنظر إلى معناه، ثم يأتي على سائرهما تقدم بطريق الاستنباط.

إلى هنا انتهينا من ذكر الوجوه الثلاثة التي لم نرتضها دليلاً على الإعجاز، ومن قولنا فيها يظهر أن الأولين مرفوضان جملة وتفصيلاً، أما الثالث فمع عدم نهوضه وحده دليلاً على إعجاز الآيات لذات الآيات صالح أن يساق حجة للإعجاز، ولكن على النحو الذي بيناه، ولهذا لا يفوتنا أن نذكر شيئاً عن القصص والنبوءات، أما القصص فمن أهم مظاهر القرآن وهو الكثير الغالب

فيه ، فلندع التمثيل له الآن إلى حيث يأتي ذكر الأغراض ، ولنكشف هنا ببعض ماورد فيه من الآيات المفهمة استحالة على رسول الله ، ولم يكن من عند الله ، والموضحة مدخله إلى الإعجاز: قال تعالى: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون» ، وقال: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين» وقال أيضاً: «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاكم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون» ، وقال والقول في هذا الباب كثير: «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا» .

وأما النبوءات فعلى قلتها في القرآن أدل من القصص على الإعجاز بالنهج الذي نهجناه ، وهذا شطر منها حيث لا عودة إليها فيما سيأتى من كلام ، قال الله تعالى : «الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين» ، وقد غلبوا في هذا البضع ، وقال : «لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون» ، فدخلوا كما قال ، وقال في قصة بدر : «سيهزم الجمع ويولون الدبر» كما قال فيها «إن يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» فصدق في ذلك كما صدق في إخباره عما في نفوسهم من ودم أن غير ذات الشوكة تكون لهم ، ومن تحقيق ما أراده هو من أنها لهم ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، وهذا من تنبؤه عما في الضمائر .

ومنه أيضاً قوله على لسان رسوله فيمن تخلفوا عنه في إحدى الفزوات «ولن تخرجوا معي أيداً ولن تقاتلوا معي عدواً» ، فإنهم لم يخرجوا معه بعد ، وكذا قوله لليهود : «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» ، فماتناه أحد منهم تحقيقاً لقوله بعد «ولن يتمنوه أبدأ بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون» .

لهذا ذكر الباتلاني في كتاب «إعجاز القرآن» عن أصحابه وغيرهم ثلاثة أوجه من الإعجاز : جعل أولها الإخبار عن النيوب ، وثانيهما الإخبار عن قصص الأولين ، ثالثهما ما أن شرع فيه من نصيب إياه الوجه الحق للإعجاز ، فقد قال : «والوجه الثالث أنه وبمع النظم ، عجيب أنما أليف ، وتمناه في البلاغة إلى المدى الذي يعلم عجز الخلق عنه» ، وهو ما نريد ، ولكن على خلافه في التفاصيل : ما

الرجوع الى ميتوزيلا

لبرنارد شو

في البداية

ميتوزيلا بطريق يقال إنه عمر طويل حتى نيف على التسعمائة بنصف قرن أو يزيد ، فالرجوع إليه هو الرجوع بالإنسان إلى الحياة الطويلة ، والحكمة في ذلك هي ماتدور عليه القصة بماسياعامه القارىء بعد حين ، والمؤلف يرمى إلى تأريخ التطور الخالق creative evolution فبدأ بقصة آدم وحواء واستغل تلك الأمنية الأبدية « حجر الفلاسفة » الذى يغلب الناس على غائلة الموت. والقصة فوق ذلك معرض تمثل فيه نقائص الحياة المتمدينة ، وخاصة الجانب السيامى منها.

نحن فى ناحية من جنة عدن ، يجلس فيها آدم وحواء ، وعلى مقربة منهما تسكن حية مخفية الرأس ، وأيل مكسور الرقبة ، وقد جذب الأيل أنظار آدم وحواء بسكونه المستمر ومنظره المقبض ، مما أثار فى نفس الرجل الخوف أن تزل قدمه مرة فتندك رقبتة وينقطع حبل حياته ، وتحس حواء ببعض مايجد ، ويشفق كل منهما أن يهجره رفيقه تلك الهجرة الأبدية ، ويتركه لوحده ليس فيها أنيس ، ولكن حواء تعجب من خوف آدم هذا لأنه يتردد دائماً بين الضجر من الخلود والخوف من الموت ! ويهم آدم بالأيل ويذهب به بعيداً ليرمى به فى النهر ، وفى أثناء غيابه تتحرك الحية وتتحدث إلى حواء ببلغتها ، لأن طول إصغائها إلى حوارها مع آدم أفضى بها إلى تعلم اللغة التى يتكلمان ، وهى تحدثها لما ترى من شدة خوفها من الموت ، وتكلمها عن دواء الموت وهو الميلاد وبعث الحياة من جديد، وتضرب لها مثلاً بنفسها فهى تلد حيات جدد، وهذا ما فعلته ليليث عند ما آلمتها فكرة الموت فولدت آدم وحواء ! ، والخلق ليس محلاً ، فقط يجب أن ترغب وتخيّل ثم تريد فتخلق ، ولم لا ؟ ألم تكن حواء عاجزة عن تسليق الأشجار ؟ ألم ترغب وتخيّل وتريد فخلقت من العضلات والاستعدادات مامكنها من تسليق الأشجار ؟ هكذا الخلق ممارسة واجتهاد . . . ولا يجوز لحواء أن تردد إذا كانت تريد أن تغلب على الموت ورعبه . وإذا مارجع آدم هرعت إليه حواء وأفضت إليه بكل مادار بينها وبين الحياة ، ويسر الرجل لذلك ، إلا أن خوفاً بداخله أن يقتله من سوف يلد من أحياء ، ولكنه يجد فى

نفسه إطمئناناً غريباً، ويخيل إليه أن صوتاً يوحى إليه بأن لن يصيبه أذى ممن سيلد، ويصرح لحواء بأنه نفس الصرت الذى يبغضه فى فكرة قتلها، وهنا تقول له :

حواء « إن الصوت يهوس لى بقتلك ومع ذلك فلا أرغب أن تموت قبلى ، ولا حاجة لى بصوت يأمرنى بذلك » . فيقول آدم : « كلا... ذلك بين من غير صوت ما، لأن هنالك شيئاً يربطنا ببعضنا . . . شئ ليس له كلمة . . . »

الحية « الحب . . . الحب . . . الحب »

آدم « إنها الكلمة قصيرة لمثل هذا الشئ الطويل ؟ »

الحية « الحب تديكون كلمة طويلة لشئ قصير . . . ولكنه إذا كان قصيراً كان حلواً » .

آدم « إنك تحيرينى، كان اضطرابى القديم ثقيلًا ، ولكنه كان بسيطًا ، وهذه البدائع التى

توعدين قد تلب كيانى قبل أن تمنحنى هدية الموت ، كنت أنوء بحمل المخلوق الخالد، ولكن لم أكن مهتاج العقل، وإذا كنت لم أعلم أنى أحب حواء فلم أكن أعرف كذلك أنها يمكن أن ترهق فى حبي وتحب آدم آخر ، أو أن ترغب فى موتى . . . هل تعرفين اسما لهذه الحالة ؟ » .

الحية « الغيرة . . . الغيرة . . . الغيرة »

آدم « كيف لا أثار على الهم مادام المستقبل أضحى غير مؤكد ؟ إن أى شئ خير من

الشك ، فالحياة أصبحت غير يقينية والحب غير يقينى ، فهل لديك كلمة لهذا الشقاء الجديد ؟ »

الحية « الخوف . . . الخوف . . . الخوف » . فيقول آدم : « هل عندك علاج له ؟ » . فتقول

« نعم . . . الأمل . . . الأمل . . . الأمل » فيسأل « وما الأمل ؟ » ، فتقول : « مادمت لا تعرف المستقبل فإنك لا تعرف أنه لن يكون أسعد من الماضى . . . هذا هو الأمل » .

آدم « إنه لا يعزبنى أن الخوف عندى أقوى من الأمل ، ينبغى أن أظفر باليقين . . هبىه

لى أو أقتلك إذا ما ظفرت بك نائمة » فتقول حواء « حيتى الجميلة ! . . كلا ! . . كيف تفكر فى

مثل هذا الأمر المروع ؟ » فتقول الحية (لآدم) : « قيد المستقبل بإرادتك وانذر نذراً » ،

فيسأل آدم « وما النذر ؟ » فتجيب الحية « اختر يوماً لموتك، واعزم أن تموت فى ذلك اليوم،

فلا يبقى الموت غير يقينى ، ودع حواء تنذر أن تحبك حتى تموت فلا يبقى الحب بين مخالب الشك »

آدم « هذا جميل » ، فتستدرك حواء « ولكنه سوف يقضى على الأمل ! » فيقول آدم

(مغضباً) « صه . . يا امرأة . . إن الأمل شرير والسعادة شريرة . . اليقين هو السعادة »

الحية « وما الشرير ؟ » فيجيبها آدم : « كل ما أخاف أن أفعل شريراً ، اصغ إلى يا حواء،

وانصغ أيتها الحية واشهدا نذرى : سأعيش ألف دورة فلسكية .

الحية « ألف سنة ؟ ألف سنة ؟ » ، فيردد آدم « نعم سأعيش ألف ولن سنة أبقى ؛ لذلك ، وسوف

موت وأفوز بالراحة ، ولسوف أحب حواء كل هذا الزمن دون سواها» ، فتقول حواء « وإذا
وفي آدم بنذره فلن أحب رجلاً سواه » .

وتهمف الحية أنهما اخترعا الزواج ، ثم تفتحى بحواء ناحية لتفرض إليها بسر هذا
الزواج ، وتهمس في أذنها بكلام فيتهلل وجهها فرحاً ، ثم يعترية الامتعاض فتخفيه بين يديها .

تقضت قرون ، وقد هبط آدم من عدن وعاش مع حواء ، وها هو ذا يحفر وهاهى ذى تفزل ،
ولم يظلا كما كانا حافظين لثوب الفتوة جديداً ، وإنما خضعا لسلطان الزمان الذى سلبهما رونق
الشباب ومكن منهما الكبر . ولأول مرة يظهر بجانبهما آدمى جديد هو هايل ، وهو متلفع
برداء الحرب مزهو بفرور المحاربين ، ولا يكافئنا أى جهد أن نلاحظ ما بين الأب والابن من
سوء تفاهم وغضب ظاهر ، وذنب الابن أنه قتل أخاه قايل ، ولكنه يعتذر عن نفسه بأن أخاه
هو الذى اخترع النار والقتل وأنه قضى عليه بما كان يقضى به على غيره ، وهو على كل حال لا
يبتئس لذلك بل يفخر به ، لأن حياته فى نظره أحفل بمعانى العظمة من حياة أبيه . وماذا فى حياة
آدم غير الحفر ؟ وهو يستطيع أن يفخر بالحفر إن جاز له أن يفخر بأنه خلق رجلاً ! أما هو
فيستطيع أن يزعم أنه القاتل الأول ، وحياة القاتل حياة قوة وحرية !

ولا يروق حواء حديث ابنها ، وتخشى على آدم أن يتأثر به ، فتحنى على ابنها بالأمم أن يفخر
بما لا يستحق الفخر أو الثناء ، وتكرر عليه أن يزعم لنفسه ما ليس لها من الحرية والقوة فهو أسير
أمراته ، يساق إلى مقاتلة الحيوان بوحى صامت منها ، لأنه يذوق السعادة فى تلك الساعة التى
ترمى بصيده تحت قدميها مزهواً أمامها بقوته وجبروته ، وهو بعد هذا وذلك ليس إلا مخرباً ،
ولو أنه ذاق العذاب مثلها والجهد فى سبيل الاتجاع والبناء ما استقام منطقته بمثل هذا التفكير
الطائش . ولكن الفتى لا يهتم لكلام أمه وما يزال يصر على إثبات أسلوب حياته والزراية بحياة
أبيه . فاذا نظر أبوه إلى الأرض وأقر بأنها أصل الحياة تطلع هو إلى السماء وقال إن الأرض
إصل الأمراض كذلك . وتشتد ثورته على الأرض وما فيها من طعام وتناسل ، ويتساءل : إذا كان
هذا هو كل ما للإنسان ، فما الفرق بينه وبين الدب ؟ ويشتد سخط الأب ويتغالى الابن فى كبريائه حتى
تهددحاهما بالخطر مما يدعو حواء إلى التدخل فيما بينهما لتهدى من تأثرتهما وتلطف من حرارتهما ،
حتى إذا رأتهما جنحاً إلى السكون اعترفت لهما بأنها غير راضية عن حياة آدم ، وغير راضية عن حياة
هايل ، تلك تضجرتها بما فيها من لون واحد وحركة واحدة ، وهذه تنفرها بما فيها من وحشية وخراب .
وإنما الذى يعزىها ويهون عليها هو الأمل فى المستقبل ، وقد بدأت تتلمس بوادر حسنة تبشر بالسعادة
وهى التى تتحقق على أيدي بعض أبنائها ، فمنهم من يسرح بنظره بين الكواكب يطلق عليها
الاسماء ويلاحظ حركاتها ، ومنهم من صنع لها هذا المغزل العجيب ، ومنهم من يهيم فى الغابة صائحاً

إلى « الصوب » يستلمهم أمورا يهذى بها إخوانه ... وهو لا يحلم أملها في المستقبل الذين يبنون ويتكبرون من غير أن تسرحهم السكينة ولا تفرر بهم حمية القتال . والظاهر أن هاييل لا يفهم هذا الكلام فيأخذ عدده ويخرج ، ويستأنف آدم الحفر وتجلس هي تغزل وهي تقول :
« الإنسان لا يحتاج دائماً أن يعيش بالخيز فقط ، يوجد شيء آخر لا ندري إلى الآن ماهو ؛
ولكننا سنكشف عنه في يوم من الأيام ، هنالك لا يبقى محل للحفر أو الغزل أو التراخ أو القتال »

نحن الآن بعد الحرب الكبرى ، في غرفة بيت فرانكلن بارناباس - وهو رجل من رجال الدين سابقاً - وأخيه كوزاد بارناباس وهو عالم بيولوجي ، والأخوان من الرجال الموهوبين الذين يعيشون للإنسانية ، وهما متفقان على أن الحياة البشرية قصيرة بحيث لا تحقق للإنسان ما يطلب من الحكمة والعرفان ؛ ولقد هجر فرانكلن الكنيسة لما رأى أن بينه وبين الحكمة مائة وخمسين عاماً . أما كوزاد فيتمنى لو يعمر تسعمائة وستين عاماً كما يطربق ميتوزيلا ليبلغ مرتبة العلم الحقيقي . وبينما نستمتع لحوارهما يدخل القس هاسلام وتتبعه ابنة خطيبته فرانكلن سافى ، ولا يكاد يستقر بهما المقام حتى يدخل شخص ثالث هو مستيريبرج وهو من الشخصيات السياسية البارزة وحسبك دلالة على سمو قدره أنه ترأس الوزارة البريطانية أثناء الحرب ، وأنه الآن زعيم المعارضة وهو لم يحضر لخالص الزيارة ولكنه يرمى إلى غرض سياسي ؛ ذلك أنه علم أن مستر فرانكلن ينوى القيام برحلة ، فهل تكون الرحلة لغرض سياسي ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يكون الأستاذ ممن يزكونه أم ممن يناهضونه ؟ لأن الحالة حرجية والشعب غير راض عن الوزارة القائمة التي لا تمثل أحداً فيه ، ولكن فرانكلن لا ينوى القيام بدعاية سياسية مطلقاً وهو لم يفكر في السياسة أبداً ، لأنها - على ما هي عليه - لا تستطيع أن تجذبه إليها ، وهو يصرح لمستيريبرج عن رأيه في أساليبهم وانتخاباتهم التي يراها مهازل مضحكة لا تقضى شيئاً .

وأثناء الحديث تدخل الخادم معلنة قدوم مستر لابن ، وهو رئيس بيرج القديم ورئيس الوزارة قبل الحرب ، وبين الرجلين منافسة حادة وخصومة مكتومة واحتقار متبادل . ويتحدث الجميع في السياسة ، وهل في أدمغة رجال السياسة موضوع عدا السياسة ؟ كأنما الدنيا لم تخلق إلا لتكون ميداناً لانتخاباتهم ، وكأنما الناس لا يوجدون إلا لتركيتهم وتسليمهم مقاليد الحكم ؛ وأخيراً تضيق سافى بالحديث وتسخط عليه ، وتقرح على أبيها وعمها أن يبلغا السياسيين إنجيلهما الجديد . ويراع الرجلان ظناً منهما أن الشقيقتين ينويان تكوين حزب سياسي جديد يرحم عليهما الميدان ، ولكن كوزاد يؤكد لهما أن فكرة كهذه لا يمكن أن تنال طمها نفساً ، فما عسى أن يكون هذا الإنجيل إذا ؟ هنا يقول فرانكلين « برنامجنا هو أن تمتد نهاية الحياة الإنسانية إلى ثلثمائة عام » ، وتقول سافى : « إن نداءنا في الانتخابات هو الرجوع إلى ميتوزيلا » ، ولكن ما شأن ذلك والسياسة

هنالك يأخذ فرانكلين في شرح كتابه أو إنجيله قائلاً إن رجال السياسة يموتون ولما يبلغوا سن الرشد، يموتون وقبس من النور يوشك أن يشرق على نفوسهم المظلمة، فيجب أن تنقذهم الحياة ليبلغوا الحكمة وينفذوا من تجارب القرون ! ولما يسمع مستر لابن هذا الكلام يوافق عليه، ولكنه لا يرى فائدة عملية من الخوض فيه ، فقد نستطيع أن نتمسك الطيور بأيدينا لو تنطبق سما على الأرض ، وبسألان كونراد: هل اعتدى إلى أكسير الحياة ؟ هل يقدم لها طعاماً أو سقيها شراباً ؟ فيأسف العالم لأنه يحدثهما في العلم فيقبلان عليه بأفواه مفتوحة وعيون مغمضة، ولكن لابن لا ينق بالعلم كثيراً ويستشهد بخطأ العلماء المتكررة، وربما كانت ثقته بالشعرا عظم، ويجد من فرانكلين موافقة على كلامه ، ويضرب هذا مثلاً على صدق الشعر بأسطورة عدن، ثم يقول « حسناً أنت تذكر أنه في جنة عدن لم يكن آدم وحواء خاضعين للموت، وأن الموت الطبيعي - كما نسميه الآن - لم يكن جزءاً من الحياة وإنما هو اختراع متأخر عليها ومنفصل تماماً منها » ، ولما يدترس لابن بأن الموت غير الطبيعي كان موجوداً يستطرد فرانكلين قائلاً: « نعم ، كان آدم وحواء معلمين بين قديرين مخيفين : انقراض النوع من الموت غير الطبيعي، والأمل في حياة أبدية ، ولما لم يطبقا واحداً منها قررا أن يكتفيا بحياة قصيرة أمدتها ألف عام ومن ثم يعمدان بعملها إلى زوج جديد ، فاخترعا الميلاد الطبيعي والموت الطبيعي اللذين هما من الظاهر استمرار الحياة من غير أن يرزح مخلوق تحت وطأة الخلود » .

فالحياة خاتمة ولو في الأفراد ، ونحن صورها المتكررة. وهي تسير في سبيل القوة والعرفان غير المحدودين ، والذين يجب أن يظلا غير محدودين ليسوغا لنا الحياة . وبسأل لابن عن أصل الخطيئة، فيجيبه فرانكلين قائلاً إن آدم كان يعيش في عدن آمناً من الموت فكانت بيته الأبدية، وكان لذلك يوجه جل عنايته إلى المحافظة عليها والاهتمام بشأنها ، فلما اخترع الموت الطبيعي وأضحى مستأجراً للبيت لا صاحبه ففرت عنايته به ، وتجراً على ضرب حواء بعد أن كان يشفق أن يصيبها بسوء فيبتي وحيداً لا أنيس له، ولما جاء أبناءه ساروا على سنته وزادوا عليها ، فكان القتل وكان الصراع وكان الشقاء ... هذه هي قصة عدن ولك أن تسميها التطور الخائلي إن كنت من المغرمين بالأسماء العلمية ؛ وليس التطور ظاهرة عارضة مخطئة قوة ، نحن تجربة في يدها. فإن بشرنا بنجاح أبقتنا ، وإن رأنا أننا تجربة فاشلة قضت علينا وابتدعت غيرنا .. وكمن مخلوقات اقرضت ولم تترك إلا آثارها على الأحجار القديمة .

كل هذا طيب ولكن كيف النسييل إلى العيش ثلثمائة عام ؟ هل هنالك أكسير أو نحوه ؟ الحق انه لا يوجد أكسير ولا غيره ، وكل مافي الأمر - كما يقول فرانكلين - أننا نستطيع أن نبت في عقول الناس أنه لا يوجد شيء يمنع من ذلك - طول العمر - إلا إرادتهم أن يموتوا قبل أن يشارف عملهم النمام، وإلا جهلهم بالعمل العظيم المتروك لهم أمر القيام به .

ونجيب أمل لابن ويرج، لأن عقليتها لا تقتنع إلا بالأمور المادية، أما الرغبة والافتناع النفسى فأمر آخر ! أليس كلنا نرغب أن نعمل ثمانمائة عام ومع ذلك لا يتاح لنا أن نتجاوز العمر المحدود ؟ ولكن كوزاد لا يرى ذلك وهو يقول مدللاً « كل يود لو يحصل على مليون جنبيه فلماذا لا يحصل عليها ؟ لأن الذى يتمنى أن يكون مليونيراً لا يحصر على توفير ستة بنسات ولو هددته الموت جوعاً وانتصب محققاً فى وجهه ، والذين يرغبون أن يخلدوا لا يحاولون أن يخلدوا عن شرب البيرة أو تدخين التبغ، وهم يعتقدون أن الممتنع عن المسكرات والتدخين يعيش أجلاً أطول، مثل هذه الرغبة لم تتجاوز عتبة الإرادة، انظر إليهم كما يعتقدون أنه يجب عليهم أن يفعلوا . لكن لابن عسير عليه أن يفهم هذا الكلام، وهو يأس من أن يطول عمره، ويرج يعد بأن يجعل من هذه المسألة أساساً لمعركة انتحائية ، وهاسلام لا يصدق شيئاً من هذا، حتى خطيبته ساق تشك فيه شكاً قوياً لما ترى أنه من المحتمل أن تعمّر الخادم وترجع إلى ميتوزيلا . أما الشقيقان فلا يخالطها شك فى الموضوع. لكن هل يعمّر أحد منهما أم لا ؟ هذا مالا يعلمه أحد.

نحن فى عام ٢١٦٠م فى إنجلترا أيضاً وفى خرفة رئيس الوزارة وهو يجمع فى هيئته ما بين مستر بيرج ومستر لابن ، ونحن نحس تقدماً فى الحضارة الميكانيكية : فالوزير يتحدث إلى وزيرة الصحة بالتليفون وهى على بعد أميال عديدة، ويستطيع أن يراها ويرى المسكن الذى نحل فيه كتابها على بعد أشبار منه ، وبأخذنا عجب شديد أن نرى أزمة المصالح الحكومية فى أيدي الأجانب ؛ فوزيرة الصحة زنجية من إفريقية، ورئيس السكرتيرين الدائم من الصين « كوتوشيموس » ، وسبب ذلك كما يقول كوتوشيموس - أن الإنجليز بعد حرب طاحنة أقنعوا بأنهم ليسوا أهلاً لحكم أنفسهم فساموا أمورهم للقرباء وانتظمت بذلك آلة الحكومة وتفرغت للتفكير فى السياسة العليا.

يدخل على الرئيس موظف إنجليزى كبير الشبه بكونزاد بارناباس ، يبدو عليه الاضطراب وتصدر عنه حركات عنيفة ، وكان الرئيس قد أرسله بدلاً منه ليقابل مخترعاً أمريكياً اخترع آلة للتنفس تحت الماء ، ورأت الحكومة أن تعرض على الأمريكى شريطاً سينمائياً يمثل العطاء الذين ماتوا غرقاً . وشاهد بارناباس من هؤلاء العطاء المنكوبين : الأسقف ستيكيت والوزير ديكنسن والجنرال باليوى، وتحقق منهم بعين فاحصة؛ ولشد ما كانت دهشته عظيمة عند ما تبين له أن هؤلاء الأشخاص ورئيس أساقفة يورك الحالى شخص واحد بعينه ، نعم ليس الذى بينهم مشابة قوية، وإنما هى ذاتية واحدة ، ويدعش الحديث الموظف رئيس الوزراء ورئيس السكرتيرين وتزيد دهشتهم عند ما يدخل عليهم رئيس أساقفة يورك . وهو كبير الشبه جداً بالقس هاسلام خطيب ساقى الذى عرفناه من قرنين، ولا يستقر به المقام حتى يحمل عليه بارناباس متهما إياه بالسرقة ، لأنه ما زال يتقبض من مال الدولة من بعد فوات السن القانونية للعمل ، وهو حوالى الأربعين ، ويرى الأسقف نفسه مطالباً بتبديد الغيوم التى تكثف الأمر، فيقص عليهم قصة

يدعى بطولاتها فتكاد تصعقهم من شدة ماتدهشهم... يقول إنه تزوج في عام ١٩٢٤ من ابنة فركليين الذي ينحدر بارناباس الحالى من أسرته ، وإنه قرأ كتاباً لعم زوجها يبشر فيه للإنسان بحياة طولها ثلثمائة عام ، لأن حياته الطبيعية لا تؤهله للقيام بواجبه نحو المدينة ، وإنه لم يستطع أن يصدق هذه الدعوى الخارقة ، وعاش مع زوجته وتقضت الأيام سراعاً ووضح فعلها على وجه زوجها التى مضى من عمرها جفرة وضحا وطلع أصيله ، وهو باقى على حال شبابه حتى لاحظت عليه ذلك امرأته وضاحكته قائلة إنه سيعمر ثلثمائة عام ، ومضت الأيام وماتت زوجته ولم يتغير منه شيء ، فوقه في نفسه أنه سيعمر حقاً ، وكان كلما عاش يوماً وعرفت له شخصية تخلص منها وتخلص شخصية جديدة ، وكانت السبيل إلى ذلك أن يذهب إلى شاطئ البحر ويترك ملابسه ويرحل إلى بلد شاحط فيظن الناس أنه غرق ، وبهذه الطريقة كان أسقفاً مرات ، وتقلد منصب الرئاسة مرة وترأس الجيش مرة ، وهو الآن بالبلغ من العمر قرنين ونصف قرن !! فإذا انتهى هاسلام من حكايته ، استسلم كل من الحاضرين لعواطف شتى فيبارناباس لا يصدق ، ويرج لابن يشك شكاً قوياً ، وكونفوشيوس يفكر ويفكر لعله يبتدى إلى نور اليقين وسط هذا الظلام الحالك . وبيناهم على تلك الحال من التكذيب والشك تدخل وزيرة لمقابلة رئيس الوزراء في أمر من أمور الدولة ، وهى امرأة مهيبة - رغم حداثة تكسوها - ولا تكاد تلتقي عينها بعيني الأسقف هاسلام حتى تعترها دهشة وتعتره دهشة مثلها ، ويصرح لها بأنه يتذكر أنه رآها في مكان وزمان تأبى الذاكرة أن تدله عليهما ، وكل ما يذكره أنها كانت تفتح له باباً وتحنى له ، وتعجب الوزيرة لأنها هى الأخرى يحيل إليها أنها كانت تستقبله حقاً وتفتح له باباً كذلك ، ولكن أين ومتى ؟ . ويسأل كونفوشيوس الأسقف : هل يعرف أحداً غيره امتد به العمر إلى هذا الحد ؟ ولكن الآخر لا يدري من هذا الأمر شيئاً ، وقد أخفاه عن العالمين لعلمه أن الناس كالحیوانات يؤذون من ليس على شاكلتهم ؛ وهنا تتذكر الوزيرة الأسقف وتعترف له بأنها خادم خطيبته ساقى التى كانت تستقبله فى بيت بارناباس عام ١٩٢٤ ! ، وتقص عليه كيف أنها قرأت كتاب بارناباس وكيف تأثرت به تأثراً لا يتاح إلا للجاهلات ؛ وقد تزوجت ولاقت حياة عسيرة شاقة لم تذق فيها حلاوة الحياة ولا الراحة ثم مات زوجها ؛ وبدهشها أن تبقى بعده - وبعد فوات تلك الأعوام - محافظة على شبابها وميعة صباها ؛ ثم وقعت على ما عتلك من أنها ستعمر كما قرأت فى كتاب بارناباس ، وقد راعها الأمر لأنها لم تحتمل الحياة وهى قصيرة ، فكيف تصير عليها ثلثمائة عام ؟ ولكن عزاها وشدت عزمها تقدم مطرد سائر الحياة السياسية والاجتماعية مما جعلها تحيا لنفسها حتى تبوأ مقعداً فى الوزارة ! .

ويبقى بيرج لابن عليها نظرات قلقة ، وقد أذهلته الحقيقة ويتجراً فيسألها : لم لا تزوج ؟ وتجيبه بأنها تزوجت من زمن فناناً فى الثمانين وعاشرتة زمناً ؛ ومات الرجل ولما يبدع إبداعاً حقاً ، مات فى اللحظة التى تفتحت له فيها أبواب السماء ! فيسألها ثانياً : لم لا تزوج مرة أخرى

وهي في هذه السن ؟ ألا إنها لا ترضى أن تمثت بطفولة واحد مثله في الثمانين ، وهل تراه يرضى وهو في هذه السن أن يتزوج من فتاة في الثانية عشرة ؟ وبدور بين الأسقف والوزير حديث رائع عن الحياة الانجليزية يتناولانها فيه بالنقد المر ، فالانجليز يجزعون أمام الأعمال الهامة ويتركونها للزوجة والصينيين ، ولعل لا يكون بعيداً أن يأتي يوم يصبح الانجليز فيه خدماً في بلادهم ! وبلا حظان أن العقول الصفراء والسوداء والسمراء هي التي تبتدع الآن وتبتكر كما كانت تفعل قديماً العقول الاسكوتلاندية والألمانية واليهودية والاطالية ، وحسب الانجليز الآن أن يلعبوا الجولف وغيره من الألعاب الصيبانية ؛ وطبيعى أن ينجذب كل من الأسقف والوزير إلى بعضهما ، ويهمان بالخروج وفي نية كل منهما أن يتزوج من صاحبه ، ويهندس بارناباس هذه النية فيعتزضهما ، ولكنهما يخرجان رغماً منه ؛ ويقترح هو أن يقتلا ولو دعا الأمر إلى سن تشريع تحرم فيه الحياة على المعمرين ... أليس من الممكن أن يلدأ أطفالاً مثلها وأن ينتشر هذا النسل فيضجون هم أطعاً لبحانهم ؟ أليس من المحتمل أن تمتد فامانهم بحيث تناسب أعمارهم فيمسون بجانبهم أقراماً ؟

ويستمع كوفوشوس إلى حديث بارناباس ولكنه لا يقتنع به ولا يرى فيه وجهاً للحق ، فيحتد بارناباس ويخرج غاضباً ، ويقبل الصيني على رئيس الوزراء محدثاً قائلاً : إن الانجليز يستطيعون أن يبلغوا الحكمة لو بلغوا سن الرشد ولا سبيل إلى ذلك ماداموا يموتون أطفالاً ، ويسخر من ادعائهم أنهم وجدوا ليكونوا السادة ، وليسيطروا على قيادة الشعوب ، ويشبهه بادعاء الطفل الغرير وتبته على اللعبة الخشبية التي يعبت بها ، ويتساءل الرجل : هل يوجد ياترى أناس آخرون على شاكاة الأسقف والوزير ؟ من يدرى ؟ بل من يدرى أنهم ليسا من هؤلاء المعمرين ؟ وبينهما يتحدثان تدعو وزيرة الصحة الزنجية رئيس الوزراء لتزهاه يهبط فيها بالباراشوت في خليج فنشجورد ، فيتردد على غير عادته إذا دعت هذه المرأة . كانت الحياة قصيرة زائلة وكان يستعين بها ، ولا يعدل بساعة متعة شيئاً في الوجود ؛ ولكنه قد يعمر مع المعمرين وقد تطول حياته فكيف يجازف بكثرة ثمين ؟ وهب أنه نجا من الباراشوت ؛ أفليس محتملاً أن يصيبه روماتزم من برودة البحر ؟ وكيف يحتمل الروماتزم ثلاثئة عام ؟ كلا . . . كلا . . . خير من كل هذا أن يرفض الدعوة ، وقد كان واستهان هذه المرة بفض المرأة الزنجية ؛ ويسر كوفوشوس لهذه النهاية أن تغلبت فيه روح الحكمة على غريزة اللهو والرياضة وأن أصبح جباناً حساساً حكماً !!! ولا يحفل بيرج لابن بهذه الأوصاف ، فليكن جباناً أو غير جبان ، أمر واحد يهمه ويكثر له وهو السلام مادام من الجائر أن يعيش ثلاثئة عام ! .

أهـرم الشباب

عاج الخيال فلم يبُلْ أواما
 مالى ولا كحلأ هبت عيونها
 يا قلا ويحك ما سبب معت لناصح
 لعبت بك الحسناء تدنو ساعة
 والحب مالم تكتنفه شمائل
 والحب أحلام الشباب هنيئة
 والحب نازعة الكريم تهزه
 والحب مائة الحياة وطبها
 والحب نيران المجوس لهيها
 والحب شعر النفس إن هتفت به
 والحب من سر السماء قسمه
 لولاه ما أضحى سليل زيبه
 ولما رمى فى الجحافل بنفسه
 الحب ألبسه المروعة بأفعأ
 ياشد ما فعل الغرام بهجة
 كانت صئولا لا تنيل زمامها
 سكنت إلى حلو الغرام ومره
 وطوت أحاديث الجوى فطوت
 يازهرة سم النسيم بعرفها
 ياجنة لو كان ينفع عندها
 ياطلعة الروض النضير تحية
 ومضى وخالف فى الخلوخ فتراما
 فلأن قلبى أنصلا وسهاما
 لما ارتعيت ولا انقيت ملاما
 فتمير ما بك ثم تهجر عامما
 غراء كان معرة وأثاءها
 ما أطيب الأيام والأحلاما
 فيصلو سيفاً أو يسيل غماما
 ولقد تكون به الحياة سقاما
 يحى النفوس ويقتل الأجساما
 سكت الوجود وأطرق استمظاما
 وحيأ إذا ما شئت أو إلهاما
 يوم التنافر سيداً مقداما
 لا يتقى رمحاً ولا صمصاماً
 وأعدده للمكرمات غلام
 ذابت أسى وصباية وغراما
 فغدت أذل السائمات زماما
 ورعت حقوقاً للهوى وذماما
 داء يدك الراسيات عظاما
 وجرى بها ماء النعيم جماما
 نسك لبنتنا سجداً وقياما
 ومجاجة المسك الذكى سلاما

٤ - ابن سينا

حياته وفلسفته

بقلم الأستاذ محمد ثابت الفندي
ماجستير في الفلسفة

مبانيه في الرى

لم يطل عهد مقام فيلسوفنا بجرجان ، والأرجح أنه لم يزد على العامين على الأكثر . ونحن نجد الروايات العربية كلها مجمعة على أنه خرج منها إلى « الرى » عاصمة الأمير مجد الدولة أبى طالب رستم بن خفر الدولة بن بويه ، وأنه اتصل بهذا الأمير بسبب كتب وصلت معه تنبئ بعظيم مكانته في الفلسفة والطب ، وأن الصلة صارت بين الأمير والفيلسوف وثيقة جداً بسبب الطب أيضاً ، وأنه بقي بالرى إلى أن قصدها الأمير شمس الدولة بعد قتل هلال بن بدر بن حسنويه وهزيمة عسكر بغداد ، وأنه تركها إلى همدان . وتلك الحوادث التي تذكرها التراجم العربية لابن سينا إنما وقعت في أواخر سنة ٤٠٥ هـ . قال ابن الأثير في حوادث تلك السنة : « لما قتل (بدر حسنويه أمير الجبل) استولى شمس الدولة أبوطاهر بن خفر الدولة بن بويه على بعض بلاده ، فلما علم سلطان الدولة بذلك أطلق هلالاً وجهزه وسيره ومعه العساكر يستعيد ما ملكه شمس الدولة من بلاده ، فسار إلى شمس الدولة فالتقيا في ذى القعدة واقتتل العسكران فانهزم أصحاب هلال وأسر هو فقتل أيضاً وعادت العساكر التي كانت معه إلى بغداد على أسوأ حال » (١) .

لابيضيف الرواة إلى ابن سينا - إذ كان بالرى - غير مصنف واحد ، هو كتاب (المعاد) ، وهذا الكتاب غير (المبدأ والمعاد) الذي صنفه بجرجان للشيرازي . قال ابن أبى أصيبعة عن كتاب المعاد : « إنه صنفه بالرى للملك مجد الدولة » (٢) .

ولقد تدل قلة مؤلفات الفيلسوف بالرى على أن مدة إقامته بها كانت جد قصيرة .

مبانيه في همدان

تحدثنا التراجم العربية بعد ذلك بأنه انتقل من الرى إلى قزوین ، ونرجح أن ذلك كان في أوائل عام ٤٠٦ هـ ، وتحدثنا بأنه انتقل بعد ذلك إلى همدان عاصمة الأمير شمس الدولة أبى طاهر

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : أخبار سنة ٤٠٥ هـ ج ٦ ص ١٧٤ طبعة أوروبا (٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٩

ابن خنفر الدولة بن بويه . وعندما كان الفيلسوف بهمدان اتفق أن مرض أميرها بعرض القولنج (المفص) فاستقدم الفيلسوف لعلاجها فعالجه وبقي في قصره أربعين يوماً وصار من ندماء الأمير . وفي عام ٤٠٨ هـ خرج ذلك الأمير إلى قرميسن لحرب من الحروب الكثيرة التي كانت تنشب بنظام مستمر ، وخرج معه الفيلسوف ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وعاد الأمير إلى عاصمته منهزماً بدأت الحياة التي لم تذق فيلسوفنا طعم الراحة والاستقرار منذ أن جرفت به من بخارى إلى أن ألقته بهمدان ، بدأت تلك الحياة بتبسم فتيلة مرتبة سياسية خطيرة ، ذلك أنه صار وزير شمس الدولة . وتذكر التراجم العربية أن جنود همدان ثارت على الأمير لتقليده الوزارة لأبي علي بن سينا ، وكبست دار الوزير وأغارت على أسبابه واغتصبت جميع ما كان يملكه ، وسألت الأمير أن يقتله ، فامتنع واكتفى بنفى وزيره عن الدولة مرضاة لهم ، فتوارى الوزير أربعين يوماً في دار عين من أعيان همدان يقال له أبو سعيد بن دخدوله . وحدث أن حاودت الأمير علة القولنج فاضطر إلى استدعاء ابن سينا من مخبئه واعتذر إليه كل الاعتذار وأعاد إليه الوزارة ثانية .

ولم تذكر الروايات كلها شيئاً ما عن تاريخ وزارته : متى بدأت ؟ ومتى انتهت ؟^(١) ، إلا أننا نعرف أن خليفته في الوزارة كان « تاج الملك » ، ونحن نجد في كتاب الكامل لابن الأثير في أخبار سنة ٤١١ هـ ذكر آلتاج الملك وإشارة تدل على أنه كان وزيراً في ذلك الحين مما يجعلنا نرجح بل نؤكد أن وزارة أبي علي بن سينا كانت قد انتهت قبل ذلك التاريخ (٤١١ هـ) من غير شك ، كما أنها كانت قد بدأت بعد عودة الأمير شمس الدولة منهزماً من حروبه بقرميسن عام ٤٠٨ هـ . ونحن لا نعرف شيئاً قياً عن حياة فيلسوفنا أثناء تقلده الوزارة ، كما لا نعرف شيئاً ما عن حكومة الفيلسوف : هل حاولت أن تحقق أنظار الفارابي في « المدينة الفاضلة » أم أنها سارت على أسلوب الحكم المعروف آنئذ ؟ على أن التاريخ سجل للأحداث الشاذة لا الحوادث المضطردة ، فلو أن الفيلسوف شذ في أسلوب حكمه عن الأساليب المعروفة آنئذ لما نسى التاريخ أن يسجل له هذا الشذوذ .

ويصف لنا نظام عروضي السمرقندي في القصة الثامنة والثلاثين أسلوب حياة الوزير اليومية ، فيقول : « وكان أبو علي بن سينا في ذلك العهد وزيراً ، وكان ملك الملوك شاهنشاه علاء الدولة محمد بن دشمنزيار يحله كثيراً فألقى مقاليد الأمور بين يديه ووكّل كل شيء إلى حكمته ، ولم يكن منذ الاسكندر الأكبر الذي كان أرسططاليس وزيره ملك استوزر أحداً مثل أبي علي . وحين كان وزيراً كان يستيقظ كل يوم قبل الفجر ليكتب بضع صحيف من الشقاء ، وعند الفجر يستقبل تلاميذه وهم : بهمنيار كياريس ، وأبو منصور بن زبلا ، وعبد الواحد الجوزجاني ، وسليمان الدمشقي ، وأنا أبو كالجار (راوى هذه القصة) . وكنا نتلقى عليه العلم حتى يصبح الصبح »^(٢) حتى كتب تاريخ الوزارات ككتابي الصابي والجهشيارى قد صمعا عن وزارة أبي علي بن سينا صمتاً تاماً

فيمصلي بنا إماماً . وعند ما يخرج كان يلتقانا بالباب ألف من الفرسان بينهم وجوه الدولة وأعيانها وأصحاب الحاجات ، فيركب الوزير فرسه وتبعه هذه الحاشية حتى أبواب ديوانه ويبقى الوزير في الديوان حتى الظهر ثم يعود ، وكان يتناول الغداء على مائدة خاتى كثير ، وكان يتقبل قبايلته ثم يستيقظ ليؤدى صلاة العصر ، ويلزم الأمير بعد ذلك ويتحدث وإياه حتى بعد صلاة المغرب ؛ ولم يكن يتدخل بينه وبين الأمير في الشئون الخاصة بالدولة شخص ثالث ... (١) . ورغم أن هذه الرواية تصور لنا أسلوب حياة وزيرنا اليومية فإنها محشوة بالخلط والأغلاط ؛ فحين تذكر لنا أنه كان وزيراً لعلاء الدولة ، والواقع أن علاء الدولة لم يكن بهمدان ولم يستوزر فيلسوفنا وإنما كان الفيلسوف وزيراً لشمس الدولة . وهذا وبينما تقول هذه الرواية إن الفيلسوف كان يلتقى دروسه صباحاً إذ بنا نجد البيهقي يقول : « فكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم وأبو عبيد [الجوزجاني] يقرأ من كتاب الشفاء نوبة ، ويقرأ المعصومي من القانون نوبة ، وابن زبلا يقرأ من الإشارات نوبة ، وبهمينار يقرأ من الحاصل والمحصل نوبة » . (٢)

ولا يسلم هذا النص من التخرج أيضاً ، فإنه يشير إلى أن ابن زبلا كان يقرأ الإشارات وهذا قول باطل على ما يظهر ، لأن كتاب الشفاء لم يكن قد تم بعد ، ولم يكن قد شرع في كتابة « النجاة » ، فكيف بتأليفه يقرأ من كتاب صنف بعد الشفاء والنجاة ؟ ذلك لأن الإشارات كما يقول ابن أبي أصيبعة : « هي آخر ما صنف في الحكمة » (٣) ، ويؤخذ مثل هذا المعنى من كلام ابن سينا نفسه في بعض رسائله . كذلك يشير النص الأخير إلى أن بهمنيار كان يقرأ « الحاصل والمحصل » ، وهذا الكتاب — كما تقدم في المقال الثاني (٤) — صنفه فيلسوفنا ببخارى لأبي بكر البرقي كما صنف له « البر والاثم » ، وقد قال ابن سينا عن هذين الكتابين : « لا يوجدان إلا عنده (أى البرقي) فلم يعرفهما أحداً ينتسخ منها » ، (٥) ومالا يوجد إلا لدى البرقي ببخارى لا يمكن طبعاً أن يقع بين يدي بهمنيار بهمدان .

ولعل الذي يصحح روايتي السمرقندي والبيهقي قول الففطى : « وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم ، وكنت (٦) أقرأ من الشفاء نوبة وكان يقرأ غيرى من القانون نوبة (٧) » . تلك صورة من حياة الفيلسوف الوزير ؛ ولما أن أقيل من وزارته — وكان ذلك (كما رأينا) قبل عام ٤١١ هـ — ظل حفيظاً على ولائه للأمر شمس الدولة وندماً من ندمائه . ولما أن توفي

(١) السمرقندي : المقالات الاربع . الترجمة الانجليزية ص ٩٢ ، القصة ٣٨

(٢) البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام . ص ٣٣

(٣) ابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٩

(٤) مجلة المعرفة : عدد اغسطس سنة ١٩٣٣ ص ٢٨٥

(٥) الففطى : تاريخ الحكماء ص ١٧٤

(٦) أي الجوزجاني

(٧) الففطى : تاريخ الحكماء ص ٤٢٠

شمس الدولة عام ٤١٢ هـ طالب الجنود إلى الأمير الجديد سماء الدولة بن شمس الدولة استوزار أبي علي بن سينا فأبى عليهم الأمير ذلك ، فاستاء الفيلسوف من سماء الدولة ونحوه وأصبحت الحياة عبثاً ثقيلًا على نفسه بهمدان ، وفكر في أن يخرج منها إلى أصفهان عاصمة الدولة أبي جعفر بن كا كويه ، فاحتجب في دار رجل من أعيان همدان يقال له أبو غالب المطارز من أطول بلادهم اشتغلا بالتأليف ، وهناك في هذه الدار آتم ابن سينا معظم أجزاء أكبر موسوعة فلسفية في الإسلام ، ألا وهي كتاب «الشفاء» الذي يقع في ثمانية عشر مجلداً ، على أن شغله الشاغل آنئذ كان التحاقه ببلاط أصفهان ، ولذلك فقد كان يكتب سرّاً الأمير علاء الدولة بطاب خدمته والمسير إليه . ولسوء حظ الفيلسوف أن أمارت تاج الملك وزير سماء الدولة اللثام عن أمر تلك المكتاتبة فألقى عليه القبض واعتقله بقلعة فردجان^(١) ومعه شقيقه محمود وتلاميذه الجوزجاني ، وفي هذه القلعة أنشأ قصيدة منها :

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

ولقد أوقف الفيلسوف السجين حياته للتأمل والتأليف : فنصف فردجان أولى رسائله الرمزية في الفلسفة ، ألا وهي «حي بن يقظان» ، ونصف بها كتاب «الأدوية القلبية» ، وكتاب «الهداية» وغير ذلك من المؤلفات . وبقي بهذه القلعة محبوساً أربعة شهور نشبت في أثناءها حرب بين علاء الدولة وسماء الدولة انهزم فيها الأخير ، وعند عودته إلى همدان من بقلعة فردجان فأخذ الفيلسوف معه إلى عاصمته ، ونزل الفيلسوف هذه المرة بدار رجل يقال له «العلوي» وتظاهر بالاعتكاف للعلم والتصنيف ، على حين كان يعددته للانتقال من همدان ، ولم يزل مكنه في هذه الدار إذ انسل متنكراً في زي الصوفية بصحبة أخيه محمود وتلاميذه الجوزجاني وغلامين يقومان بخدمته ميمها شطر أصفهان عاصمة علاء الدولة ، ويظهر أن انسلاله ذلك إنما كان في عين السنة التي حبس فيها بفردجان والتي نشبت في أثناءها الحرب — التي تقدم ذكرها — بين أمير كا أصن ، وفهان وهذامات هذه الحرب قد وقعت عام ٤١٤ هـ كما جاء في كتاب «الكامل» لابن الأثير في أخبار تلك السنة ، فإننا نرجح أن آخر عهد فيلسوفنا بهمدان إنما كان هذا العام . ولا شك أن أسعد أيام حياته إنما رآها بهمدان ، ولكنه رأى فيها أيضاً آتس أيام الحياة ، حين عبس الزمان في وجهه وألقاه بفردجان سجيناً . ومؤلفاته بهمدان كثيرة مهمة خطيرة بقدر ما كان خطيراً في الدولة : ذلك لأنه أتم بها «القانون» عمدة الطب في القرون الوسطى شرقاً وغرباً ، ووضع برنامج الشفاء وحقق منه أعظم أجزاءه ، وكتب تلك الرسائل التي تتناف إلى حين كان بفردجان ، ولعل من أهم كتبه بهمدان كتاب في الاقتصاد السياسي وفن السياسة لم يبق لنا منه غير اسمه وهو «تدبير الجند والممالك والعساكر وأرزاقهم وخراج الممالك» ، ويقيم من العنوان أنه كتاب أملمته عليه التجارب الوزارية.

(١) يقول ابن الأثير : «فردجان على بعد خمسة عشر فرسخاً من همدان» الكامل . ج ٦ ص ٢٨٥ طبعة ابوابور

حياته في أصفهان

لقد قضى أبو علي بن سينا أربع عشرة من السنين في كنف علاء الدولة بأصفهان، ومع ذلك لم يبق لنا من أخباره في أثناءها غير نذر يسير من القصص التي لا تملأ هذا الفراغ الواسع من الزمان. ولعل الأمير الوحيد الذي اتصل به فيلسوفنا بسبب آخر غير الطب هو علاء الدولة أمير أصفهان، فلقد كان هذا الأمير ميالاً بطبعه إلى العلوم العقلية محباً للفلاسفة، ولقد اتهم بسبب ذلك في عقيدته الدينية، قال ابن الأثير: «وكان ابن سينا يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كا كويه، ولا شك أن أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد، فلماذا أقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد والرد على الشرائع في بلدته»^(١). ولعل مما شجع ابن سينا على الاتصال بعلاء الدولة أن هذا الأمير كان الوحيد الذي يستطيع أن يحتسب به ابن سينا من أي اعتداء كان قد يصيبه من السلطان محمود بن سبكتكين الذي استنحل أمره إذ ذاك وصار سيد ملوك فارس ومطوح عروشها. قال البيهقي مشيراً إلى تكافؤ أميرى أصفهان وغزنة: «وكان السلطان محمود وابنه مسعود لا يعدان واحداً من الملوك من أقرانها وخصماً لها سوى علاء الدولة أبي جعفر بن كا كويه»^(٢). ولقد اشترك ابن سينا في الخصومة التي كانت بين أميرى أصفهان وغزنة — عند ما كان أمير هذه الأخيرة هو السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين — بما يمكن لمثله أن يشترك به، ذلك لأنه عندما انتصر السلطان مسعود في حروبه على علاء الدولة ودخل أصفهان أسر أخت علاء الدولة وحملها معه إلى غزنة ليرغم أهلها على تسليم ولاية من ممتلكاته فدية لها. وهنا يتدخل الفيلسوف في الأمر فيجعله بما أوتي من ذكاء وفطنة، فيكتب إلى السلطان مسعود ويقول له: إن تزوجت بهذه المرأة يسلم علاء الدولة إليك الولاية. فتزوجها سلطان غزنة ثم طالب أمير أصفهان بالبر بالوعد أو أن يسلم أخته إلى عساكره يعتدون عليها. فيكتب ابن سينا إلى سلطان غزنة يقول: «إن كانت أخت علاء الدولة فهي زوجتك، وإن طلقها فهي مطلقتك، والغيرة على الأزواج لا على الإخوة»^(٣)، فأنف السلطان من ذلك ورد أخت علاء الدولة عليه. ويرى البيهقي أن علاء الدولة أهدى ذات مرة منطقة مفضضة بسكاكينها لأبي علي، ثم رآها فيما بعد لدى غلام من غلمان الفيلسوف، فغضب على تفريط أبي علي في هديته غضباً شديداً وأمر بقتله بعد أن صدكه بكفه، ففر أبو علي إلى الري في زى المتصوفة وليس معه شيء ينفعه على نفسه، ودخل السوق باحثاً عن أروج حرفة يمكن أن يتخذها لنفسه، فبعد بحث وتفقد وقع بصره على شاب رقاء يعرف الحكايات والتنجيم يحيط به خلق كثير بينهم امرأة تطلعه على تفسره،^(٤)

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٦ أخبار سنة ٤٢٨ هـ.

(٢) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ص ٣٥.

(٣) البيهقي: تاريخ حكماء الإسلام ص ٣٧-٣٨، والشهرزوري: تاريخ الحكماء ص ٢٢٩.

(٤) هكذا في الأصل. في أصل العرب وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسره.

فقال لها الرقاء: أليست تقسرة يهودى؟ قالت: هو كما تقول. قال: وقد تناول رأيباً! قالت: نعم، فقال: داركم فى موضع منخفضة فى المدينة! قالت: صدقت، فتعجب ابن سينا من أمر ذلك الرقاء، فلما أن نظر الرقاء إلى وجهه قال له: إنك أبو على بن سينا الفيلسوف، فاستولى الذهول عليه من شدة العجب، ولما فرغ الرقاء من عمله سأله الفيلسوف عن أمر التقسرة وكيف عرفها، فنظر إليه الرقاء وقال: عرفت أنها تقسرة يهودى لأنى رأيت فى يدها قميصاً عليه غبار اليهود، ورأيتهم ملوثاً بشئ من الرأيب فحدست أنه تناول منه شيئاً، واليهود جميعاً يسكنون الجانب المنخفض من المدينة، فعرفت بذلك أين تكون دارها. قال له ابن سينا: وكيف عرفتنى؟ قال: كنت أستمع بحبالك وحسن هيئتك وفطانتك، فلما رأيتك حدست أنك ابن سينا هربت من علاء الدولة، وإنى لأعرف أنه يزول غضبه عليك ويشتاق إلى منادمتك: فرجأى إليك أن تنص على الأمير أمرى لعله يستظرفنى للمنادمة أيضاً. وبعد مئى أيام قلائل عفا الأمير عن نديمه الفار واسترجعه وخطب عليه، فقص ابن سينا عليه قصة ذلك الرقاء، فارتضاد الأمير وصار ذلك الرقاء من ندمائه. لا نستطيع أن نحدد نصيب هذا القصة من الصحة: لأن القصص التى تنتحل على العقلاء أكثر مما لهم فى الحقيقة، ثم لأن فى هذه القصة بالذات تبدو الصنعة القصصية ظاهرة جليلة، إلا أننا نستطيع أن نستشف من ثناياها بعض الشيء عن مقام الفيلسوف فى المجتمع الذى كان يعيش فيه، وعمما كان يتمتع به من شهرة ذائعة وصيت بعيد.

ويخطئ صاحب «المقالات الأربع» فيقول فى القصة النامنة والثلاثين راوياً عن تلميذ من تلاميذ الفيلسوف: هو أبو كالجار: إن ابن سينا كان وزيراً لعلاء الدولة بالرى، وفى هذه الرواية خطأ بين، فأولاً لم يكن قطعاً لعلاء الدولة أميراً بالرى، وثانياً لم يروا لصق الناس به إلا وهو الجوزجاني. أن أستاذة كان وزيراً لعلاء الدولة كما كان وزيراً لشمس الدولة بهزدان، وكل ما يعرف عن صلة الفيلسوف بعلاء الدولة أنه كان نديماً للأمير، بل أخص ندمائه الذين يلزمونه فى السلم وفى الحرب، وكان حين تنعقد مجالس النظر بين يدي أميره الشخص المتقدم على جميع العلماء، يقول البيهقى واصفاً ابن سينا فى مجالس العلم بحضرة علاء الدولة: «وكان أبو على يحضر مجالس علاء الدولة وعليه قباء دارى وشماعة خيش وخف أديم، ويجلس بين يديه قريباً منه... فإذا تكلم بين يديه استمع أهل المجلس لا ينبسون بحرف»^(١).

أما من الوجهة العلمية فقد كانت حياة الفيلسوف بأصفهان زاخرة مليئة بالتجديد، فقد أعاد دراسة اللغة العربية وآدابها وحرف فى ذلك زهاء الثلاث سنين، وقد مارس عملياً علم الفلك وقام بأرصاد مختلفة، وذلك لأن علاء الدولة عنى بإصلاح الخلال الواقع فى التقاويم القديمة، فأطلق لآبى على من الأموال ما يحتاج إليه، فأخذ هذا يعمل ثمانى سنين بمعونة تلميذه الجوزجاني فى إصلاح تلك التقاويم، واخترع لذلك آلات واحدة لم يسبقه أحد إلى مثلها، وولى تلميذه

الجوزجاني إدارة تلك الآلات واستخدام صناعاتها ، ويشير الجوزجاني إلى أن رصده هذا وقع فيه خلل أيضاً ، وعزى ذلك إلى كثرة أسفار الفيلسوف بصحبة علاء الدولة في حروبه الكثيرة . وفي غير اللغة والفلك اشتغل ابن سينا بالفلسفة أيضاً ؛ فأنتم بأصفهان كتابه المسمى «الشفاء» ، وكتب له ملخصاً هو «النجاة» . قال عنه الجوزجاني : « صنفه في الطريق في السنة التي توجه فيها علاء الدولة إلى سابور خواست [أي سنة ٤١٨ هـ كما جاء في ابن الأثير] ^(١) ، وكتب بعد ذلك كتابه المشهور باسم «الإشارات والتنبيهات» ، وصنف أيضاً كتابه «الانصاف» في الفلسفة ، وكان يقع في عشرين مجلدة ، قال عنه ابن أبي أصيبعة : « شرح فيه كتب أرسطو وأنصف فيه بين المشرقيين والمغربيين ضاع في نهب السلطان مسعود ^(٢) » ، كذلك صنف لعلاء الدولة أهم كتبه المكتوبة بالفارسية « دانش نامه العلائي » ^(٣) وقد يكون هذا الكتاب أول مصنف في الفلسفة باللغة الفارسية ، ولا شك أن لفيلسوف بأصفهان - غير تلك الكتب - رسائل هامة في مختلف العلوم ، ويمكن مراجعة ذلك في ثبت آثاره العلمية التي ستحدث عنها في مقال آخر .

وفاته

بعد هذه الحياة الحافلة الجليدة المضطربة أخذت شمس حياته التي تألقت في سماء فارس ثمانى وخمسين سنة تنحدر بسرعة نحو مغربها ، فلقد مرض بالقولنج وهو بصحبة علاء الدولة عند خروجه لمحاربة تاش فراش ، وتقول الروايات العربية إنه لشدة حرصه على برئته خشية من هزيمة يدفع إليها ولا يستطيع المسير فيها مع المرض - حقن نفسه في يوم واحد ثمانى مرات ، فتقرحت بعض أمعائه وظهر به سحج ^(٤) ، ثم ظهر به الصرع الذي يتبع عادة القولنج ، فظل يدير أمر جسمه بخبرته وطبه ، فأمر طبيبه باتخاذ داتقين من بذر الكرفس في جملة ما يحقن به طلباً لكسر ريح القولنج ، فأخطأ الطبيب إذ وضع من ذلك البذر خمسة دراهم فازداد المرض حدة . يقول الجوزجاني : « لست أدري أعمداً فعل ذلك أم خطأ ، لأنني لم أكن معه ، وكان يتناول دواء المتروديطوس لأجل الصرع ، فطرح بعض خدمه شيئاً كثيراً من الأفيون فيه وناولوه إياه يريدون إهلاكه ، وسبب ذلك أنهم خانوه في أموال كثيرة اختلسوها من خزانته ولم يجدوا وسيلة إلى إخفاء الجريمة غير وفاته » .

قل الفيلسوف وهو على هذه الحال إلى أصفهان حيث نشط في معالجة نفسه حتى قدر على المشي وأخذ يحضر مجلس علاء الدولة ، وهو مع ذلك كثير الخلط في أمر المعالجة ^(٥) فلم يبرأ من علته تمام البرء ، فكان ينتكس ويبرأ بين حين وآخر .

(١) ابن الأثير - الكامل : أخبار سنة ٤١٨ هـ (٢) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ - ص ١٨
(٣) طبع هذا الكتاب بميدان آباد الدكن بالهند سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١ - ١٨٩٢ م) (٤) السحج : الخدش
(٥) « المعالجة » في أكثر النسخ : في أمر « الجماعة » ، إلا البهقي الذي يقول المعالجة ، وهذا القول أقرب إلى الصحة للقربة : فن التخليط لا يكون إلا في الأدوية اللازمة للمعالجة .

ولما قصد علاء الدولة إلى همدان - لحرب نشبت بينه وبين أميرها - صحبه الفيلسوف في رحلته؛ وهنا عاود المرض الفيلسوف في الطريق فضعف جسمه وخارت قوته ويئس من الشفاء فأهمل العلاج وأخذ يقول: « المدبر الذي كان يدبر بدني قد عجز عن التدبير، والآل فلا تنفع المعالجة »؛ ولبت على هذه الحال أياما معدودات، ثم انتقل إلى جوار ربه، ويتفق الرواة جميعاً على أن وفاته إنما كانت بسبب هذا المرض؛ إلا رواية يذكرها ابن خلكان وينسبها للشيخ كمال الدين بن يونس الذي يذهب إلى أن مخدم الفيلسوف (وهو علاء الدولة) غضب عليه فاعتقله قات في السجن وهو يمشد:

رأيت ابن سينا يعادى الرجال وبالحبس مات أخس المات
فلم يشف ما ناله بالشفاء ولم ينج من موته بالنجاة

وبطلان هذه الرواية مما لا مجال للشك فيه: ذلك لأن الجوزجاني ينسب هذين البيتين إلى رجل من معاصري الفيلسوف لا إليه نفسه، ولعل قصة غضب الأمير عليه واعتقاله في سجن؛ ووفاته بذلك السجن إنما تولدت في خيال الشيخ كمال الدين بن يونس من تورية في البيت الأول؛ إذ أن لفظ « الحبس » يعنى السجن؛ ويعنى أيضاً انحباس البطن من القولنج، وتفسير اللفظ بالمعنى الأول جائز؛ إلا أنه ليس أقرب إلى الواقع من تفسيره بمعناه الثانى.

أما موضع وفاته ووقتها فيذكر الجوزجاني أنه توفى بهمدان وقبره تحت السور من جانب القبلة، وذلك في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وي زيد البيهقي على ذلك أن وفاته كانت في الجمعة الأولى من رمضان من تلك السنة.

وهناك رواية ثانية هي رواية عز الدين أبى الحسن على بن الأثير الذي يقول: إنه توفى بأصفهان - لا بهمدان - وذلك في نفس العام المذكور ولكن في تاريخ أسبق؛ قال: « وفي شعبان توفى أبو على بن سينا الحكيم الفيلسوف المشهور صاحب التصانيف السائرة على مذاهب الفلاسفة وكان موته بأصفهان »^(١). وهناك رواية ثالثة تتوسط بين الروایتين السالفتين فتقول إنه توفى بعيداً عن أصفهان ثم نقل إليها فيما بعد ودفن في موضع بقرب باب كونسكند، وترد هذه الرواية في « طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة »^(٢).

إلا أن ابن خلكان يرجح الرواية الأولى ويغلبها ويقول إنها الأشهر، وهي تتمشى في الحقيقة مع منطق الحوادث التي ذكرها الجوزجاني عن حياة أستاذه الأخيرة عند ما يشير إلى أنه توفى لما كان يسير بصحبة أميره إلى همدان بمناسبة حرب نشبت عام ٤٢٨ هـ.

اضطراب في الحياة واضطراب في المات ١ أو ليس من سخرية القدر أن يكون قبر أعظم من أنجبهم فارس وأشهر أعلامها مجهولاً منذ القرون الأولى؟

محمد ثابت الهندى

[لبحث بقية]

(١) ابن لاثير الكامل، ج ٦ - شوال سنة ٤٨٠ هـ (٢) ابن أبى حنيفة طبقات الأطباء ج ٢، ص ١٢

هل رمت غيرى زوجة؟

للاشاعرة المصرية الجميلة السيدة منيرة توفيق

يسرنا أن تقدم إلى قراء « المعرفة » استمجايداً لم يسبق أن طرق الاستماع كثيراً ، ولكنه جدير بأن تعينه الآذان ، وأن يجرى على كل شفة ولسان ، وأن تكشف في سماء الأدب عن كوكب لم يلمح قبل الآن ، ولا سبق أن سمع به إنسان ، تلك هى الشاعرة الملهمة السيدة منيرة توفيق كريمة المرحوم مصطفى بك توفيق كبير الشرط (حكمدار) بمديرية الشرقية ، وزوجة حضرة الفاضل رشدى افندى ماهر مأمور بندر الزقازيق .

وقد أرسلت القصيدة التالية التى عاتبت فيها قرينها المفضل على ماتخيلته أنه عازم على زواج أخرى ، فرأينا إثباتها هنا ، لما فيها من الروعة والعبرة ، وحتى يعلم الناس من جهة أخرى أن أفق مصر مازال بحمد الله تزينه نجوم الأدب من الشاعرات بعد عائشة التيمورية وملك ناصف . قالت الشاعرة منيرة توفيق :

طال السهادُ وأرقت	عينى الكوارث والنوازل
لما جفانى من أحـ	ب وراح تشغله الشواغل
وطوى صحيفة حُبنا	وأصاخ سمعاً للعواذل
يأليها الزوج الكـريـم	وأليها الحُب المواصل
مالى أراك معاندى ؟	ومعذنى من غير طائل ؟
لم ترع لى صلة الهوى	وهجرتنى ، والهجر قاتل
هل رمت أن تغدو طليـ	قاً ، لا يحول هو الكـحائل ؟
أم رمت غيرى زوجة ؟	يالأسى مما تحاول !
إن تبغ مالا فالذى	تدريه أن المال زائل
أو تبغ أصلا فالتى	قاطعتها بنت الأماثل
أو تبغ حسناً فالحا	سن جمّة عندى مواثل
أو تبغ آداباً فأشـ	عارى على أدبى دلائل

أنا ما حفظت سوى الوفا
وأنا وبى شرف العفا
فجزيتنى شرّ الجزا
أنسيت عهداً قد مضى
أيام تبذل من وسا
وتبت معسول المنى
ولبت تغرينى بما
خسبت أن الدهر أذ
ظناً بأنك لم تكن
ماذا جرى فهجرتنى ؟
عاشت أهل السوء فاة
ومضيت تطلب بينهم
ورضيت هجر حليلة
والله ما فكرت يو
وجفوت يا قاسى الطبا
فاعلم بأنك قاتلى
أين المسائل والموا
أين المودة فى الهوى
أين الحديث العذب من
إنى أسائل أين عهدك
أدريت ما فعل النوى
فاربأ بنفسك وانها
ء ولا ادخرت سوى الفضائل
ف أعد مفخرة المنازل
ء وكنت فيه غير عادل
حلوا التواصل والتراسل ؟
ئل أو تنعق من رسائل
وتمد أسباب التحايل
تبديه من غر الشمايل ؟
صفى، وأن السعد مائل
لا بالعقوق ولا المحتال
والحب شيمته التساهل
تنصوك فى شر الحبايل
عيش المقيد بالسلاسل
لما نزل خير الخلايل
مأ فى جفاك ولم أحاول
ع، ولم تدار ولم تجامل
والموت فيما أنت فاعل
صل فى العشى وفى الأصائل ؟
بينى وبينك بالتبادل ؟
ك وأين ولى سحر بابل ؟
فى الهوى إنى أسائل
بى من ضنى أم أنت ذاهل
وارجع إلى زين العقائل

الأدب العربي كأدب عالمي

للأستاذ محمد علي إمام الحان

أتحدث عن الأدب العربي كأدب مصور للعواطف البشرية المشتركة، صادق في تصوير هذه العواطف : ذلك الأدب الذي يتجرد من الأوضاع والأوساط المحلية ويتسامى إلى بحث العواطف الإنسانية التي لا يحدها تقسيم أثروبولوجي أو فاصل وضعي . وإذن فالجزء النفسي الخالد هو حجر الزاوية في بناية الأدب العالمي : ذلك لأن الإنسانية متشابهة في إحساساتها وميولها . فالحب عاطفة تجاشة تغزو قلوب الشرقيين كما تغزو قلوب الغربيين ؛ والاحسان عاطفة تفيض بها نفوس الشرقيين كما تفيض بها نفوس الغربيين . وهنا مسألة أحب أن أقف عندها قليلا .

قد يقوم الأثر الأدبي على العنصر الديني Element Religieux كما نجد في شعر حسان بن ثابت، وكما نجد في رسالة الغفران لأبي العلاء والكوميديا الإلهية لدانتى والفردوس للمilton . وقد يقوم الأثر الأدبي على العنصر الحماسي Element Heroique كما نجد في شعر المتنبي والبارودي وكما نجد في « الألياذة » لهوميروس . وقد يقوم الأثر الأدبي على العنصر العلمي Element Scientifique كما نجد في مخلفات الجاحظ وابن سينا ، وكما نجد في قصص « Jule verne » وهي قصص كانت تدور على اكتشافات غامضة ظهرت فيما بعد ، وكأن الكاتب هو المكتشف لها، وكما نجد في مذكرات « شلوك هولمز » الأسس الأولى للشرطة العلمية Police Scientifique لوضعها كونان دويل Conan Doyles

وقد يقوم الأثر الأدبي على وصف محلي للطبيعة Soeale كما نجد في القصيدة السينية للبحترى في وصف قصور كسرى أنو شروان ، ورواية « زينب » للدكتور هيكل ، ورواية سلمى لمدام أمي خير ، وكما نجد في قصيدة « البحيرة » للامرتين . وفي رأي أن هذه الآثار كلها أدب عالمي مادامت الفكرة الإنسانية تكمن في أطوائها، وما دامت العاطفة البشرية لمعب دورها فيها . والأدب العربي - من هذه الناحية - أدب عالمي ، والمقام لا يتسع هنا للإشهاد والتدليل ، فمن شاء فليرجع إلى الآثار الأدبية يجد فيها حاجته ويقضى منها لباقته .

أنتهى من هذا فأتحدث عن الجانب الآخر للموضوع ، عن الأدب العربي كأدب له حيويته وقوته، أتحدث عن الأدب العربي القديم وأوازنه بالأدب التي عاصرتة . وأتحدث عن الأدب العربي الحديث وأوازنه بالأدب التي تعاصره :

الأدب التي عاصرت الأدب العربي القديم ننتظم أربعة آداب : الأدب اليوناني القديم ، الأدب الروماني القديم ، والأدب الفارسي القديم ، والأدب الهندي القديم .

يطلق بعض العلماء — المتوفرين على دراسة الآداب القديمة — على الأدب الجاهلي، أدب البساطة والسذاجة، بل يذهبون إلى أكثر من هذا فيشبهونه بأدب الزوج الذين يعيشون في أفريقيا والهنود الحمر الذين يعيشون في أمريكا.

فالعرب — عند هؤلاء — قد بعثت بهم مواطنهم عن سيول الأمم المهاجرة والدول الغازية، واعتزلت عن سائر الأمم بعض الاعتزال بالصحارى والبحار، فهم لذلك أدنى إلى البداوة منهم إلى الحضارة، وثم لم يكن أديبهم وليد الدرس والتعلم، ولا سليل أعمال الفكر والتعمق في التخيل بل نتيجة طبيعة دراكة وفطرة حساسة ونفوس ذكية نظرت فألهمت فنطقت في غير تصنع ولا تكلف.

لكن التاريخ يحدثنا عن قيام مدنية باليمن، وآثار اليمن القائمة إلى اليوم وما رواه المؤرخون عن قصورها ومصانعها وعن سد مأرب وأمثاله، كل ذلك يشهد بما كان في اليمن من عمران. كذلك يحدثنا عن أهل الحيرة وبنى غسان وعما كان بينهم وبين الفرس والرومان من حروب تستلزم حتما قيام مدنية لا يمثلها هذا الأدب الجاهلي. وسواء أخذنا بنظرية القائلين بتعميل هذا الأدب الجاهلي للعصر السابق للإسلام أم عدم تمثيله فليس هناك من شك في أن ما وصل إلينا من هذا الأدب قليل من كثير، وليس هناك من شك أيضاً في أن هذا القليل لا تعترف منه بكان هذا الأدب من الآداب الأخرى المعاصرة له.

جاء الإسلام وخرج العرب يحملون رسالتهم الدينية والخلقية، وصمدوا للجهاد والفتح في سبيل الله حتى أنشئوا ملكاً طبق الأرض، وما يكاد يستتب لهم الأمر حتى تسيطر هذه الرسالة العلمية، وحتى يقلص نل الرسائل التي سبقتها.

وهنا نجد ظاهرة غريبة. القرآن هو كلام الله، أنزله على رسوله، يتلقاه المسامعون قاطبة بالتجليل والاعتبار، وطبعي ألا يقبل الإسلام إلا ومعه اللغة العربية، تلك اللغة التي نزل بها القرآن وأرسل بها الرسول. وهنا أيضاً لا نجد لغة مقصورة أفهمها على عدد من العلماء كما كانت الحال في ديانة زرادشت Zoroastrian والديانة الهندية.

لم يثبت للأدب العربي — فيما أغار عليه شيء من الآداب الأخرى حتى البلاد التي لم تنجح لغتها الأولى، فقد بقيت اللغة الفارسية لغة التخاطب في هذه البلاد، ولكن اللغة العربية ظلت لغة الأدب والثقافة. كذلك لم يثبت للأدب العربي الأدب البربري على قوته، فقد ضعف وتضاءل حتى انحصر في بلاد الأمازيغيين والقسطنطينية وحل محله الأدب العربي في البلاد التي كان يسيطر عليها.

وعلى ذكر الأدب اليوناني يقول الأستاذ جيب في كتابه «تراث الإسلام»: «وإننا بين الأدب اليوناني والأدب العربي: «من أهم مميزات الأدب العربي والفارسي أنه عاطفي Romantic»

وأن الطالب الذي نشأ على حب المثل اليونانية في الأدب لن يجد في أدب العرب والفرس تلك الصفات التي امتاز بها أدب اليونان ، والتي هي السر في قوته الساحرة الباقية على مدى الزمان ؛ ويرغم ما فيه من قوة الصياغة فإن فيه جموداً ، وفي أدب اليونان تنوعاً ، وفيه إغراقاً ومبالغة وفي أدب اليونان شدة واتزاناً . وقد بلغ الكتاب اليونان واللاتين ما بلغوه من العظمة بتوخى البساطة والسهولة وعدم الاندفاع ، على حين أن الكتاب الشرقى ينسج آياته فيملؤها بالبديع الغامض من اللفظ ، ويلتمس لها الاستعارات والكنائيات البديعة الخلابة . واليوناني يؤثر في الفكر بواسطة الجمال الخالص ، أما العربي أو الفارسي فيؤثر في الحاسة وفي الخيال بما يأتي به من الألوان الساحرة . فالأستاذ جيب ينكر على الأدب العربي جموده وعدم تنوعه ووقوفه عند الأدب الرومانتيكي أي العاطفي ، وفي تعبير أدق وأوضح : ينكر عليه الشعر القصصي والشعر الغنائي والشعر التمثيلي ، كما نستبين ذلك من كتابه .

وردنا على ذلك أننا نجزم - في قوة وفي يقين - بوجود هذه الألوان من الأدب في الأدب العربي ؛ وإن اختلفت من حيث السكم في الأدبين ؛ فالشعر القصصي تلمسه في شعر المهمل والمهمل وعنترة وابن أبي ربيعة والنميري وغيرهم ، كذلك تلمسه في هذا الشعر الذي قيل في حرب البسوس وداحس والغبراء وسيف بن ذي يزن ، وما إلى هذا مما نبجده متفرقاً في كتاب الأغاني وغيره من الكتب العربية ، وأنت واجد جبهة كبيرة من الشعر التمثيلي أيضاً في الأدب العربي إذا حذف كلمة قلت وقالت أو قال من القصيد العربي . أليس شعر ابن أبي ربيعة - حين يقف في طريق الركب إلى الحجيج ، وحين يقف من صاحبه ، وحين تقف منه ، وحين يتجيب إليها ، وحين تتجنى عليه - شعراً تمثيلاً بكل ما في هذه الكلمة من مدلول ؟ أليس شعر امرئ القيس - حين ينفلت في ظلام الليل ويدخل على صاحبه فتأبى عليه ويلج عليها - شعراً تمثيلاً ؟

وفيم إنكار جيب على الأدب العربي خلوه من الشعر الغنائي ، والأدب العربي كله يمثل عواطف النفس وأهواءها ؟ وإذا كان الأمر كما يقول ، فإذا يرى فيما يتحدث به زهلاؤه من بني جنسه من أن العرب وأخلافهم قوم عاطفيون يسرون وراء العاطفة وأهواء النفس ؟ هذا تخبط واضطراب سن « جيب » ومن لف لفه في غير ما شك لا يبره ولا يفوقه إلا تخبطه واضطرابه حين يأخذ على الأدب العربي إغراقه ومبالغته واندفاعه .

فالأدب الحقيقي هو الأدب الذي يتجلى فيه الصدق والدقة الفنية ، وليس من الجائز مطلقاً - وفقاً للمنهج العلمي الحديث - أن تصدر حكمنا على الأدب العربي بما نشاهده في الأدب اليوناني ، بل يجب أن نحكم عليه وفق ميول أبنائه ، ووفق درجة نجاحه في التعبير عن أفكارهم وأخيلتهم وأغراضهم . فإن كان هناك ميل إلى الإغراق والاندفاع في طبيعة العربي ، فقد أدى الأدب العربي - كأدب حق - أمانته في دقة وفي صدق ؛ على أنني لا أرى فيما قالوه

إغراقاً واندفاعاً ، ولكن الإصراف بدا في آثار المقلدين من الشعراء غفاله هؤلاء إغراقاً واندفاعاً ، وإذن فلا مأخذ ولا قصور في الأدب العربي .

أما الرومان فلم يكن لهم إنتاج خاص يفخرون به إذا استثنينا القانون والتشريع ، أما أديبهم فقد كان صدى للأدب اليوناني ، وشعرهم التمثيلي ما كان ليذكر بجانب الشعر التمثيلي اليوناني ، وخطبائهم مقلدون ومحاكون لشيشرون الذي تهذب وتعلم بدوره على أفلاطون . أما الهنود فقد كانت لهم آداب واسعة هندوكية وبودية ، وكانت أديانها اللغات السكلاسيكية التي كان مقصوداً فهمها على طائفة بعينها من الناس . ولأنهم قوم مفكرون ، وفلاسفة بالسليقة ويرون أن التاريخ سلسلة وقائع ملموسة ، وهم لا يعنون بغير الروح ، وثمة لم يسيغوه مادامت هذه المادية لا تتفق وتلك الفلسفة ؛ لهذا لم يترك لنا التاريخ إلا القليل النادر من آثارهم الأدبية التي تمكننا من الحكم على مكانة هذه الآداب .

ترك لنا التاريخ - فيما ترك - كتاب الهنود المقدس «الفيدا» الذي تأثر به الأديب والفيلسوف الإسباني «سرفنتيس» مؤلف «دون كيشوت» ، وترك لنا أيضاً كتب «الأونشاد» الهندية التي يحدثنا عنها شوبنهاور بأنها دروس شائقة لها أثرها في ترقية الذهن البشري ، وبضع مؤلفات كرواية «شاكوتالا» التي وضعت قبل المسيح بزمان ليس باليسير ، ورواية «جيتا» التي لا تختلف كثيراً عن رواية «هوراس» من حيث تصوير الميول المختلفة ودقة هذا التعبير . ولكن هذه الآداب كانت من الضعف والخصف في دائرة ضيقة هي الوثنية ، بحيث إنها تلاشت في الجهات التي هيمن عليها الإسلام وخاصة في القرن الثالث عشر حينما توغل الأتراك المسلمون في فتوحاتهم في الهند .

ومها يكن من شيء ، فالأدب العربي القديم الذي أتحدث عنه أدب - لم يصب له أدب من الآداب التي عاصرتة حتى الأدب اليوناني أساس الآداب الأجنبية الحديثة ، والمنهل الذي روت منه واغتنت على حسابه كما يقول رجال الاقتصاد . وليس أدل على هذا الثبات من هذه الظاهرة الغربية : يغزو اليونان والرومان البلدان والأذهان بالسيف والحضارة والعلم ، ويغزو القرم البلدان والأذهان بالسيف والحضارة والعلم ، ويلبثون السنين الطوال يكتنون لأنفسهم ويطبعونهم بطابعهم حتى إذا ما وهنت الأيدي ودال السلطان تنكرت المعارف وعفت الآثار . وتدول دولة العرب ويتقلص ظل هذه الصولة ، فيظل الأدب العربي بحيث هو ، وتظل الثقافة العربية بحيث هي ، لا تؤثر فيهما عوادي الزمن ولا أحداثه .

وبينا البلاد التي يسيطر عليها الأدب العربي يغمرها العلم والثقافة إذا بالغرب يغمرها الجهل والامية ، وإذا بمدرسة تنشأ في أوائل القرن الثاني عشر يكون ههما ترجمة الكتب العربية ، فترجم كتب الرازي وأبي القاسم الزهراوى وابن سينا وابن رشد ، وترجم كتب أبقراط

وأفلاطون وأرسطو وإقليدس من العربية ، وتظل هذه الكتب موضعاً للبحث والدرس خمسة قرون أو تزيد في الجامعات الأوروبية .

إن هذه الخصومة القائمة حول الأدب العربي - قديمه وحديثه - يمثلها فريقان : فريق من أبناء الشعوب الموترين وتجار العقائد ، وفريق من أبناء العربية عاشوا حيناً من الزمن في الحى اللاتيني ومونبارناس ، وجاءوا يحملون إلينا قشوراً من الآداب الأجنبية ؛ ويحملون حتى هذه القشور المسطحية بلا فهم أو استيعاب ، ويدعون إليها وينتصرون لها في شيء من الغفلة غير قليل ، فهم لم يدرسوا الأدب العربي ، فإذا حاولوا درسه اقتصروا على بضع نماذج مدرسية قليلة لا تغنى ولا تفيد ، ثم خرجوا من هذه الدراسة يعضون من قدره ويستعدون الشباب عليه . أما الفريق الأول فلا أرى رداً أجمل ولا أقنع من أن أذكر له نبذاً مما قاله أبناء جنسه ، ومن أخلصوا للعلم والبحث والدرس :

يقول بترارك شاعر إيطاليا العظيم في القرن الرابع عشر : « ماذا ! ماذا ! أبعد ديويستين يستطيع شيشرون أن يكون خطيباً ؟؟ أو بعد هوميروس يستطيع فرجيل أن يكون شاعراً !! وبعد العرب يستطيع أحد أن يكتب ؟؟ »

« لقد ساوينا الاغريق غالباً وشأوناهم حيناً ، وإذا شأونا الاغريق فقل شأونا جميع الأمم ، ولكن ما عدا العرب ! يا للجنون ! يا للضلال ! يا للعبقريّة إيطاليا الراقدة الجامدة »^(١).

واسمعوا ما قاله المؤرخ الانجليزى ويلس : « هب العرب يظهرون ما خفى من مواهبهم فبهروا العالم بما أوتوه من معجزات العلم وتقخوا فيه من روحهم الحياة والقوة » إلى أن قال : « إن العلوم والآداب الحقيقية لم تدخل أوروبا إلا عن طريق العرب » . وانظروا إلى ما قاله المسيو لىبرى « Libri » : « مح العرب من التاريخ تتأخر نهضة الآداب في أوروبا قرونا طويلة » ، وكثير جداً مثل هذا ذكره الثقات والمنصفون من أبناء الغرب ، تضيق الصفحات عن ذكره .

وأما الفريق الآخر من أبناء العربية - وهو الفريق الساخط على أدب بنى جنسه المتبرم به - فأنا أرجوه وألح في الرجاء أن يدرس الأدب العربى دراسة تحليليلة عميقة وفقاً لمتهاج العلمى الحديث الذى درسه قبل أن يدرس الأدب الغربى الذى يتغنى به ، وأنا زعيم له بأنه سيجد في الأدب العربى مادة واسعة ومنهلاً ثراً لمن شاء الوقوف على أسرار الحياة وحقائقها . وإن لغة وأدبا - كما يقول شاعرنا مطران - جاء بهما كتاب الله لا يمكن أن يقال إنها لا يكونان أدبا عالمياً . أما الأدب العربى الحديث فأنا أرجىء الكلام عنه إلى مقال آخر إن شاء الله ما

محمد على إمام

« يجب على أن ألاحظ أنه بعد ملاحظتك المقذعة لست أستطيع أن أضيف جديداً ؟ » ، ثم انصرف خارجاً .

ذهب إلى منزله وهو يكاد لا يحس بالأرض التي يمشي عليها ، وكان الظلام قد أخرج سدوله وقد تبدى سكنه موحشاً مقبضاً على أثر هذه الجهود العظيمة التي بذلها ولم يوفق فيها ، ولقد رأى وهو ينسل إلى داره خادمه إيفان راقداً على سررده القدر وكان يبصق فوق البلاط ، فتقرز كوفاليوف وتميز غيظاً من قذارة خادمه حتى إنه صغعه على جبهته قائلاً : « أيها الخنزير ! أنت دائماً تفعل مثل هذا » فانتفض إيفان وهب واقفاً واندفع نحو سيده يعينه على خلع رداءه ، وعندما وجل المجاور باب حجرته - وكان مضى مهموماً - ألقي بنفسه على مقعد وثير ، وبعد ما تأوه مراراً قال :

« أي ربى ! أي إلهى ! لماذا حلت في هذه المصيبة ؟ لو أنى فقدت ذراعاً أو ساقاً لكان أهون على نفسى ، أما العيش بدون أنف فهذا يحلمنى غير معروف النوع : فليست سمكة ولا دجاجة ولا إنساناً ، ولست أصلح لشيء غير أن أقذف من نافذة بأعلى المنزل ، ولقد كنت أكون مرتاح الضمير لو أنه قطع في معركة حربية أو في مبارزة أو لو كان قد قطع بمحض إرادتى ، ولكن العجيب أنى فقدته بدون سبب أو حجة أو مبرر ، فقدته لغير ماسبب البتة » ، وأعقب ذلك صمتاً ثم قال : « مستحيل ! لا ! لا يصدق الإنسان العاقل أن أنفاً يستقيل من منصبه ويترك وظيفته ، هذا وهم باطل ، ربما أكون قد شربت بدلا من الماء قليلا من الفودكا التي أمسح بها ذقنى عقب الخلافة فبيأت لى الأمور على غير حقيقتها » .

ولكى يتحقق أنه ليس في حلم أخذ يقرص نفسه بشدة بالغة حتى صرخ متألماً ، ولقد أفنعه هذا الصراخ للمرة الأخيرة أنه كان في عالم الحقائق والوقائع لا في عالم الوهم والبطلان ، فاقترب بكل تودة واحتراس من المرأة ثم أخذ يخلس - في جين - نظرة واحدة منها ولكنه لم يعثر على صالته في موضعها الأصيل ، فراجع وهو يصيح : « أى صورة فكاشية هذا الوجه ! » .

وفي الحق لم يكن الأمر معقولا أو مقبولا ، ولو أن الذى ضاع كان زراً من أزرار المعطف أو ملعقة فضية أو ساءة أو ماشابه ذلك لكان أمراً مقبولا ، أما وقد ضاع الأنف فهذا غير مفهوم وبعد أن فكر في كل الظروف السابقة لفقدانه أنه وصل المجاور بتفكيره إلى أن أقرب ما يكون إلى الحقيقة أن الذى مهد السبيل لقرار الأنف هو ذلك الشخص الذى أراد أن يتزوج من ابنته وتلك هى مدام بودتاتشين ، وفي الحق كان كوفاليوف يحب أن يغازل ابنتها ، ولكنه كان دائماً يتجنب أن يعدها بخطبته لها ، وعندما كانت أمها تصارحه بأمر زواجه بابنتها كان كوفاليوف يتملص بدهاء منها ، وذلك بأن يكثر من تحياته لها وتشكراته ويقول له إنه مازال صغير السن وإنه يفضل أن يبقى خمس سنوات أخرى حتى يصير عمره اثنتين وأربعين سنة ، وإذن فقد تكون مدام بودتاتشين قد أصرت على سبيل الانتقام أن تشوه خلقته فأستأجرت لذلك الغرض ساحرة من سحرة الفلاحين . فرض كوفاليوف ذلك الفرض لأنه يستحيل أن الأنف يكون قد قطع بأى

« يجب على أن ألاحظ أنه بعد ملاحظتك المتدعة لست أستطيع أن أضيف جديداً ؟ » ، ثم انصرف خارجاً .

ذهب إلى منزله وهو يكاد لا يحس بالأرض التي عشى عليها ، وكان الظلام قد أرخى سدوله وقد تبدى سكنه موحشاً مقبضاً على أثر هذه الجهود العظيمة التي بذلها ولم يوفق فيها ، ولقد رأى وهو ينسل إلى داره خادمه إيفان راقيداً على مرقده القذر وكان يبصق فوق البلاط ، فقترز كوفاليوف وتميز غيظاً من قدارة خادمه حتى إنه صفعه على جبهته قائلاً : « أيها الخنزير ! أنت دائماً تفعل مثل هذا » فالتفتض إيفان وهب واقفاً واندهش نحو سيده يعينه على خلع رداءه ، وعندما ولىح المماجور باب حجرته - وكان مضمي مهووماً - ألقي بنفسه على مقعد وثير ، وبعد ما تأوه مراراً قال :

« أي ربي ! أي إلهي ! لماذا حلت في هذه المصيبة ؟ لو أنني فقدت ذراعاً أو ساقاً لكان أهون على نفسي ، أما العيش بدون أنف فهذا يحلمني غير معروف النوع : فليست سمكة ولا دجاجة ولا إنساناً ، ولست أصلح لشيء غير أن أقذف من نافذة بأعلى المنزل ، ولقد كنت أكون مرتاح الضمير لو أنه قطع في معركة حربية أو في مباراة أو لو كان قد قطع بمحض إرادتي ، ولكن العجيب أنني فقدته بدون سبب أو حجة أو مبرر ، فقدته لغير ما سبب البتة » ، وأعقب ذلك صمتاً ثم قال : « مستحيل ! لا ! لا يصدق الإنسان العاقل أن أنفاً يستميل من منصبه ويترك وظيفته ، هذا وهم باطل ، ربما أكون قد شربت بدلاً من الماء قليلاً من الفودكا التي أسمح بها ذاتي عقب الخلافة فهيات لي الأمور على غير حقيقتها » .

ولكي يتحقق أنه ليس في حلم أخذ يقرص نفسه بشدة بالغة حتى صرخ متألماً ، ولقد أقنعه هذا الصراخ للمرة الأخيرة أنه كان في عالم الحقائق والوقائع لا في عالم الوهم والبطلان ، فاقترب بكل تؤدة واحتراس من المرأة ثم أخذ يختلس - في جيب - نظرة واحدة منها ولكنه لم يعثر على ضالته في موضعها الأصيل ، فراجع وهو يصيح : « أي صورة فكاشية هذا الوجه ! » .

وفي الحق لم يكن الأمر معقولاً أو مقبولاً ، ولو أن الذي ضاع كان زراً من أزرار المعطف أو ملمعة فضية أو ساعة أو ماشابه ذلك لكان أمراً مقبولاً ، أما وقد ضاع الأنف فهذا غير مفهوم وبعد أن فكر في كل الظروف السابقة لفقدانه أنه وصل المماجور بتفكيره إلى أن أقرب ما يكون إلى الحقيقة أن الذي مهد السبيل لفرار الأنف هو ذلك الشخص الذي أراد أن يتزوج من ابنته وتلك هي مدام بودتاشين ، وفي الحق كان كوفاليوف يحب أن يغازل ابنتها ، ولكنه كان دائماً يتجنب أن يعدها بخطبته لها ، وعندما كانت أمها تصارحه بأمر زواجه بابنتها كان كوفاليوف يتملص بدهاء منها ، وذلك بأن يكثر من تحيائه لها ويشكراته ويقول إنه مازال صغير السن وإنه يفضل أن يبقى خمس سنوات أخرى حتى يصير عمره اثنتين وأربعين سنة ، وإذن فقد تكون مدام بودتاشين قد أصرت على سبيل الانتقام أن تشوه خلقته فأستأجرت لذلك الغرض ساحرة من سحرة الفلاحين . فرض كوفاليوف ذلك الفرض لأنه يستحيل أن الأنف يكون قد قطع بأي

وسيلة كانت ، ذلك لأنه لم يدخل عليه شئ حجرته أحد ما ، ولقد خلق له الخلاق إيفان باكو فلفتش في يوم الأربعاء ، وطوال الأربعاء ، بل حتى يوم الخميس كله كان الأنف ما يزال قابعا في موضعه ، هذا شئ يذكره كوفاليوف تمام الذكر ، وفوق هذا لو صح أنه اقتطع اقتطاعاً لشعر أولاً بالآلم ، ولما اندمل الجرح بهذه السرعة حتى صار وجهه كالقطيرة الطازجة . رسم كوفاليوف جملة خطط لمحاكمة مدام بودناتشين : فهو يتمكن أن يرفع عليها دعوى في المحكمة ، ويمكنه أن يذهب إليها بنفسه ويستقدمها معه ، ويمكنه غير ذلك ، وبينما هو كذلك إذ قطعت عليه أفكاره وخططه سلاسل الأضواء التي انبعثت خلال تقوب الباب منبئة بأن المصباح قد أشعل عند دخول خادمه إيفان ، وسرعان ما دخل إيفان وهو يحمل المصباح فأضاء الغرفة كلها ، وكانت أول حركة بدت من جانب كوفاليوف آنئذ هي أن يجذب منديل به بسرعة البرق ليحجب به الموضع الذي كان بالأمس يتحلى بالأنف ، حتى لا يتفرس خادمه الغبي في وجهه عند رؤيته له .

وقبل أن ينصرف الخادم إيفان إلى مضجعه سمع صوت شخص غير مألوف وهو يجتاز المدخل الخارج على حين كان يقول : « هل الماجور كوفاليوف هنا ؟ » ، فقال كوفاليوف : « نعم نعم ! إنه هنا » ، على حين كان مندفعاً بسرعة نحو الباب ليفتحه ، فدخل ضابط من ضباط البوليس حسن الهندام له شاربان متوسطا الطول والكثافة وخدان بارزان ، هو عين ذلك الشخص الذي استوقف الخلاق إيفان باكو فلفتش عند نهاية الكوبري كأمير في صدر القصة .

قال : « هل افتقدت أثناك ياسيدي ؟ »

« نعم » ، (بصوت منخفض حتى لا يسمعه خادمه)

« لقد وجد الآن » .

« ماذا تقول ؟ » ، قال الماجور ذلك وكان السرور قد حبس لسانه فلم يستطع إلا أن يحدق النظر بعينين متسمتين إلى ضابط البوليس الواقف أمامه الذي كان ينعكس على شفتيه ووجنتيه ضوء الشمعة الوضاء ، ثم قال : « وكيف ؟ »

« كان ذلك بمصادفة عجيبة ، فقد قبض عليه أثناء الطريق وهو ذاهب إلى ريفا ، وكان يحمل جواز سفر ، باسم مستعار على أنه موظف حكومي ، والعجيب أنني توهمته سيداً محترماً باديء ذي بدء ، ولكن لحسن الحظ كانت معي نظارتي التي مكنتني من أن أعرف أنه الأنف ، وأنت تعلم أنني قصير النظر حتى إنك لو وقفت أمامي ، فإني أشاهد فقط أن لك وجهاً ، ولكنني لا ألحظ أثناك ولا لحيتك ولا أي شئ آخر ، وهما لي لا ترى شيئاً أيضاً » .

وكان الفرخ قد سد على كوفاليوف كل مشاعره فقال بلهفة : أين ؟ أين ؟ دعني أعرف ذلك لألحق به الآن .

« لا تربك نفسك ؟ فلعلني بأنك في حاجة ماسة إليه قد أحضرته معي ، والشئ الغريب أن الشخص الذي أعانته على الفرار حلاق متشرد بشارع فورنسكي وهو الآن رهين الاعتقال ، وقد

اشتبعت فيه منذ زمن أنه سكير ولص ، وأول أمس فقط سرق حزمة من الأزرار من متجر عظيم هاك أنفك كما كان بالضبط من غير زيادة ولا نقصان ، قال ضابط البوليس ذلك على حين كان يخرج الأنف من جيبه . « هو ، هو ، بكل تأكيد ، من غير شك ، لا ريب ... يجب أن تناول معى هذا المساء ككوباً من الشاي » .

« يسرني ذلك كثيراً ولكننى قد لا أستطيع ذلك الآن ، إذ يجب على أن أتوجه إلى ملجأ الأحداث لقد صارت أثمان الحاجيات مرتفعة وعندى فى المنزل حاتى وأولادى وكبرهم سنّاً تبدو عليه ملامح النجابة ودلائل الأمن ، فهو ذكى جداً ولكن ليس لدينا مال يقوم بتربيته » ، قال ذلك ثم خرج . ولقد ظل كوفاليوف بعد خروج رجل البوليس فى حالة ذهول تام زمناً طويلاً ، ولما استعاد رشده تناول بغاية الاعتناء ذلك الأنف المعاد إليه بين كفيه وهو يلصقهما الواحد بالآخر ، وصار يفحص الأنف بانتباه وبقطة .

« نعم هو بعينه ، هو بكل تأكيد ، وهذا هو الدم الذى برز فى الجانب الأيسر أمس » . قال ذلك وهو فاغر فاه ضحكا وسروراً . ولكن ليس فى الوجود شىء يدوم طويلاً ، فان سرور كوفاليوف لم يكن عظيماً فى اللحظة التالية ، وفى اللحظة التى تلتها كان أقل أيضاً ، وأخيراً عاد إليه عبوسه الأول ، فقد كان كوفاليوف مثل المساء الذى ترسم على سطحه حلقات متعددة عند سقوط حجر فيه ، ثم لا يلبث أن يعود إلى حالته الأولى إذ تنبذ تلك الحلقات رويداً رويداً . ففكر كوفاليوف فوجد أن المشكلة لم تحل إلا جزئياً : الأنف قد وجد وأعيد إليه ، ولكن المهم أن يعاد إلى موضعه ، (وما قيمة ذلك إذا لم يثبت فى موضعه ؟) كذلك تسأل كوفاليوف فيما بينه وبين نفسه .

وأخيراً اندفع إلى المنضدة وأزاح المرأة إلى أعلى وأراد أن يحكم وضع الأنف فى وسط الوجه ، وكانت يداه ترتجفان ، ومع ذلك فقد وضعه فى موضعه الأول تماماً إلا أن الأنف لم يلبث فى مكانه قط ، فحاذاه بشفتيه وأخذ ينفخ فى باطنه بنفسه الحار عليه يدقاً فيقبل الالتصاق ، ثم أعاد وضعه إلى المكان الخالى بين خديه ولكن الأنف لم يلتصق ، فحاذاه قائلاً : « هلم هلم التصق أيها الجرم » إلا أن الأنف كان يبدو كأنه لوح من الخشب ، وسقط من يديه فوق المنضدة فانبعث من سقوطه صوت يشبه فرقة الزجاجة المسدودة عند فتحها ، فرفعه ثم قال : « يجوز أنه لا يثبت فى موضعه مرة ثانية » ، وكان كلما أعاده إلى موضعه يؤوب من التجربة بالفشل والخسران .

فاستدعى إليه خادمه إيفان وأوفده إلى طبيب كان يستأجر الدور الأول من نفس المنزل ، وكان الطبيب رجلاً ظريفاً وسيماً له شاربان أسودان وزوجة حديثة ، وكان يأكل التناح الطازج فى كل صباح ويحفظ فيه على الدوام نظيفاً ويمسحه كل صباح مستعملاً خمس فرجونات مختلفات ، وكان يستغرق فى مسحه نحو ثلاثة أرباع الساعة تقريباً ، وجاء هذا الطبيب فى الحال ، وفى حين كان يسأله الطبيب عن الوقت الذى أملت به هذه الملمة ، كان أيضاً يقبض على ذقن المماجور كوفاليوف

بيد ويلبس موضع الأنف بيده الأخرى ؛ فانتزع الماجور رأسه بسرعة حتى إنه ارتطم بالحائط فطمأنه الطبيب ونصحه بأن لا يجذب رأسه هكذا ، ثم طلب إليه أن يدير أولاً رأسه إلى اليمين ؛ وحين أداره لمس الطبيب الموضع الذى كان الأنف به فقال كوفاليف : « أوه أوه » ، ثم طلب إليه أن يدير رأسه إلى اليسار ففعل وللمس الطبيب فى موضع أنفه على كره منه ، وأخيراً تفرقه فى ذلك الموضع حتى إن كوفاليف جذب بسرعة البرق رأسه فارتطم ثانية بالحائط ، وبعد أن قام الطبيب بهذه المشاهد هز رأسه وقال :

« لا ، لا يمكن ، الأفضل لك أن تبقى على ما أنت عليه الآن ، إذ لو أعيد الأنف لصار وبالا عليك ، قد يمكن أن يرشق فى موضعه إلا أننى لا أستطيع ذلك فى الحال ؛ على أنى أوكد لك أن فى إعادته وبالا عليك » .

« جميل ما قلت ، لكن كيف أعيش بدون أنف ؟ ليس يمكن أن تكون الأمور شرّاً مماهى الآن ، لست أستطيع أن أطلع أحداً من الناس على شكلى وأنا بهذا الوجه السكارى كنورى ، لى صدقاء عديدون ؛ فمنذ اليوم كان ينبغي لى أن أكون فى حفلتين مسائيتين ، إذ أنا أعرف شخصيات بارزة كثيرة ؛ فأعرف مدام تشم تارف زوجة ذلك الضابط الخطير ، ومدام بود تاشين أرملة ضابط خطير آخر ولو أنها لعبت دوراً ضدى إلا أننى لن أمسها إلا عن طريق البوليس ، بربك أعنى على إعادته هلا توجد طرق لذلك ؟ وحتى لو لم يمكن تثبيته جيداً ، فأنا أقبل إلصاقه بأى شكل كان ؛ إذ طالما يثبت فى موضعه فأنى أستطيع أن أسنده بيدي فى الظروف الحرجة ، ولن أرقص بحال من الأحوال حتى لا يصدمه راقص فيقلبه ، أما فى ما يختص بأجرك فنق بأن لك منى كل ما تسمح به ظروفى » .

فأجابه الطبيب فى صوت ليس بالمرتفع ولا بالمنخفض ولكنه مقنع جذاب : « صدقنى أنه لا يمكن أن يحفزنى إلى العمل أدنى باعث من بواعث الشفقة لأن ذلك يناق مبادئى وعامى ، وطبعاً كنت أستطيع أن أرد إليك أنفك ولكن أوكد لك بشرفى أن فى ذلك وبالا عليك ، وأفضل شيء أن تفتظر فعل الطبيعة وصنيعها بك اغسل موضع الأنف بالماء الساخن دائماً ، وأنا أوكد لك بأنك ستكون فى صحة جيدة ، وأنصحك أن تضع أنفك فى زجاجة صغيرة مع ملمعتين من الفودكا ؛ وحينئذ تستطيع أن تبيعه بمبلغ عظيم من النقود ، وربما أخذته أنا لنفسى إذا لم تغل فى ثمنه » .

فقال الماجور كوفاليف ، وقد تملكه اليأس والحنق : « لا لا لا لا أنا لا أبيع به بأى ثمن مهما غلا ، والأفضل عندى أن يفقد بدلاً من أن يباع ويشرى ويوضع موضع المساومة » .

فأجابه الطبيب وهو يهيم بالخروج : « معذرة ! كنت أحب أن أقدم لك معوتى ، وعلى كل حال فأنت تعلم أنى بذلت قصارى جهدى » ، قال ذلك ثم سار إلى الباب منصرفاً . وفى اليوم التالى قبل أن يرفع كوفاليف شكواه إلى البوليس صمم على أن يكتب رسالة

إلى مدام بودتاشين ليعرف ما إذا كانت على استعداد أن ترد إليه حاجته المسلوكة فكتب إليها ما يأتي :

سيدتي العزيزة الكساندرة جريجوريفنا :
لست أستطيع أن أفهم سلوكك الغريب حيالي ؟ ومهما يكن من شيء فأنا أؤكد لك أنك لن تربحي متقال ذرة مما فعلت ، كما أنك لن تتقدمي قيد شعرة في سبيل إرغامك إياي على الزواج من ابنتك . صديقتي ! إن قلت لك إن فعلتك الشنعاء المتعلقة بأنتي لم تعد بعد خافية علي ، كما لم يعد خافياً علي أنك وحدك الشخص المسئول عن ذلك ، فإن فرار المذكور آتقاً من مرضعه الطبيعي ، ثم تخفيه تارة في ثوب موظف حكومي ، وتارة في صورته المعتادة ليس الا نتيجة للسحر الذي قيمت به أنت أو قام به أولئك الأجراء الذين يحترفون هذه الحرفة الشريفة مثلك . وأنا أحس بأنه من واجبي أن أذكرك قبل إبلاغ أي جهة أخرى ، فإذا لم يكن الأنف المذكور في موضعه اليوم فساظطر إلى الاستعانة بحماية القانون .

ولي عظيم الشرف — مهما يكن الأمر — أن أكون خادمتك المقدرة لعملك ؟
أفلاطن كوفاليوف

سيدتي العزيزة أفلاطن كوزميتش .
لقد أدهشني خطابك كثيراً جداً ، ويجب علي أن أصارحك بأنني لم أكن أتوقع مثله منك ، وعلى الخصوص ما كنت أتوقع تخروصاتك علي ، وأؤكد لك أنني ما استقبلت قط ذلك الموظف الحكومي في منزلي ، كما أشرت في خطابك ، لا متخفياً ولا في لباسه العادي . حقاً لقد زارني إيفان إيفانوفيتش بوتانتشيكوف ، ومع أنه طلب مني يد ابنتي — وهو كما تعلم ذلك الشخص الحسن السلوك الكثير العلم الوافر الذكاء — إلا أنني لم أشجعه قط في أمه . ثم إنك تشير أيضاً إلى أنك ، فإذا أردتني أن أفهم من ذلك أنك تتوهم بأنني أرفع الأنف بشم ، أعني أنني أرفض خطوبتك باحتقار ، فلا شك أن قولك مستهجن إذا أنك تعلم أنني كنت وسأكون دائماً علي نقیض ذلك . فإذا كنت كلفاً بابنتي وواضعاً نصب عينيكَ الزواج منها فأنا علي استعداد لأن أعاونك حالا ، لأن هذا كان علي الدوام أهم رغائبي ، وسأظل دائماً مستعدة لخدمتك ؟
الكساندرة بودتاشين

فقال كوفاليوف بعد أن اطلع علي رسالتها : (لا ، الحق إنها لا تستحق اللوم ، لا يمكن ذلك إذ الخطاب مكتوب كما لو كان صادر عن شخص برئ لا علم له بالجريمة ولكن بأي وسيلة حدث هذا الحادث المشؤوم ؟ ذاك سر لم أمط عنه نقاباً ، قال ذلك علي حين سقطت يدها الي جانبيه لما أعيتته الحيل وأضناه التفكير .

وكانت قصة الأنف قد ذاعت في كل أطراف المدينة ، وفيها زيادات وإضافات لاغنى للناس عن اتتحالها .

وفي هذا الوقت عينه شغلت أفكار النمس قاطبة قاطبة بملك التجارب العجيبة التي أجريت في

مسائل التنويم المغناطيسى ، وفوق هذا كانت قصة المقعد الرقاص الذى يرقص فى شارع «كونيوشنى» مازالت عالقة بالأذهان لقرب عهدها، وإذن فليس عجباً أن نرى الناس بدءوا يعتقدون أن أنف كودليوف اعتزل وظيفته وكان يسير فى ميدان نفسى فى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر . وكان الناس المستطلعون يتجمعون هناك كل يوم . وقيل مرة أن الأنف فى متجر يوفكر ، فكنت ترى الجماهير أكداساً عند باب هذا المتجر حتى إن البوليس اضطر أن يتدخل فى أمرها، ولقد انتهز هذا الزحام أحد المتفرجين - وهو رجل كان يبيع الحلوى والمأكولات عند أبواب دور التمثيل - فصنع مقاعد خشبية ليقف عليها من شاء من الجماهير مقابل أجر قدره ثمانية كوبكاً لكل مقعد . وقد خرج واحد من الضباط العظام من منزله مبكراً بقصد التفرج، فشق طريقه وسط الزحام بشق الأنف حتى وصل إلى المتجر ولكنه امتلاً حنقاً وغضباً فى الحال ، لأنه بدلاً من أن يرى الأنف المزعوم رأى نفس الصديرى الصوفى المعتاد وإلى جانبه صورة تمثل فتاة رشيقة تسحب جوربها إلى أعلى ، فى حين كان شاب أنيق يسترق النظرات من وراء شجرة قريبة ، وتلك صورة تقوم فى موضعها ذاك منذ أكثر من عشر سنوات ، فقال بحنى وشوهم بالانصراف: « كيف ينقاد الناس لمثل هذه القصص السخيفة التى لا تصدق؟ » ثم دأبت إشاعة أخرى بأن أنف الماجور ليس فى ميدان نفسى، ولكنه يتجول فى حديقة «تافرتشسكى» ، وأنه كان هناك منذ زمن بعيد ، وأنه لما كان «هرزف ميرزا» يسكن هناك كان يدهش جداً لمثل هذه العجيبة . فيهم شطر تلك الحديقة كثير من طلاب أكاديمية الجراحة ، وكتبت سيدة من الطبقة الراقية خطاباً إلى مدير الحديقة ترجوه فيه أن يرى أبناءها تلك الظاهرة العجيبة ؛ وأن يشرحها لهم إذا أمكن شرحاً وافياً .

ولقد صار كل الذين يحضرون المجتمعات الساهرة - بقصد الاتصال بالفتيات الجيلات وإدخال السرور إلى قلوبهن - جد شاكرين لمثل هذا الحادث الذى أتاح لهم أن يتندروا به ، لأن ثروتهم القصصية كانت قد بددت فأفلسوا من الأقاصيس والأحاجى . ولم يستأ من هذا الحادث غير جماعة صغيرة من ذوى رأى . قال واحد منهم إنه لا يفهم كيف أن الناس فى هذا العصر المستنير بضياء العلم والمعرفة يذيعون بايمان واعتقاد تلك السخافات المختلفة : وأعجب من هذا أن الحكومة تسكت حيث كان يجب الكلام . وهذا السيد على ما يظهر هو من أولئك الذين يريدون الحكومة أن تتدخل فى كل شئ حتى فى النزاع اليومى الذى يحدث بين الزوجات والأزواج وهنا أيضاً ذهب الحادث فى طيات النسيان ولم يعرف أحد ماذا جرى بعد ذلك .

فذلك الأنف الذي كان يتجول بعربة في زى رسمى ، والذي أقام المدينة وأقعد لها حاد إلى سابق موضعه بين وجنتى الماجور كوفاليوف كأن لم يحدث شيء هناك ، حدث هذا فى السابع من ابريل فقد استيقظ الماجور كوفاليوف ذلك الصباح وتناول المرأة صدقة فرأى أنه أحكم وضع يده عليه فوجد أنه أنفه لاشك فيه ، فأخذته نوبة من السرور وقهقهه كثيراً وأخذ يرقص حافى القدمين فى حجرته ولم يصدده عن تهريجه غير دخول خادمه إيفان . أمر خادمه أن يحضر له ماءً فى الحال ، ثم أخذ يغسل وجهه وفى أثناء ذلك عاود النظر إلى المرأة مراراً فكان يجد الأنف فى موضعه ، ثم مسح وجهه بمنشفة واختلس أثناء ذلك جملة نظرات فى المرأة ليتأكد من وجود الأنف .

« انظر يا إيفان كنت متوهماً أن دملاً فوق أنفى » كذلك قال كوفاليوف لخادمه على حين كان يقول فى نفسه : « كم أخشى أن يجيبنى إيفان بقوله لا بأسيدى ، لا دمل هناك ولا أنف »

واسكن إيفان قال : « لا شيء هناك ولا دمل ، أنفك ياسيدى لا بأس به . »

فقال الماجور فى نفسه : « لقد بدد الله الظلام »

وفى هذه اللحظة كان إيفان يا كوفلنتش الحلاق يدفع باب الغرفة ليدخل ، ولكنه كان كالقط الذى يريد أن يدخل حجرة خرج منها طريداً لسرقة ارتكبها . فلما لمح طرفه الماجور كوفاليوف صاح فى وجهه : « أخبرنى أولاً هل يداك نظيفتان ؟ »

فقال الحلاق : « نعم »

« أنت تكذب ! »

« لا ورنى ياسيدى ، هما نظيفتان . »

« حسناً ، هلم احلق »

وجلس الماجور كوفاليوف إلى مقعد ثم طرح إيفان يا كوفلنتش عليه منشفة ، وفى قليل من

الزمن غطى كل ذقنه وبعض خديه بالصابون

هل عيناي بخير ؟ قال ذلك إيفان يا كوفلنتش فى نفسه ؟ على حين كان يدير رأس زبونه من اليمين إلى اليسار وبالعكس وهو يتأمل الأنف ملياً ثم قال أيضاً : « الأنف هو هو بكل تأكيد ولكن ما معنى ذلك الحادث ؟ » ثم ابتعد قليلاً وكان يدق النظر فيه أيضاً وأخيراً رفع يده بكل حذر وببطء ليامس طرف الأنف .

فقال كوفاليوف على الفور : « حاسب . حاسب . حاسب » فتراحت يد إيفان يا كوفلنتش ، وتراجعت بسرعة وامتلاً هو بالزغب والاضطراب بشكل لم يسبق له مثيل - وبدأ أخيراً أن يجرحه بالموسى تحت ذقنه لأنه يصعب على إيفان يا كوفلنتش أن يحكم وضع موساه إذا لم يكن يقبض جيداً على عضو الشم . ومع ذلك فقد غرس أصابعه فى خد كوفاليوف وبذلك تغلب على الصعوبة وأنجز مهمته الشاقة .

فلما انتهت الحلقة شرع كوفاليوف في ارتداء ملابسه على وجه السرعة ثم امتطى عربة وتوجه نحو الحلواني . وقبل أن يدخل الباب أخذ يصيح : « يا جرسون ! كوب من الكاكاو » ، واختمس في اللحظة عينها نظرة في المرأة فرأى الأنف ، وحينئذ أساح بوجهه من فرط السرور ثم رفع عينه ببطء كما يفعل الارستقراط من الناس فوقعت عيناه على اثنين من ضباط الجيش ، كان أنف أحدهما لا يكبر على الزر حينها ، فخيّل إلى الماجور كوفاليوف أن يحذر ذلك الضابط من محاولة هروب أنفه واعتزاه الاستقالة من مركزه ، إلا أنه تمالك نفسه وانشغل بمراجعة التحقق من أنفه . ثم انصرف نحو المصلحة الحكومية التي تقدم إليها للتوظيف كساعد للحاكم أو إذالم يوفق في ذلك فمكرئيس للكتابة . وعند مروره بحجرة الانتظار نظر في المرأة لآخر مرة فاطمأن لوجود الأنف ، ثم شق طريقه إلى ماجور آخر كان من دأبه أن يتهكم على كل شيء . وفي أثناء ذهابه إليه كان يقول في نفسه : « إذا لم ينفجر الماجور ضاحكا عند رؤيته لى فذلك تأكيد قاطع بأن كل شيء في موضعه » ، إلا أن الماجور الساخر لم يقل شيئا من ذلك ، فقال كوفاليوف في نفسه : « حسناً ، حسناً جداً . الحمد لله » ، ثم إنه صادف في طريقه مدام بودتاتشين مع ابنتها فأكثر من التحية والانحناء لها خبياه بنوع من الدهشة والاعتباط معاً جعله يزداد اطمئناناً بأن كل شيء في موضعه سليم برىء من النقص . وتحدث معها طويلاً ، وفي أثناء ذلك أخرج علبة نشوقه ثم وضع السعوط في خيشوميه سوياً ، متممداً ذلك حتى لا يهمل مراجعتها . ومنذ ذاك الوقت أخذ الماجور كوفاليوف يتجول في ميدان تشسكى ويرتاد المسارح كأن لم يكن حدث هناك . كذلك الأنف فقد ربض في موضعه من غير انحراف ولا اعوجاج كأن لم يكن قد فارق كوفاليوف قط . وبذلك كان الناس يرون الماجور ضاحكاً نشيطاً مطارداً لكل الفتيات الحسان .

تلك هي الحادثة الغريبة التي وقعت فيما مضى في العاصمة الشمالية لامبراطوريتنا الشاسعة ، والآن فقط عند ما تتأملها ندرك أنها تشتمل على أشياء لا يمكن وقوعها البتة ، فإذا تجاهلنا تلك الحقيقة وهي أن أنفاً يعتزل موضعه ويظهر في أمكنة مختلفة في زى رسمى إنما هي محض خرافة ! فإن هناك مالا يمكن تجاهله ، وهو كيف أن كوفاليوف لم يدرك أنه ليس من اللائق أن يعلم عن خرافة في الصحف السيارة ؟ ثم كيف وصل الأنف إلى الرغيف ؟ وما شأن إيفان يا كوفلغتش ؟ به لست أستطيع أن أفهم ذلك .

ولكن أبعد الأشياء غرابة وبعداً عن التصديق هو أن الكتاب يتناولون هذا الحادث بأقلامهم ، وأنا أصرح بأن هذا فوق مداركنا ، فالحدث قبل كل شيء لافائدة فيه لاوطن ، وثانياً ثم ثانياً أيضاً لافائدة فيه بالمرّة . وفي الحق لست أجد ما أقوله عنه ... ومع ذلك فعندما تمنع النظر فيه فستجد فيه حتماً بعض الشيء . ومنها تقول الناس فإن مثل هذا الحادث يحدث حقيقة - لا كثير آ - ولكنه يحدث والسلام ، يحدث في أوهام الجماهير وعند ضعفاء التقدير والتفكير .

التلقيح عند الحيوان

بقلم الأستاذ محمد محمد السيد

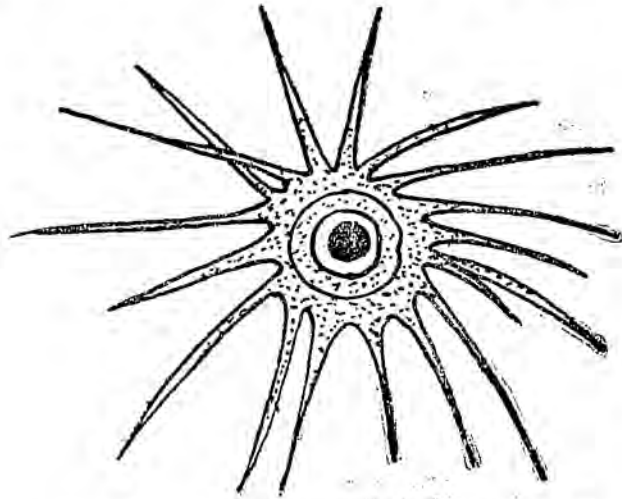
المدرس بمدرسة طنطا الثانوية

[البويضة والحيوان المنوى - أعضاء التناسل - التلقيح]

البويضة والحيوان المنوى : بين ملايين الخلايا التي تكون الجسم توجد خلايا لا وظيفتها تؤديها لمنفعة الكائن الحي نفسه، بل تعيش لمصلحة النوع لمصلحة الأفراد، وتلك هي الخلايا التناسلية .

والخلايا التناسلية أو جراثيم التلقيح (وتسمى أيضاً جامتات) هي البويضة في الأنثى والحيوان المنوى الذكر، وهما باتحادهما يكوّنان الخلية المملوكة التي إذا وجدت وسطاً وغذاءً ملائمين تتطور وتنمو مكونة الجنين .

ويتركب الحيوان المنوى - لأغلب الحيوانات (انظر شكل ٥٠) - من رأس ، الجزء الأكبر منه نواة، ومن ذيل طويل بواسطة يتحرك

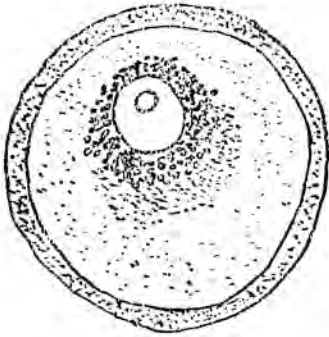


شكل ٥٠ الحيوان المنوى للأنثى في وضعتين مختلفتين مكبراً جداً

شكل ٥١ الحيوان المنوى لأغلب الحيوانات في وضعتين مختلفتين مكبراً جداً

الحيوان المنوى حتى يصل للبويضة . ويوجد بين الرأس والذيل عنق له أهمية خاصة في حمل بويضة

الآتى على الانقسام وتكوين الجنين . ويبلغ طول الحيوان المنوى كله نحو ١ على ٢٠ من المليمترات .
وفي الحيوانات القشرية نجد الحيوان المنوى (شكل ٥١) له شكل كروي، وهو ذو زوائد
كثيرة بواسطتها يتحرك متجهاً نحو البويضة .



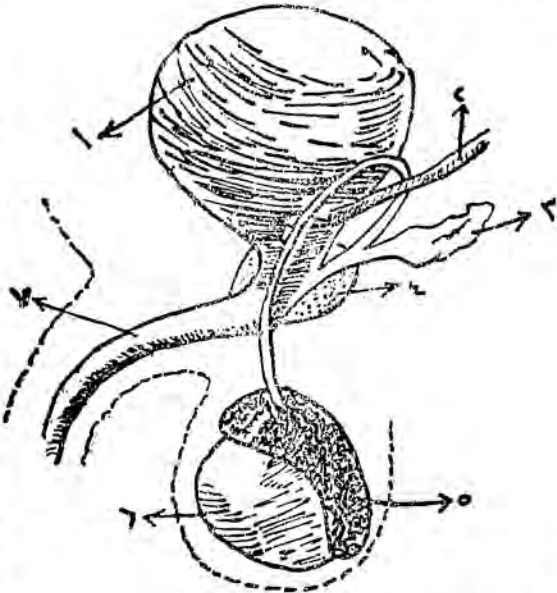
أما البويضة (شكل ٥٢) فخلية كبيرة كروية الشكل؛
وهي في أغلب الحيوانات الثديية تبلغ نحو ١ على ٥ من
المليمتر قطراً . وتحتوى خلاف النواة على جانب
من كريات زلاية لتغذى عليها في الأطوار الأولى
من النمو .

أعضاء التناسل : يتركب الجهاز التناسلى للذكور
في الحيوانات الراقية (شكل ٥٢) من زوج من الخصى،
حيث تفرز الحيوانات المنوية ، ومن قنوات لمرور
السائل المنوى إلى حيث يلقح بويضات الآتى، ومن
عديد من الغدد تفرز سوائل لها أهمية في تنشيط
الحيوانات المنوية لتؤدي وظائفها .

البريهن والمجران للزهر (الان
مكبرين) (جذ النسخ)

شكل ٥٥

والخصية تتركب أساسياً من
كتل من أنابيب ملتوية مبطنة
بخلايا هي التي بانقسامها تكون
الحيوانات المنوية . وبين هذه
الأنابيب الملتوية توجد خلايا
أخرى تفرز سوائل لها أهمية
في تكوين المميزات الجنسية
للذكر كشمو شعر الذقن والشارب
وغيره .



وتنمر الحيوانات المنوية عقب
تكونها إلى الحويصلة المنوية حيث
تخزن إلى الوقت المناسب فإذا
احتيج إليها اندفعت إلى القناة
التناسلية البولية بعد أن تختلط
بسوائل تفرزها غدد خاصة . وهذه
الإفرازات تنشط الحيوانات المنوية

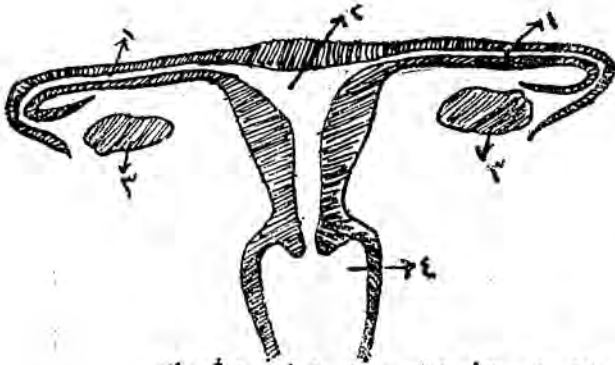
شكل ٥٢ أعضاء تناسل ذكر حيوان ثديي راق

١) مثانة البول ٢) الخالب ٣) الحويصلة المنوية ٤) غدة البروستاتا
٥) قنطرة الخصية ٦) القناة التناسلية البولية

تغذيها حتى تقوم بواجبها .
ويوجد إشراف كثير في صنع الحيوانات المنوية . ففي كل عملية تلقيح يستهلك لا أقل

من مائتي مليون حيوان منوى لتنتهي إلى أن يلقح واحد منها فقط بويضة الأنثى. وفي أحوال قليلة يحتاج لأكثر من واحد إذا كانت البويضات المعدة للتلقيح كثيرة.

أما الجهاز التناسلي الأنثى (شكل ٥٤) فيتركب (في الحيوانات الثديية الراقية) من مبيضين يقابلان الخصى في الوضع بالنسبة للجسم ، ومن قناتين توصلان إلى غرفة تعرف بالرحم حيث تنقسم البويضة من تلقيحها مكونة الجنين .



شكل ٥٤ : تنقسم في أعضاء تناسلي حيوان ثديي راقية
١ قناة المبيض ٢ الرحم ٣ المبيض ٤ المبيض ٥ المهبل

والمبيض شبكي التركيب، ويحتوى أيضاً على الخلايا التي لأفرازاتها أهمية في تكوين المميزات الجنسية الثانوية .
و يوجد في المبيض البويضات في حالات مختلفة من النمو يحيط بكل بويضة عدد من الخلايا للعناية بها وتغذيتها ؛ وكلما تقدمت البويضة في العمر ازداد تعدد الخلايا المحيطة بها .

وتنتهي قناة المبيض من أحد الطرفين بالرحم، ومن الطرف الآخر بقمع لاستقبال البويضات من المبيض، وهذا القمع لا يحيط بالمبيض تماماً، ولذلك يحدث أحياناً أن تسقط البويضات المتكونة في تجويف الجسم بدل مرورها في القناة . وفي أحوال نادرة جداً يتم تلقيح البويضة بأحد الحيوانات المنوية - وهي في هذا الموضع الشاذ - فيتسبب من انقسامها ونموها متاعب جمة للأنثى ؛ ولهذا كان الجهاز التناسلي لأنثى الحيوانات الثديية الراقية (ومنها أنثى الإنسان) غير كامل من هذه الوجهة ، وأحسن منه أجهزة بعض حيوانات ثديية أخرى كالكلب ؛ فإن المبايض ونهاية قنواتها مغلقة كلها بنسيج متواصل يجعل سقوط البويضات في التجويف البطني مستحيلاً .

وجدران الرحم سمكية والنسيج المبطن به في الحيوانات الثديية العليا يتمزق مرة كل شهر ويتكون بدله نسيج جديد ؛ وهذه العملية يتسبب عنها الحيض الشهري عند النساء ، وإناث الحيوانات العليا .

وأجهزة التناسل للحيوانات الأخرى تختلف عن ذلك تركيباً ؛ ففي الطيور والزواحف مثلاً تنصب البويضات أو السائل المنوى مع البول والمواد البرازية في تجويف واحد يعرف بالكوكا أو المجمع ؛ والبويض هنا ليس صغيراً ، بل هو كبير محاط بقشرة صلبة تحتوى على الجرثومة

الملقحة وكية كبيرة من الطعام المخزون، ولا يوجد للبيض عادة موضع في الجسم لينمو فيه ويتحول إلى جنين، بل البيض يوضع ويحضان خارج جسم الأم، ولو أن هناك بعض حيوانات شاذة .

التلقيح : يتم التلقيح بالحيوان المنوى بالبويضة، ورغم كثرة عدد الحيوانات المنوية فإن أغلبها يموت في طريقه إلى البويضة، ولا يفوز بتلقيحها إلا حيوان منوى واحد هو الذى يتمكن من اختراق جدارها بواسطة رأسه، ويتلاشى الذيل ويذبل بمجرد دخول الرأس في البويضة، وتحتق (سيتوبلازمة) الحيوان المنوى في (سيتوبلازمة) البويضة وتندمج بها، أما النواة (الرأس) فتتحرك إلى نواة البويضة وتندمج بها اندماجاً تاماً، ويتكون ما يسمى بالزيجوت (البويضة الملقحة) .

وباندماج النواتين يعود عدد (الكروموسومات) في النواة الجديدة العدد العادى في نوى الجسم، ويلاحظ أن عدد الكروموسومات في كل من جرثومتى التلقيح نصف العدد الأصى (أو تقريباً النصف) وبالتلقيح يعود العدد كاملاً .

وبهذا الاندماج يرث الجنين من كل من والديه بعض صفاته، وبذلك يوجد تنوع أكثر مما كان في توزيع الصفات المختلفة؛ وهذا يجعل احتمالات اختلاف النسل عن والديه احتمالاً أكبر، وتسرح فرص جديدة لتحسين النوع بتزاوج أفراد صالحة قوية بأخرى قوية .

والتلقيح في الحيوانات الدنيا يحدث خارج الجسم؛ ففى بعض الأنصاف يلقى الذكر السائل المنوى في الماء، وكذلك تلقى الأنثى بويضاتها ويصبح التلقيح راجعاً للاتفاق، فإذا صادف مرور تيار مائى يحمل شيئاً من الحيوانات المنوية على البويضات تم التلقيح .

وفي الأسماك تتخذ احتياطات أدق لضمان التلقيح؛ فالأنثى تضع البيض عادة في حفر تحفرها في قاع النهر، في حين تندفع الذكور وراءها ملقمة السائل المنوى على البيض ليتم تلقيحه، وهى تتقاتل وتتنافس وراء الأنثى لهذه الغاية .

وفي الضفادع يتم التلقيح بطريقة فريدة، ففي موسم التلقيح (أوائل الربيع) تنتقل الإناث بعد خروجها من مخبئها الشتوى إلى البرك لوضع البيض، فتقبض عليها الذكور من الخلف بلف الأطراف الأمامية حولها، وهى تقبض عليها بشدة - بواسطة نمو خاص في الأصابع الأمامية يحدث خاصة في هذا الفصل - حتى لا يمكن أن يفترق طارئ بينهما، وربما يستمر الذكر قابضاً عليها أياماً كثيرة أو أسابيع حتى تلقى البيض في الماء فيصب الذكر السائل المنوى عليه أثناء خروجه وبذا يتم تلقيحه .

وفي الحيوانات الأخرى يتم التلقيح داخل الجسم، فقد رأينا كيف تلتقح بويضات اندودة الأرضية بواسطة سائل منوى من دودة أخرى رغم كونها خنثى، ويتم التلقيح الداخلى

عادة بدخول عضو خاص من الذكر في أعضاء الأنثى التناسلية يحمل إليها السائل المنوي حيث يتصل بالبويضات وبلقحها. وفي بعض الأصناف يلتقي الذكر السائل المنوي في الماء فتحملة تيارات مائية إلى داخل جسم الأنثى (إذ توجد أهداب تتحرك لادخال الماء باستمرار في الجسم) وهناك يتم التلقيح.

وفي العناكب يوجد السائل المنوي في الأطراف الأمامية ، وهذه تحمله إلى داخل جسم الأنثى .

وفي بعض الأخطبوط يوجد السائل المنوي في إحدى أذرع الذكر، وهو يدخل هذه الذراع في تجويف الأنثى ثم تنفصل الذراع عن جسم الذكر ويتم بواسطتها التلقيح.

وتحتفظ الحيوانات المنوية بحيويتها مدة طويلة، ففي إناث النمل والنحل يتم التلقيح مرة واحدة في موسم خاص، وفي هذه المرة تخزن الأنثى السائل المنوي في كيس خاص وهي تلقح منه البيض الذي تضعه وفق إرادتها . وقد شوهدت بعض ملكات النحل تضع بيضاً ملقحاً رغم مرور ثلاث سنوات على عملية التلقيح، أى أن الحيوانات المنوية احتفظت بحيويتها طول تلك المدة .

وتختلف مدة التلقيح، فقد تم هذه العملية ببطء مستمر عدة ساعات، كما في بعض الحشرات، وقد لا تتجاوز المدة أكثر من ثوان قليلة؟

محمد محمد السيد

كتاب في التربية والتعليم

تأليف الأستاذ الكبير أحمد فهدى العمروسى بك

هو دائرة معارف عامة في التربية والتعليم ، ألفه المرعى الجليل الأستاذ أحمد فهدى العمروسى بك ، وتناول فيه أغلب مباحث التربية وموضوعاتها التي تثار بالبحث حولها في الماضي والحاضر ، بأسلوب سهل وعبارة مفهومة ، وشرح كامل . وهو يقع في ٣٢٠ صحيفة من القطع الكبير . والكتاب واضح الحروف ، جيد الطبع ، متين الورق ، وبه ٢٢ صورة على ورق مصقول . ثمنه (٥٠ قرشاً) يضاف إليها (٥ قروش) أجرة البريد، ويطلب من إدارة «المعرفة» . ويهدى مجانياً للمشاركين الذين سددوا قيمة اشتراك المجلة ، وعدد النسخ الموجودة ٥٠ فقط هو مجلد ينبغي ألا تخلو منيا مكتبة أى مدرس أو أديب

الجزء الأول

بقلم الأستاذ رشدي ميخائيل السيسى

امسكوا الالع ! الالع ! الالع ! امسكوه !!

انبعثت هذه الأصوات من قصر رءوف بك رئيس جمعية الانسانية الخيرية بالقاهرة ومدير إحدى البيوتات المالية الكبيرة ، فهب جميع فقراء الشارع وعامته وتقاطروا إلى حيث مبعث الصوت ، وإذ عرفوا مصدره سارعوا للتنفيذ وكل منهم يبغي أن يرجح فضل القبض على المجرم... وخلف إحدى بوابات حديقة القصر عثروا على شاب وسيم رغم شحوب وجهه وضهور بدنه ، عليه أثواب مهلهلة أو أطوار بالية ، وكان يرتجف ارتجافا ولا يكاد يقوى على حمل نفسه ، فهل العامة لهذا الفوز وكبروا ثم أخذوا بخناق المجرم... وأراد الشاب أن يتكلم فأرتج عليه الكلام وصمت إذ لم يلمح على أى فرد ممن يحيطون به علائم عطف أو إشفاق.

قال رءوف بك غاضباً : ألم تجد من تسرقه غيرى ، وأنا المحسن الذى لا أجد فقيراً « مستحقاً » إلا أعطيته ، أو منكوباً إلا أقلتته من عثرته : أو فريسة لسكوارث الزمن إلا أنقذته ؟ أهذا جزاء من كرم وقته وجهوده لخدمة الانسانية وتخفيف ويلاتها ؟ .. تكلم ، أليس لديك ما يجيب به ؟ ولكن أى جواب بعد ما حدث وبعد ما ضبطوك متلبساً بجريمة السرقة !! أتُنكر ، إه ؟ لست ضعيفاً إلى هذا الحد ...

فجاهد « المجرم » جهاداً شديداً حتى تيسر له أن ينطق ، إنما فى ألفاظ مرتعشة خافتة فيها ألم ويأس ، وبصوت كئانه - لفرط ضعفه - صادر عن أعماق القبور : أُمى تحتضر يا سيدي ، وأنا لم أموت جوعاً ، ولقد طرقت بابكم الكريم - من قبل - أسأل عملاً أو إحساناً ، فرددت خائباً .. فقال رءوف بك - وقد ارتسمت القسوة على وجهه بصورة واضحة رهيبة - : وإذن فأنت تنأر لنفسك منى !! يا اللخائن المجرم !! نعم مثلك من يرد خائباً وتوصدونه الأبواب ، لأنك أنيم شرير ، وليس أدل على إنمك من حادثة اليوم .. إلى السجن أيها المجرم حتى تنال جزاء ما اقترفه يدالك من شر .. خذوه !!

فأقترجت شفتا الشاب عن ابتسامة مرة يفعمها الاستهتار ، وخرج من لدن رئيس جمعية

الانسانية الخيرية يحيط به جلاذوه من إخوته الفقراء البائسين الذين رضوا أن يصنعوا من أنفسهم عبيداً الأغنياء ، وساقوه حيث أودع غيابة السجن ...

وكانت كلمة القضاء .. وإذ هي تقضى بحبس الشاب سنة مع الشغل ، لأنه وإن ثبت للقضاء قطعاً أن الشاب لم يلجأ إلى السرقة إلا لئلا تقاذ والدته من برائن الموت وتخلص نفسه ، ولكن القانون صريح لا تأويل فيه، ويزيد القانون تشدداً وعنفاً أنه في هذه الحال بالذات إنما يحصى رءوف بك نصير البائسين وملاذ الفقراء والمعوزين .

وهتف أتباع المحسن الكبير في حماسة ظاهرة: يحيا القضاء العادل ! يحيا القضاء العادل !

وهمس بعض الأغنياء من الحاضرين : لعله من القضاء خطأ غير مقصود !!

وأما رءوف بك رئيس جمعية الانسانية الخيرية فراح يتحدث إلى كل من لاقاه - في تواضع

وفي غير افتخار - بأنه كان أعقل من أن يعطى الإحسان لمن لا يستحقه ...

في كوخ حقير بإحدى أطراف المدينة النائية ، وفوق حصير بال تحيط به أربعة جدران سوداء مرطبة ، راحت أم « المجرم » العجوز تنادى ولدها الوحيد العزيز وهي في غيبوبة النزاع الأخير: ولدى! ولدى! هاك استمع سر مولدك فقد حلت الساعة! ولدى! ولدى! وكانت زائفة البصر تنشد وجه ابنها عبثاً فيمن حولها من الفقراء الذين أخفوا عنها الحقيقة المرة ، وكانت تحتضر في بطنها كأنها كانت تستمهل الموت حتى تودع وحيدها الذي أودعوه غيابة السجن وبات محالاً أن تراه ... ولكن ... ولكن كأن الموت أشفق أخيراً على العجوز أن يطول عذابها فلم يرض أن يعلمها ، وإذ حلت الساعة الرهيبة لفظت الأم آخر أنفاسها وهي تردد : ولدى! ولدى!

وتولت جمعية الانسانية الخيرية التي يرأسها رءوف بك دفن رفات العجوز الفقيرة إذ لم يكن لها أحد يعتنى بها أو يهتم لشأنها بعد ابنها السجين ، وأثناء ما كانوا ينقلون جثثها ليواروه التراب عثروا في فجوة تحت الحصير على صندوق صغير من العاج هوكل تراثها، فأخذوه وساموه رئيس الجمعية ...

وفي استهتار وافر وعدم مبالاة فتح رءوف بك الصندوق وتناول منه ملفاً صغيراً من الأوراق هوكل ما يحتويه ، وإذ كان يقلب هذا الملف بين يديه سقطت منه صورة فتوغرافية صغيرة عرف فيها رءوف بك والده الباشا بلباسه العسكري.. فأخذته رعدة، جالداً حتى تغلب عليها.. ثم راح يقرأ ما بالملف من أوراق، فإذا هو في صندوق راتعة حزينة كان والده الباشا بطلها.

عرف والد رءوف بك هذه العجوز منذ نيف وثلاثين سنة، ولم تكن قد تحطت -إذذاك- العقد الثالث من عمرها فأحبها إلى حد الولع، إذ كانت وافرة الحسن رائعة الجمال، وعاشرها فترة أنجبت فيها ذلك الشاب البأس الذي زج به رءوف بك إلى السجن وهو أخوه من أبيه، ثم مات الباشا وتسترت الأم على نفسها خشية الفضيحة والعار، وتوالت النكبات عليها فباتت ولا مورد رزق لها في الحياة سوى جمالها إن شاءت، فأبت أن تبذل وراحت تشتغل لتعيش.. تنازعت نفس رءوف بك أفكار متباينة وعواطف متضادة وراح نهبا مقسما لها، فهو يشفق تارة ويقسو تارات، وأخيراً انتصرت فيه عاطفة الأنانية وحب الذات، فقام إلى باب حجرته وأوصده، ثم عمد إلى الملف فأشعل فيه النار وظل يرقبه حتى التهمت عن آخره.

استراح ضمير رءوف بك الحى، ثم خرج من غرفته مترن الخطوة فى غير غرور، وسار بين صفوف المعجبين به والمرئيين الذين كانوا لا يفتأون يرددون آيات الإعجاب به وبخلقه المتسامح السامى الذى يأخذ الأم بحريرة ابنها، ثم لم يتألكوا أنفسهم من أن يهتفوا له جميعاً فى صوت واحد: يحيا رءوف بك ملجأ البائسين!! يحيا المحسن الكريم!!!
رشدى ميخائيل السيسى

مخاطرات الباب

أو الأميرة الهندية

رواية مصرية غرامية أخلاقية اجتماعية

حافلة بالعواطف النبيلة والملفات العنيفة

تجمع إلى الحب العذرى تحليلاً دقيقاً لأهم خواج النفس الشريفة

بقلم الأديب: حسن رشاد بمعهد التربية

مصدرة ومنقحة يبحث فى أدب القصة وتطورها بقلم صاحب « المعرفة »

صفحاتها ٢٠٨ وثمنها ٥ قروش مصرية تطلب من المؤلف أو من إدارة « المعرفة »

اسماعيل باشا صبرى

تخيم شعراء العصر

١٨٥٤ - ١٩٢٣ م

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

- ٣ -

عرف القارىء مما نشرناه على صفحات هذه المجلة الزهراء عن إسماعيل باشا صبرى ، كيف أن أدباء العصر ، قد اتخذوا منه زعيماً لهم ، أو عميداً لمدرسة الشعر الحديث ، وذلك لما تحقّقه في شعر الرجل من الروعة وروح التجديد ، وفي نقده وملاحظاته من الدقة وأصالة الرأي ؛ هذا ويلوح لى أن « صبرى » لم يكن أستاذاً لمشاهير أدباء جيله فحسب ، ولكنّه كان فوق ذلك أستاذاً لشهيرات أدبيات العصر أيضاً .

فيؤخذ من حديث أذيع لنا بعة الشرق الآنسة مى ، أن من أهم البواعث التى أثرت فى مجرى حياته : تلك الاجتماعات الأدبية الراقية ، التى كانت تنعقد فى صالونها فى كل يوم ثلاثاء برئاسة إسماعيل صبرى . وقد قالت هذه الأدبية العظيمة الفذة : إنها اقتبست تهذيبها العربى مما كان يدور فى الصالون من البحوث الطريقة الشائقة باللغة العربية النصيحة . وإنى أحفظ لشاعرنا أغرودة من الشعر العاطفى الرقيق ، يحن فيها إلى تلك الاجتماعات الثلاثية ، والتى كان يرأسها بدار « مى » ؛ كما يحن الطائر الصادى إلى غدير الماء ، وهذه هى الأغرودة :

روحى على بعض دور الحى حائمة كظامى الطير تواقاً إلى الماء !
إن لم أمتع « عى » ناظرى غداً أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء !
حفظت وأنا يافع هذين البيتين ، يتخللهما تشطير بديع محكم ، وقد عثرت عليهما منشورين بمجلة « سركيس » ، بيد أن الذاكرة - قاتلها الله - قد خاتنى الآن فى حفظ اسم ذلك الأديب السورى صاحب هذا التشطير :

« روحى على بعض دور الحى حائمة » ترتاد موضع أحلامى وأهوائى
دار لمية أنوئها وأطلبها « كظامى الطير تواقاً إلى الماء »
« إن لم أمتع عى ناظرى غداً » أو لم تمتع أغاريدى بإصغاء

أنكرت يومى بل أنكرت ليلى بل «أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء» !
ولقد كان لشيخ الشعراء ولع بالموسيقى شديد ، جعله يهتم بترقيتها ، ويسعى لتهديب
الأناسيد، وله مقاطيع وأدوار عدة بالعامية والفصيحة ، وضعها خصيصاً للتأجين ، وهو المؤلف
لهذا الدور البلدى لأحد الموقعين على نفقات العود :

قدك أمير الأغصان	من غير مكابر
وورد خدك سلطان	على الأزاهر
دا الحب كله أشجان	يا قلب حاذر
والصد ويا الهجران	جزا المخاطر

إلى آخر الدور :

وإنى سأعرض على القارئ أدواراً من أغانيه الفصيحة مع مختاراته فى ذيل المقال ، ولا
شك فى أنها ستذهب بحيال القارئ إلى ما كان عليه الغناء العربى فى عهد العباسيين الزاهر !
وفى هذه النادرة الطريفة التالية، لبرهان قاطع على أن شاعرنا كان مرجعاً لشعراء الألفانى
كما كان مرجعاً لسواهم .

قال الدكتور هيكل : « روى لى أحمد شوقى بك حادثة فى غاية اللطف ، تلك أنه كان
يوماً عند « صبرى » وهو يشغل منصب النائب العمومى ، وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث
سياسى وقع فيها ، وفيما هما جالسان يتحدثان ، دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير
فقطع ذلك حديثهما ، وانتظرا أن يجدا فيه إشارة إلى ذلك الحادث السياسى ، وما يجب اتخاذه
من الاجراءات بإزائه ، فلما قضى صبرى باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسماً !
ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ ، قد بعث فى هذا المظروف « بدور
غنائى » وهو يطلب إلى النائب العام إصلاحه . »

« ولهذه المناسبة قص صبرى لشوقى حادثاً وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الإسلامية على
وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دمماً لاقتتال الناس فيها ؛ ذلك أن فتاة أطلت من
نافذتها منادية صديقة لها فى نافذة مقابلة ، تطلب إليها وترأ تصلح به عودها !
وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى إلى النائب العام ، أن يصلح له دوراً غنائياً فى
حين أن البلاد المصرية تموج بحادث سياسى لاتعرف نتائجه ! »

يحمل بى هنا أن أكتفى بما دوتته من تاريخ حياة الرجل باختمار ، وبما سقته من مستطرف
نوادره التى تدل على مكانته المحترمة الملحوظة بين أدياء العصر ، والمزايا الجملة التى تقرد بها ،
وهأنذا أمهد لما سأختم به موضوعى من مختارات الشاعر . لقد نظم شاعرنا فى مختلف المواضيع
كالمدح والثناء والغزل والحكم والفلسفة حتى الفكاهة ، وكان موفقاً فى كل ما نظم فيه بنوع

عام ، ولكنه قد وفق كل التوفيق ، بنوع خاص ، فيما نظم من الشعر الغنائى والغزل الوجدانى .
ولعل السبب فى ذلك ، هو شدة حب الشاعر للمرأة وتقديسه إياها ، وشاعرنا لم يتصبب
بامرأة معروفة بالذات ، ولم يعشق عشقاً أثبات دأراً كما كان يعشق عمر بن أبى ربيعة وبشار بن
برد ، وأضرابهما من الشعراء الشهوانيين ، حاشا ! بل كان يحب المرأة من حيث هى امرأة ، أو
قل بعبارة ثانية إنه كان يحب الأنوثة حباً قدسياً أفلاطونياً غنياً عفيفاً ! !

« ويقول أحد الأساتذة : إن صبرى كان ينظر إلى المرأة نظر المصور الماهر إلى دمية جميلة
يجد فى جمالها ظلاً يتروى فيه من هجير الحياة ! وينظم فيها المقاطيع الشعرية الرائعة ، شأن
المثال الذى يفضل نحت الدمي الصغيرة على تشييد هرم جليل ! » .

وانظر إليه فى هذا البيت المبكر المعنى ، كيف تخيل المرأة مخلوقاً ملائكياً روحانياً ،
ليس للماء ولا للطين أى دخل فى تكوينه ، قال :

أنت روحانية لا تدعى أن هذا الحسن من طين وماء ! !

ونجد شوقى قد اقتبس هذا المعنى الجديد وصاغه فى بيته :

صوتى جمالك عنا إننا بشر من التراب وهذا الحسن روحانى
وأنت إذا رجعت إلى مطلع عينية شوقى التى جارى بها عينية الفيلسوف الرئيس ابن سينا وهو :
ضمت فناعك ياسعاد أو أرفعى هذى الخاسن ما خلقن لبرقع
لوجدت أن شوقى قد أخذ هذا المعنى أيضاً من قول أستاذه صبرى حيث قال :

واسفرى تلك حلى ما خلقت لتوارى بلنام أو خباء

ولا غرو فشوقى له حسناته فى تقليد من كان معجباً بهم من الشعراء الذين تقدموه وعاصروه .
ونلاحظ أن صبرى نفسه - فى أيام شبابه - كان مقلداً ، يجرى وراء هذا وذاك من فطاحل
الشعراء الأسبقين ، يقلدهم ويستعيد طريف معانيهم ، ولا سيما البحترى الذى كان يعجب به ويستظهر
ديوانه عن ظهر قلب ، ولكنه بعد أن خلع عنه رداء الأربعين ، امتلاً شمره بروح تجديدية
محسوسة ، تطالعك من خلال ألفاظه الرائعة ودقيق معانيه ، ولكأنى به كان يقول مع القائل :

سمعت كل قديم عرفته فى حياتى

إن كان عندك شيء من الجديد فهات

« وقد قال أحد الأدباء : وكأنى بصبرى قبل بلوغه سن الأربعين ، كان يفتح كتاب الوجود
يتلص فيه الطريقة البكر التى لم يفتحها شاعر قبله ، ولكنه لم يهد إليها إلا بعد أن حال لون
النهار وكان مساء ، فجاء شعره كالشفق المذهب يلمع نوره فى أفق الحياة عند الغروب ! ! » .
وشعر صبرى على تنوع موضوعاته يتسم بسمت الرقة ، ولا أقصد تلك الرقة اللينة المائعة

التي تولد في النفس عوامل التراخي والاستسلام ، كالتى يصطبغ بها شعر بعضهم من المتصوفة والزهاد ، والذين لا أمل لهم يسعون لتحقيقه في هذه الحياة ؛ وإنما أقصد الرقة التي لها من جمالها قوة ومن روعتها تماسك ، الرقة التي تنبه أحاسيس النفس وتشحذها ، وتلأججها القلب حباً وأملًا وحياة ! الرقة التي تمثلها نسجات السحر المنعشة بخطراتها ، والزهرة بشذاها وحلو ابتسامتها ، والقمر ببهاء طلعه وصفاء نوره وتلألؤه !

ولأعرج من هنا إلى حديقة أشعار شيخ شعرائنا ، لىكى أنسق بها باقة من زهر الشعر أقدمها للقارئ وأنا ضمين بالألا يعترض القارئ ، في بيت ما ، رأى غامض ، أو كلمة نائية ، أو تشبيه جاف معقد أو معنى مبتذل ، بل سيجد القارئ في هذه المختارات والمقتطفات ألفاظاً متجاوبة ، وروياً موسيقياً مطرباً ، يسرى رنينه في النفس كما يسرى النسيم البليل في جسم المحرور . وأظن أن ليس من الانصاف أن أغفل ذكر تلك الكلمة البليغة الجامعة ، التي شرح فيها شاعر القطرين الطريقة التي يجرى عليها شيخ الشعراء في نظم أشعاره ، قال مطران :

« أكثر ما ينظم للخطرة تخطر على باله ، من مثل حادثة يشهدها أو خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالع ، ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاعة نفسه على ما تدعوه إليه ؛ فالغالب في أمره أنه يقول الشعر متمشياً ، وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنه يمثل ما تنطق لفظة « إيه » مستطيلة ، ينظم المعنى الذى يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، أو قلما يزيد على هذا المقدار ، إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر ، شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحويل فيه ، حتى إذا استقام لما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب ، أهمله ثم نسيه ، وهكذا يمر الآن بعد الآن ، فيجيش الشعر في صدره ، فيرسل بيته إطلاق زوجي الطائر فيذهبان في الفضاء ، ضاربين من أشرها بأجنحة ملتزمة ، شادين على توقيع العروس ، إلى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان ، ذلك هو الشعر للشعر » .

مختارات

قال من قصيدة دعاها تمثال جمال:

إن هذا الحسن كالماء الذى	فيه للأفئس رى وشفاء
لا تزودى بعضنا عن ورده	دون بعض واعدلى بين الظاء
أنت يم الحسن فيه ازدهمت	سفن الآمال يزجيهما الرجاء
أقبلى نستقبل الدنيا وما	ضمنته من معدات الهناء
واسفرى تلك حلى ما خلقت	لتوارى بلثام أو خباء
أنت روحانية لا تدعى	أن هذا الحسن من طين وماء !
وازعى عن جسمك الثوب بين	للملا تكوين سكان السماء

وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء !
نشرت هذه القصيدة الحالية اللفظ ، البديعة المعنى ، لأول مرة برمتها فى سنة ١٩٠١م ،
بالجريدة المصرية التى كان يقوم بإصدارها خليل مطران ، وبالنسبة لطرافة القصيدة وطلاوتها
علق عليها يقول :

« كانت الغزليات قبل الآن ، فيها ما عيس الآداب العمومية ، من ذكر القدود والنهود ،
والضم والعناق ، ورقة الخصر وكثافة الردف ، ولقد كان هذا من العام ، حتى فى قصائد
المدح الملوكة والأمراء ، وهذا مالا ترضاه الأذواق السليمة فى هذه الأيام ، ويكرهه علينا
أدباء الغرب ، وقد سئل سعادة المفضل إسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل إلى اللغة الفرنسية ،
وتجعل فى كتاب يؤلف الآن فى مختارات الشعر العربى قديمه وحديثه ، فجادت قريحته الوفادة
بهذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية ، من حيث سمو الخيال ، ونزاهة المقصد ، وغرابة
الوضع ، ولعل هذه القصيدة أحسن ما جمع فيه بين الأسلوبين العربى والغربى فى نظم الشعر » .
ومن غزله الذى جاوز فيه حدود الإبداع ولم يسبقه إلى معناه شاعر ما ، قوله :

ياراحة القلب يا شغل الفؤاد صلى متما أنت فى الحالين دنياه
زنى الندى وسيلى فى جوانبه لطقاً يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حياناً بها الله !
إن غاب ساقى الطلائع أوصد ، لا حرج هذا جمالك يغنيننا محياه !

ومن غنائياته السائرة :

أصبر فؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة فى رى ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حمل الصبابة فاختق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهيتة من قبل أن تصبح الأشواق أشجاناً ؟
لهفى عليك قضيت العمر ممتحماً فى الوصل نارا وفى الهجران نيراناً !
ومنها أيضاً هذه الأنشودة :

يا آسى الى هل فتشت فى كبدى وهل تبينت داء فى زواياها ؟
أواه من حرق أودت بمعظمها ولم تزل تمشى فى بقاياها !
يا شوق رفقاً بأضلاع عصفت بها فالقلب يخفق ذعراً فى حناياها !

وقال فى الحماسة عن لسان فرعون يخاطب الشعب ويستنهض همته :

لا التوم قومى ولا الأعوان أعوانى إذا ونى يوم تحصيل العلا واث
ولست إن لم تؤيدنى فراعنة منكم بفرعون على العرش والشان
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا فماؤه العذب لم يخاف لكسلان
ردوا الحجر كدأ دون مورده أو فاطلبوا غيره ربا لظان
لا تركوا مستحيلا فى استحالته حتى يميظ لكم عن وجه إمكان

وكان أستاذ شعرائنا يسير في يوم من أيام الصيف راجلاً بضاحية الجزيرة ، فر في طريقه بدوحة وارفة الظل ، وجوقة من شاديات الطيور ، تنغني على أفنانها وتتطارع الأناشيد وهي آمنة من حر الهاجرة الذي اصطلى هو به ، فأجاش هذا المشهد عاطفة الشعر في داخله ، فوقف يستظل بأغصان هذه الدوحة ، ويعاتبها عتاب شاعر رقيق حساس ، ويسأل عمن يعمره جناحي طائر صادق ، لكي يعلل الدوحة ويقضى سحابة العمر مترنماً ، كما هي عادة العنادل . قال :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمنشلي في نواحيك

فمن معبري جناحي طائر غرد كي أصرف العمر شدوا في أطالك !

وقد ارتجل هذه الأبيات الآتية التي تسيل كلماتها دموعاً ، يوم وفاة الطفل الوحيد لصديقه

الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد المدعو عمراً :

يامالي العين نوراً ، والفؤاد هوى ، والبيت أنساً ، تمهل ، أيها القمر !

لا تنحل أفقك بخلفك الظلام به والزم مكانك لا يحلل به السكدر

في الحى قلبان بانا يالعميمهما وفيهما إذ قضيت النار تستمر

وأعين أربع تبكي عليك أسي ومن بكاء الشكالي السيل والمطر !

قد كنت ريحانة في البيت واحدة روح فيه ويفقدو فتحها العطر

ما كان عيشك في الأحياء مختصراً إلا كما عاش في أكمامه الزهر !

فارحل تشيعك الأرواح جازعة في ذمة الله بعد القبر يا عمرا

ونختار له هذه الأبيات من قصيدته المؤثرة في رثاء بطرس باشا غالي :

تبكي المروءات على بطرس ذاك الهمام الماجد الأروع

ففتشت ، لما لم أجد مقلتي كفواً ، عن الفضل ليبيكي معي !

فقل لي : قد سار في إثره يوم دفناه ولم يرجع !

يا مجرياً دمع الملا أبحراً أدركهم يامرقة الأدمع

يانازلا بين وفود البلى آنستهم ياموحش الأربع

عيني فيك اليوم قبطية تروى الأسي عن مسلم موجع !

يهم من وجد ومن لوعة في الجانب الأيسر من أضلعي !

يامن سقاني الجهم من وده هذا ودادي كله فاكرع !

وقال من قصيدة يمتدح بها صاحب السمو الأمير عمر طوسون باشا ، بمناسبة إقاماته للجرحى

الذين ابلاوا في الحرب التركية ضد البلقان :

لك الإمارة والأقوام ما برحت بكل عالي الذرا في الكون تأتمر

لوم ترثها لما ألفت أعنتها إلا إليك خلال كلها غرر

يا ابن الأولى لو أطوا من مضاجعهم يوماً عليك لقالوا : إيه يا عمر !

أعدت أيامهم فى مصر ثانية حتى توهم قوم أنهم نشروا !
وسرت سيرتهم حتى كأنهمو إذا خطرت بأرض مرة خطرنا !
لله درك كم نبت من هم تننى على أهلها الآصال والبكر
وكم تعهدت جرحى من أسود وغى إن يكشر الدهر عن أحداثه كسروا !
ومن قوله المملوء بروح الحكمة والحقيقة :

غاض ماء الحياء من كل وجه فغدا كالح الجواب فقراً
وتفشى العقوق فى الناس حتى كاد رد السلام يحسب برا !
تعب الفيلسوف فى الناس عصراً وتولى السرائر الدين عصراً !
والورى طارد إزاء طريد وعقاب يمسى يطارد صقراً
عبر كلها الحياة ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرأ ؟
وهاك مايدل على وفاء الشاعر حتى للخائنين من أصحابه :

إذا خائنى خل قديم وعقنى وفوقت يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فاثبت ولم أرم !

يزعم بعض الفلاسفة أن للدين لوناً يختلف عن لون الفلسفة كل الاختلاف ، بمعنى أنه إذا
"كان مثلاً للدين لون أبيض ، فيكون للفلسفة لون أحمر " وأنا أعتقد أن الانسان متى وفق
فى مزج هذين اللونين ، تولد هنالك لون آخر رائع يبهل النفس ، وأستطيع أن أسمي هذا اللون
بالاعتدال وعدم التطرف فى رأى ؛ وهذا مايمكن صبرى أن يفعله فى هذه المقطوعة الفريدة
فى بابها ، التى جمع فيها بين شطط الآراء الفلسفية وروحانية الدين ، على أنى لا أزعج أن
للرجل مذهباً خاصاً به فى الفلسفة كان يعمل له ويدعو الناس إليه ، إنما غاية ما هنالك أن هذه
الآيات تدل على ما يمكنه قلبه الشاعر الكبير من التعظيم لمبدع هذا السكون العظيم .
قال يناجى الله ويسأله فى ضراعة وابتهاال :

يارب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار ؟
لم يبق عقوك فى السموات العلى والأرض شبراً خالياً للنار !
يارب أهلنى لفضلك واكفى شطط العتول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار !
يا عالم الأسرار حسبي محنة علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمته التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الأوزار !

ومن فلسفياته أيضاً الآيات الآتية ، التى يقف فيها بجانب فيلسوف المعرة «أبى العلاء» ،
ويرجع كفة الموت الراجحة بالراحة على كفة الحياة التى لا تحتوى على شئ ، عدا التعب قال :
ان سئمت الحياة فارجع إلى الأرض تم آمناً من الأوصاب !

تلك أم أحنى عليك من الآم التي خلقتك للأنعاب !
 لا تخف ، فاللمات ليس بباح منك إلا ما تشقى من عذاب
 كل ميت باق وإن خالف العذ وان مانص في غضون الكتاب !
 وحياة المرء اغتراب فإن ما ت فقد عاد سالماً للتراب !

نهاية الكنار

وفي أواخر أعوامه أذبلت الشيخوخة ديباجة^(١) هذا الكنار أو بالحري «ملك الكنار»، وألم به داء عضال أخفت صوته وأهاض جناحيه، وجعله ضريح الوساد لا يستطيع أن يغادر وكره، وهذا المرض هو داء الأزمة الصدرية، وكأني به حين ازدياد وطأة الأزمة عليه يتلوى في فراشه ألىاً وهو يرجع قوله مهيأاً بالموت :

ياموت هأنذا نخذ ما أبقت الأسقام مني
 بيني وبينك خطوة إن تخطها فرجت عني

ويقول الأستاذ أنطون الجليل : « كان الجميع يرضون عن شعر صبرى إلا صبرى نفسه حتى كأنه يقول إن أجمل شعري لا يزال في صدرى لم أتمكن من نظمه بعد»، ويقول الأستاذ أيضاً : « ماعدنا صبرى مرة في أيام مرضه إلا وسألنا : هل من شعر جديد في البلد ؟ وهكذا شأن كبار القواد، متى أحيوا إلى الاستبداد يرتاحون إلى سماع أخبار المواقع التي يضع خططها ونظمها غيرهم » .

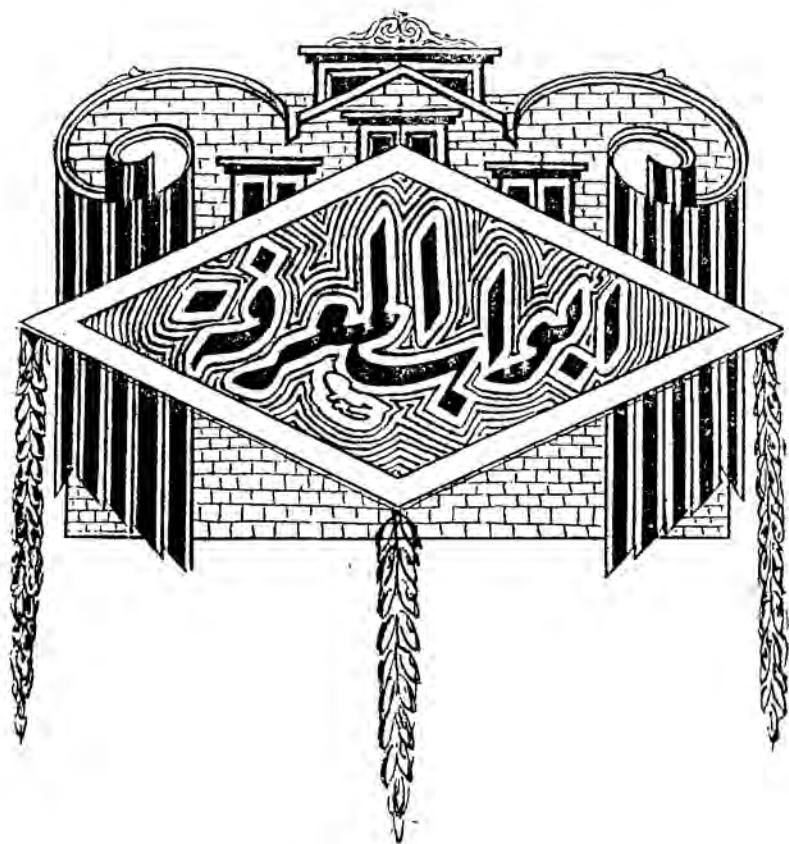
هذا وفي الحادى والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٣٣ م ، امتدت يد الموت القاسية إلى قينارة الأدب العصرى، فتناولتها وانتزعت منها - في غير رحمة ولا إشفاق - وترأ حالى الزنين متنوع النغمات ، وهذا الوتر هو شيخ شعراء العصر ، إسماعيل باشا صبرى ، فلا غرو أن :

جزع الحنى لنعيه وبكاه شبان وشيب !

المبارك ابراهيم

[أم درمان : سودان]

(المعرفة) اتفق وجود الأستاذ الهراوى وقت تصحيح القسم الأخير من هذا المقال، فلاحظ أن هذه العبارة غير متفقة والواقع . والحقيقة التي يعرفها من معاشرته للفقيد حتى آخر أيامه أنه استخف بكل شيء في الحياة ، ومن بينها الشعر على قدرة منه عليه .
 ونذكر بهذه المناسبة أن صهره الأستاذ محمد بك عزت المستشار بحكمة الاستئناف قد جمع شعر الفقيد المشتت في الصحف والأقواد، وهو الآن يعده للطبع .



مملكة المرأة والبيت

لماذا كسدت سوق الزواج؟

أتحدث هذا الشهر عن المشكلة الاجتماعية الكبرى التي كثر فيها القيل والقال ، والتي لم ينفع في حلها قيل ولا قال ، وهي كساد سوق الزواج :

أعرف بيتاً من البيوت العريقة ، في حي من الأحياء القديمة ، وفي هذا البيت ثلاث فتيات تتوفر فيهن كلهن كافة شرائط الزواج، ولكنهن لم يتزوجن ! لاحظت هذا ، فدفعني الفضول إلى محاولة التدرج معهن في الحديث عساهن أن يقضين إلى بما يجيش في نفوسهن ، بعد إذ أنضح لي أن سبب إحجام الشبان عنهن هو - على حد تعبيرهن - « قنزة » الست الوالدة والسيد الوالد المحترم .. وفي ذات عصر انتهزت فرصة خلو البيت إلا من الفتاة الكبيرة، فأحببت أن أحادثها في الموضوع قليلاً ، فقلت لها :

قرأت يا أخت في المدرسة أن التزاوج هو الأصل في النوع ، وهو قانون الحياة الأول ؛ وأنت مثقفة وجيلة وفي السن الملائمة ، فماذا لا تتزوجين ؟

وبدل أن تنطق الفتاة في ثروة فتيات المدارس المعتادة ، رأيتها تصدر تنهدة ثقيلة ، وتقلب شفתיها ، ولا تنبس ببنت شفة ، فكررت السؤال ، وتكررت منها التنهدة وقلبت الشفتين ، وتناولت من جانبها كتاباً في « التطريز » أخذت تقلب صفحاته في سرعة مجنونة وإمارات اضطراب عصبي عنيف فسكت . ولم تمض بضعة دقائق حتى ألقى الكتاب إلى جانبها وقالت :

تسأليني يا « ص » : لماذا لا أتزوج ؟ أفتحسبن ذلك صادراً عني ؟ ! ليست على وجه الأرض فتاة في سني ، ولا تفكر في الزواج أو لا ترضيه .. ولكن الفتاة مبهضة الجناح مهضومة الجانب في الحياة الدنيا ، فإذا ترينها فاعلمة عند ما يتحكم في مصيرها ولي أمرها سواء أ كان والدها أم والدتها؟

قلت لها : ما أظن على وجه الأرض ولي أمر فتاة لا يحب لها الزواج وسعادة المصير . فقالت : هو كذلك ! ولقد يجرم الإنسان بعض الأحيان عن غير قصد ، ولكنه مجرم في نظر الحق على كل حال .

فلم يرتقى من الفتاة تعلقها بمثل هذه « السفسطات » ، فاقتربت منها ووضعت يدي على كتفها ووقلت لها :

صمتاً يفتاتى ! ألا فلتنفض فاك عن مثل هذا القضايا ، ولتعلمى أن كثيراً من المقررات النظرية لا ينفع في الحياة العملية على الإطلاق ، حتى لكأنما يجوز لنا أن نتهم بالجنون واضعها والمفكرين فيها والآخذين بها ، وعندى أن التربية والاجتماع والنفس ؛ كل أولئك شئون تجريبية أكثر منها نظرية . دعينا من هذا فإني أحب أن أعرف الحقيقة عنك وعن شقيقتك فيما يختص بالزواج ، فأرجو أن تتكلمى على بالأجابة عن الأسئلة الآتية . فنظرت إلى الفتاة نظرة حركت القلب منى وعواطف الحس ، واغروق الدمع في عينيها ، ثم أطرقت برأسها إلى الأرض وقالت :

لك ذلك ، فاسألينى ما تريدن .

قلت :

هل تقدم لخطبتك أحد ؟

فأومأت برأسها ولم تجب كلاماً ، فاستدركت أقول :

حسناً ، فلماذا لم يتم الزواج ؟

فانطلقت الفتاة تقول ، وقد تفجر القول منها تفجيراً :

— تقدم لخطبتى شاب من شجرة أصلها في الصعيد ثابت وفرعها في القاهرة ، توفرت في هذا الشاب كل الشرائط التي كنت أصبو إليها ، فإني عند ما رأيت صورته تبين لى أنه شاب جميل مقتول العضلات متين التركيب حلو التقاطيع مليح الوجه ، وسأل أبى عنه فعرف أنه يملك نحواً من المائة فدان في إحدى قرى أسيوط ، وهو محام شرعى حديث ، وأبدى موافقته على المهر الذي طلب أبى ، وعلى أن يعيش معناني نفس هذا المنزل ، وعلى أن يقطع بتناصلته بخالة له كان يعايشها بدل أمه ، أما أبوه فقد توفي قبل تقدمه إلى بنحو العامين ؛ والظاهر أن أبى كان أعقل من والدتى وأحزم . فإنه قد ارتضاه لى زوجاً ، وعلى حسب الطريق المتبعة في البيوتات المصرية فقد أخذ رأيي فأبديت قبولاً .. بل قولي أبديت سروراً ... وفي أذلك :

ماذا تريد فتاة في الثالثة والعشرين ، تعلمت واكتملت أنوثتها ؛ أكثر من أن تتزوج شاباً جليلاً ثرياً له عمل ؟! ولكن والدتى — قاتلها الله — صرخت في وجه أبى تقول :

فوأمرى في قبرها لن تتزوج ابنتى الكبرى من رجل « بعمه وجبة وققطان » ! ! واجتمعت الدنيا أساطيل بأسرها فما استطاعت أن تعولها عن رأيها ، وهكذا ضاعت الخطوبة الأولى .

وأخرجت من جيبي الصغير منديلاً أجفف به دموعها المتدفقة ، والتي جرت من تلقاء ذاتها ، حزناً

على مجريتها ، وحاولت أن أهدي من روعها ، وهممت أن أنكمم ، ولكني سمعتها تقول :
وما كان أعنفها صدمة ! ومع ذلك فقد كانت الأسابيع القادمة كفيلة بذهاب أثرها ، حيث
تقدم لخطبتي شاب من موظفي الحكومة فر فض ، لأن راتبه ستة جنيهات مصرية فقط ! وتقدم ثالث
فر فض أيضاً إذ قيل إنه من عشاق الخمر ، وتقدم رابع وخامس وسادس وهكذا . . . وعيب
صغير في كل منهم هو الذي يقوم بمهمة « وكيل النيابة » ضده ؛ وتقدم واحد فتمت خطوات
الخطوبة كلها ، ثم قام خلاف بينه وبين والدتي على شكل الدولاب أدى إلى فسخ الخطوبة !

وفي الحق ، لقد هاجني ماسمت وندبت حظ تلك الفتاة ، ولم يكن لي من قبل عهد بمثل ذلك
التحكم ، فقد توفي أبى - وأنا صغيرة - وتوفيت والدتي في السنة التي تخرجت فيها من مدرسة
المعلمات ، ثم أخذت زوجي الذي أعاشره الآن بنفسى ودون أن يصدنى عنه حائل ماء ، وعرفت
أن والدى هذه الفتاة لها عقلية غريبة ، فأحببت أن أعرف عنهما شيئاً أكثر ، فقلت :
هو نى عن نفسك فلعل بعد نظرهما هو الذى حدا بهما إلى رفض كل هؤلاء الخاطبين ؛
وكأنما كانت على علم بما سأقول ، فإني رأيتها تقول في لهجة ميكانيكية :

نعم يا « ص » إن لها لنظراً بعيداً . . . إنها يريدان أن يتقدم لخطبتي « البرنس
أوف ويلز » أو من يساويه درجة !؟ فإذا لم يكن الأمر كذلك ؛ فهذا الذى ترضى سجاياه كلها ؟
كفى المرء نبلاً - يا صديقتى - أن تعد معايبه - على ما قال شاعر العرب ؟ أو هل يريدان
أن تكون الحياة أمامى أقراصاً من العسل وسلالاً من الحلوى ؟ ! هل يمكن أن يتحقق هذا
في زيجة من الزيجات ؟؟ إني يا صديقتى كنت أرتضى الزواج بأى ممن تقدموا لخطبتي . . . ولكن . . .
هل أجروا على فتح فى ؟! كلا . . . أو يسحب الخياط لسده . . .

قلت : يجب أن تكونى أكثر شجاعة وجلداً ، ومن يقابل الحياة بالبكاء ، تقابله بالعيول
والنواح . . . والباسم لها يجدها ضاحكة له على الدوام . . . والآن فإذا عن أخواتك ؟
فقلت : حالهما هى حالى يا « ص » ؛ وعند والدتي أن الكبرى يجب أن تكون أسبق أخواتها
إلى الزواج ، وعلى الصغيرة أن تنتظر تأهيل الكبيرة ، أو فإنها لا ترى الزواج مطلقاً . . . وإني
لا بد له فى النهاية من أن يخضع لرأى أمى و . . .

ورأيت أن استدامة الكلام قد تعكر علينا صفو جلستنا الهادئة فأومأت إيجاباً ، ثم أسفأه
ثم أخذت ذراعها فى ذراعى وانطلقنا إلى صديقة لنا تقطن الشقة العليا ، لأصرفهما عن التفكير
فيما كنا به نتحدث ؟

العلم والفن

مبضع كهربائي جديد :

اخترع الأستاذ (شاراس . فريوتوزر) أحد أعضاء « قسم التجارب والأبحاث » بمعهد كاليفورنيا التكنيكي ، جهازاً جديداً يجعل من المستطاع التحكم في التيارات الكهربائية عالية الذبذبة : وهذا الجهاز الجديد عبارة عن مبضع كهربائي كالذي كان يستخدم من قبل في عالم الطب لإجراء العمليات الجراحية الخطيرة الذي يقصد فيها إلى النظافة التامة ، وإلى عدم تساقط الدماء . ولكنه يمتاز عن القديم بما حواه من مواد تخضع ذبذبات التيار ، في علوها وانخفاضها ، لإرادة الطبيب ، ويعتبر خروج هذا الجهاز إلى حيز الوجود فاتحة عهد جديد للجراحة الكهربائية .

أرجل ميكانيكية :



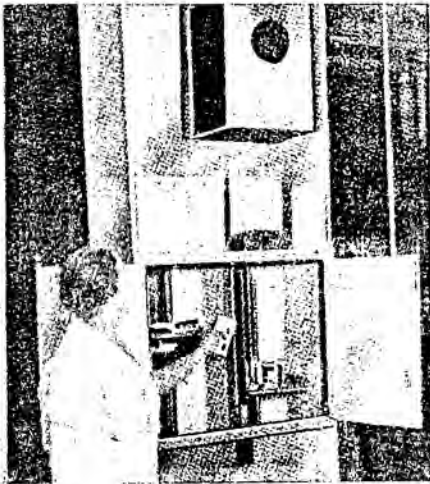
في مدينة (لوز أنجلز) بكاليفورنيا من ولايات أمريكا ، يوجد رجل اتخذ الاختراع مهنة له ، فاستأجر في شارع بعيد عن منزله معملًا يكون مسرح تجاربه ، فكان الرجل يجد صعوبة ومشقة في الانتقال على قدميه من بيته إلى معمله ، ومن معمله إلى بيته عدة مرات في النهار : ولم تكن حالته المالية تساعد على التخلص من متاعب المشي باستخدام إحدى طرق المواصلات الحديثة .

وقد أخذ الرجل يفكر في حل لمشكلته ، وفيما هو يستعرض مختلف ما يمكن من الحلول ، قال في نفسه : إنني لا أكره المشي في ذاته وإنما أكره التعب الذي يستولى على من جراء المشي ، وليس ينتج التعب إلا من الإجهاد العضلي ، ومعنى هذا أنني لأمانع في المشي إذا لم ينتج عنه إجهاد عضلي ؛ أي إذا تمت عملية المشي بمجهود ميكانيكي .. وهكذا ظل الرجل يفترض ويستنتج

نوع جديد من « البراشوت » يفتح من الجنب بدلاً من أسفل ، ويفيد كثيراً حينما تزيد على الطيار قوة الجذب إلى الأرض ، بسبب اشتداد الرياح

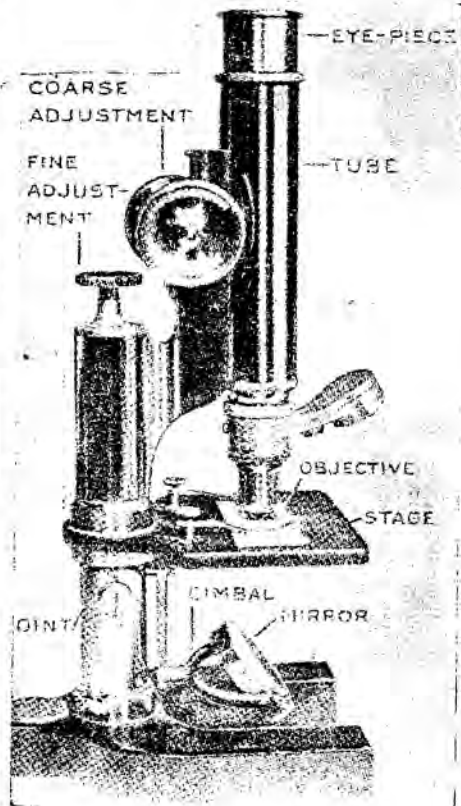
ثم يجرب ثم يخرب ، حتى توصل إلى إتمام عملية المشي بدون مجهود عضلي ، وبالحري بمجهود ميكانيكي ، وتم له بذلك اختراع الأرجل الميكانيكية التي ظل العلماء يحلمون بها دهرأ طويلا . والنموذج الذي صنعه الرجل لهذه الأرجل الميكانيكية يتركب مما يأتي :

١ — بقايا دراجة مستهلكة . ٢ — أرجل خشبية . ٣ — حذاء قديم !! ٤ — بدال الدراجة . ٥ — كرسى الدراجة . وليس على مستعمل هذه الأرجل الميكانيكية إلا أن يستند إلى حائط أو ما شا كاه ثم يقعد (الكرسى) ويبدل ، فتسير الأرجل الصناعية كما تسير أرجل الإنسان الطبيعية . فترى هل إذا فكر مصرى فى أن يستورد له رجلين من هذا الصنف ، تقرر . الجأرك عليها رسوما كباقي الآلات ؟ !



الراديو فى النلاجة

هذه الدائرة الصغيرة التى تظهر فى الصورة ليست ثقبا عاديا ، وإنما هى « ميكروفون راديو » تبرعت بإهدائه لزيائنها إحدى شركات بيع النلاجات الكهربائية فى أمريكا .



ميكروسكوب كولمبيا

وهو يعد الأول من نوعه فى العالم ويمتاز بأن قطر عدسته متر وسبعة وخمسون سنتيمتر !

تحفيف حمولة الكبارى بالألومنيوم

فى (بيتزبرج) كوبرى للسكة الحديدية وجد المهندسون المختصون أن حركة المرور

عليه أكبر من الجحولة المقررة له منذ أنشئ من واحد وخمسين عاماً. وقد فكروا في عدة طرق لمحافظة على هذا الكوبرى، لحاجة المرور الماسة إليه. والطريقة التي نجحت معهم كانت استبدال (أرضية) الكوبرى الصلبة بالآلومنيوم، فاستطاعوا بهذا أن ينقصوا من ضغط الجحولة (٧٥٠) طناً، وقد صار هذا أول كوبرى من نوعه في العالم، وقد قرر اتحاد المهندسين المدنيين بهذه المدينة، تقديم مدالية ذهبية إلى المهندس (ه. م. ول) الذي اهتمدى إلى هذه الفكرة لأنه أنقذ البلدية من إهتاق مليونين من الدولارات في إنشاء كوبرى جديد...

مقيقاتى كهربائى :

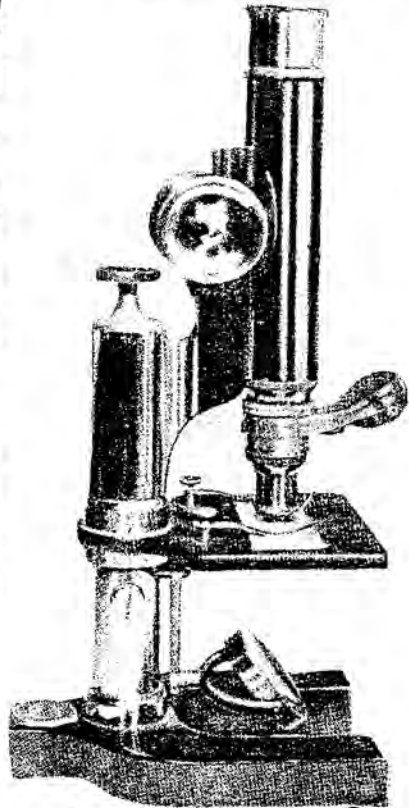
مهمة المقيقاتى فى الدوائر الرياضية مهمة عسيرة، فهو كثيراً ما يتعرض لأن يخطئ عد الثوانى وحساب أجزائها فيضيع القرص على الراجح. وقد حدث هذه الحالة إلى ابتكار « مقيقاتى كهربائى » يكون غير معرض للخطأ، ومخترع هذا الجهاز من « جامعة كولومبيا ». أما كيفية تشغيل الجهاز فهي كما يأتى :

يثبت فى المسدس الصغير، الذى تصدر عنه إشارة الابتداء (مفتاح تحويل) صغير متصل بالساعة التى يحملها المقيقاتى، وعند ما تصدر الطلقة من المسدس، يشتغل المفتاح فتبدأ الساعة عدداً.. وعند ما ينتهى

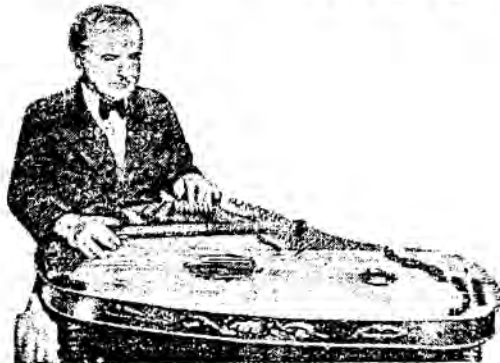
المتسابق يلمس (مفتاح تحويل) آخر يكون موضوعاً بالنقطة التى تنتهى عندها مسافة السباق، فتقف الساعة عن الدوران وبذا يتحدد الوقت تماماً دون أن يقع فيه أى خطأ.

زيت كبس الحوت الحلى :

أنشأت حكومة كندا معهداً للأبحاث الخاصة بالأسماك ومنتجات البحار، وزودته بكثير من الخبراء والعلماء فى المائيات



منظر جانبي لميكروسكوب كولومبيا



(اختراع الموسيقى (فيكتور سيمفونى) أوتاراً جديدة تضاف إلى أوتار البيانو فتصدر عنه نغمات جميع الآلات .

وقد استطاع هذا القسم أن يصنع (شوكولاته) مادتها الأساسية (التي تعادل في الشوكولاته العادية السكاو السائل) هي زيت كبد الحوت، ولكن لا يشعر الذي يتعاطى قطعة منها بأى طعم لا يستيغه. وقد حتمت بعض الحكومات الأمريكية على الأهالي إعطاء أولادهم عدداً معيناً من هذه الشوكولاته اللذيذة في كل أسبوع.

أكبر كتلة من الذهب في العالم :

في العالم بضع قطع من الذهب تمتاز بـكبر حجمها، وتعتبر فريدة في بابها، كما يعتبر أصحابها من أصحاب الجحوظ السعيدة والثروة الطائلة. وأكبر قطعة من هذا المعدن النفيس هي التي

عثر عليها حديثاً في استراليا مهندس معدن بسيط، ظل يوالى بحثه عن الذهب حتى كادت ثروته اليسيرة أن تضيق، لولا أن ساعدته الظروف بالعثور على تلك القطعة الفريدة في بابها. وقد قدر ثمنها بمليون دولار !!

تلغراف طبيعي عند الزوج :

لا يحتاج سكان الكنغو في أفريقيا، إلى إنشاء نظام التلغراف لنقل الأخبار بصفة مستعجلة من قرية إلى أخرى. فإن طبولهم تغنيهم عنه، وتقدم بوسيلة ملائمة لنقل الأخبار.

وقد بحث المكتشفون والعلماء رموز هؤلاء القوم التي يتراسلون بها، فوجدوا أنها في دقة وكمال الرموز الموجودة بأرق البلاد المتقدمة.

والطبل الكونغية هذه، مكونة من نصف جذع مجوف من جذوع أشجار الكنغو الضخمة، ولها صوت رنان يسمع على مبعدة عدة أميال.



الطائرة السهمية

يرى القارئ في هذا الرسم نموذجاً لطائرة سهمية جديدة ينوي مختبرها «ديوى لاندروكس» أن يزور بها القمر !!

مكتبة المعرفة

كتب التربية، وكتاب العمروسي بك

تقد وتحليل بقلم الأستاذ أي السمح

مدير دار الحديث بمكة المكرمة

قرأنا كتباً كثيرة في التربية وقرأنا كتاب العمروسي بك فألفيناه كالقمر ليلة تمه وهي كالنجوم حوله، بل هو كالشمس وهي كالقناديل . لقد امتاز كتاب العمروسي بك بمميزات جعلته في السالك الأعلى؛ منها رشاقة عبارته، وبلاغة أسلوبه الذي يأخذ بمجامع القلوب، فلا يمل القارئ، بل يشوقه كل الشوق إلى استيعابه؛ فلا يزال ينتقل من موضوع إلى موضوع ومن فصل إلى فصل كأنه ينتقل في جنات نضرة وبساتين منمرة - ومنها أنه عملي فلا يكاد يقرؤه قارئ - فيما نعتقد من أهل العلم والمشتغلين بالتعليم - إلا اقنع بكل ما فيه وتطور به والنفع فكره بطابعه فأصبح معلماً بمعنى الكلمة لا يرى مشقة في كيفية إفادة تلاميذه ما عنده من علم وتخرج طلبة مستقلين في الفكر .

ومنها أنه يدور حول قطب، هو أس كل ارتقاء ومدنية وحضارة وعز وسعادة، وهو الاستقلال الفكري المناقض للتقليد الذي عمت القرائح والفهوم - ومنها أنه يحل لك كيفية التعليم والتربية في مختلف الأقطار والممالك المتحضرة الراقية؛ ويكثر من التمثيل والموازنات التي تجعل مسائل العلم كالبدهي عند القارئ وكأنه يشاهدها في معاهد العلم والتعليم؛ فهو والحق يقال كتاب عديم النظير، لم ينسج على منواله ناسج، ولم يأت بمثله مرب ولا مؤلف -، وقد وفق الله جل شأنه الأستاذ أحمد بك العمروسي فيه توفيقاً يبشرنا بحسن المستقبل لامتنا المصرية بل للشرق كله، وإذا دب الحياة في مصر وهي قلب الشرق كله حياً باذن الله .

ولقد امتاز كتاب العمروسي بك أيضاً بإيراد كثير من الآيات والأحاديث الحاثية على استقلال الفكر ومدحه وذم التقليد وأهله .

ولا عجب أن يعنى العمروسي بك بهذا النوع من التربية، وهو يعلم أن التقليد عمى، وأنه مضاد للعلم والحق وحائل بين العقل والحق الذي خلق له، وأنه الذي طالم الحال بين الناس وسعادتهم الدنيوية والأخروية، وأنه الذي قال الله في أهله : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتمدون . » « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على أمرهم مهتدون » .

وقد أجمع علماء الإسلام المستقلون على أن المقلد جاهل لا يجوز له أن يتولى القضاء ولا الإفتاء، لأن ذلك يحتاج إلى علم متجدد بتجدد الحوادث والأقضية، واستنباط حكم ينطبق على كل حادثة من كل جهة من جهاتها، وللزمان والمكان ظروف في الحوادث لا يصح حكم إلا بما عايناه، لذلك كان القرآن العزيز والسنة المحمدية صالحين لكل زمان ومكان، فإذا لم يستقل فكر الأفراد لم تستقل أئمتنا . وكتاب العمروسي بك من أحسن الكتب التي يجب على كل معلم أو متعلم أن يقرأه مراراً وتكراراً ليستفيد منه ملكة الاستقلال وكيفية إنقاذ غرقى التقليد من بحار تقليدهم وإحياء أموات أفكارهم أو بعثها من قبور أنحازهم .

أما كتب التربية الأخرى فهي مقصورة على نظريات وفلسفة الأخلاق وأطوار النفوس وفصول كيفية تعليم بعض الفنون، لكنها خلت من الروح الحى، وهو التعليم الاستقلالى وتدريب الطالبة عليه على الوصف الذى جلاه العمروسي بك فى كتابه أكثر الله من أمثاله وكتبه؟
أبر السمع

المسوى من أحاديث الموطأ

للإمام ولي الله الدهلوى

أنفع الكتب وأجدرها بالذيق هي هذه الكتب التي تعنى بالناحية الدينية على وجه كامل، وليس أحق بالدراسة من أحاديث الرسول العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها فى تفصيلها وجمالها دستور رائع للمشتريين وذوى الأفهام جميعاً .

ولقد كان «الدهلوى» أحد القلائد الذين عنوا بإخراج جبهة كبيرة من الأحاديث النبوية إخراجاً كله تحقيق طيب لجلال الأحاديث، فإنه عنى باستخراج الشوائب منها وإزاحتها بعيداً . وإن أوفر دليل على قيمتها الممتازة أنها طبعت فى الهند مرتين، وأنها ما تزال مرجعاً طيباً من المراجع الإسلامية الدقيقة. ولقد توفرت على إخراجها - فى ثوب قشيب - العالمان الفاضلان الحجازيان الزميل الفاضل الأستاذ السيد محمد صالح نصيف، والسيد عبد الوهاب الدهلوى، فنشكر لهما هذه الهدية القيمة بمقدريين جهودهما فى إخراجها إخراجاً موفقاً سديداً، راجين للزميلة المحترمة «صوت الحجاز» التى طبعت فى مطبعتها بمكة المكرمة وقدمته هدية - كل تقدم وفلاح.

الهداية

فى العراق الشقيق نهضة إسلامية واسعة النطاق ! وفى أهله دهب ومثابرة على استعادة مجد الإسلام والاشادة بكل ما اكتنفه من حداثات لها أثرها البليغ . وإن فى مولد النبي العظيم، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأعمق حادث يهتز له المسلمون إجلالاً وإكباراً . ولقد عتبت جماعة الهداية الإسلامية فى بغداد بصدار عدد ممتاز من مجلة «الهداية» قصرت

بحوثه الكثيرة المتشعبة على الحفاوة بهذه الذكري الخالدة ، مستكتمة في ذلك أفلاماً عرفت بالدراية والقوة ، لأنها عصارة أذهان كلها يقين وإيمان ، فنحمد إلى الجمعية جليل عملها ، وبالغ جهادها الاسلامي النبيل .

كتاباً : « الفلسفة في كل العصور » و « فلاسفة الأدهار »

تأليف الأستاذ حنا خباز

المراد بالفلسفة : العلم العام بحقائق الأشياء ، والتدرج من معرفة الكون إلى معرفة مابعيته ، لذلك لا نكون مغالين إذا أهبطنا بكل إنسان ، يريد أن تكون ثقافته ثقافة عامية منظمة ، أن يدرس الفلسفة فيما يتصل بشأنه من فروعها ، إن لم يكن فيها جميعاً ؛ وحسب الفلسفة خيراً أن تتيح للإنسان البحث الحر ، وتبني له التفكير المنظم والدقة الموفورة .

نقول هذا لمناسبة الكتابين اللذين نحن بصددهما الآن ، ونعني بهما كتابي « الفلسفة في كل العصور » أو « ملخص الآراء الفلسفية » ، وكتاب « فلاسفة الأدهار » اللذين ألفهما الصديق الفاضل الأستاذ حنا خباز ، والذي نعرف فيه دقة البحث ، وسعة الاطلاع ، والذكاء المتوقد ، والجلد في مقارنة الدراسات العميقة ، ويزيدنا تأسيداً في عقيدتنا تلك هذان الكتابان اللذان جمعهما ملخصين من أقدم الكتب وأشهرها في تاريخ الفلسفة ، ومن المؤلفات الحديثة مثل : مارفن وروجرس وثلي وغيرهم من أقطاب العالم الغربي في هذه الموضوعات . وكانت طريقته التي اتبعها في ذلك دالة على الأمانة في النقل ، والدقة في الترجمة ، والبراعة في التلخيص ، والتوفيق في الاختار ، فهو قد اختار من كل مؤلف من المؤلفات السابقة خلاصة وافية للفكر الفلسفية وراجع أصحابها الداعمين .

على أن تقديرنا لعمله هذا لا يمنعنا من مخالفتنا له فيما ذهب إليه في كتابه الثاني « فلاسفة الأدهار » من غمط لحقوق الفيلسوفين العظمين : ابن سينا وابن رشد ، غمطاً سجله في تمهيد الكتاب بقوله . اخترت عشرة مفكرين هم زعماء الفلسفة في كل الأدهار ، ولست أحمل مسؤولية وضع « ابن سينا » و « ابن رشد » بينهم على أنني لا أدعي أنهما مساويان الأقطاب الثمانية الآخرين .

فن إذاً من زعماء الفلسفة الاسلامية غير هذين يستطيع الأستاذ أن يساوي بهما الأقطاب الثمانية ؟ أفلا يوجد واحد من زعماء الاسلام يساوي حتى فلاسفة النهضة الأوروبية الحديثة وهم تلاميذ ابن رشد وابن سينا ؟

لو أن المجال يسمح بالإفاضة في هذا الموضوع لما تأخرنا ولكن عذرنا واضح ، وثبوت حق الفلسفة الاسلامية وفلاسفة الاسلام ، واضح لا يحتاج إلى إفاضة أو تدليل . وحسبنا هذا الآن .

أسرار الكف

ترجمة الأستاذ بيومي زكي

علم دارسة الكف من علوم الأسرار - أو العلوم المستيرية على حد التعبير اليوناني القديم MYSTERIA - التي لم نزل حظها من الاستقرار بعد ، شأنها في ذلك شأن بقية تلك العلوم التي تحتفظ دائماً بصيغة سرية ، وتتصل بالغيبيات غير القابلة للتفسير بالكلمات ، فتمتد على الرموز والأشكال والخطوط ووسائل أخرى ليس هذا مجال ذكرها .
لذلك كان من العسير دائماً الحكم على قضايا هذا العلم ومقرراته التي لما تستند على حقائق علمية ثابتة يقبلها العقل ، ويقرها المنهج العلمي الحديث . بل لا نبالغ إذا قلنا ، إن مقدار الشك في صحة هذا العلم ، أكثر جداً من مقدار التسليم بصحته والايان بمقولاته .

وما يزال العلماء جادين منذ أقدم العصور ، بل من عهد بناء هيكل أبولون في دلفي ، بل منذ ٥٤ قرناً ، أو من عام ٣٤٦٨ ق. م على التحديد وهو العام الذي وضع فيه «فوهي» الفيلسوف الصيني أول كتاب في علوم الأسرار ، (وهذا نتيجة بحثنا الخاص ، نقول ما زال العلماء جادين في تحقيق مسائل هذا العلم تحقيقاً أدنى إلى الرياضيات المنطقية منه إلى المقررات الغيبية .

والذين يتتبعون المراحل التي يقطعها علماء الغرب في هذا الشأن يرون عجباً ويزدادون غرابة ، حين يعلمون أن لهؤلاء العلماء في كل يوم بحثاً جديداً وكتاباً جديداً ، في حين أنا من ذلك كله في عماء ، أو - على الأصح - في غيابات من الخرافات ، وأودية من الخزعبلات .
فهناك في الغرب يتصافر علماء النفسولوجيا والبسيكولوجيا مع أرباب هذا الفن ، في تحقيق مسائله ، وشرح غوامضه ، في حين أنا هنا نعتمد على ما يشبه «مجربات الديري» ، و«شمس المعارف» ، و«أني معشر الفيلسفي» وغيرهم .

لذلك لا نرى بأساً من توجيه المشتغلين بهذا الفن إلى دراسة هذا الكتاب الجديد الذي ألفه العالم «تشيرو» ، وترجمه الأديب الفاضل والباحث المدقق الأستاذ بيومي زكي مدير مكتب وكيل وزارة الداخلية .

فإن الكتاب جمع إلى ما مؤلفه من صيت عالمي ، وشهرة علمية بعيدة ، ترجمة دقيقة عن يها الأستاذ المترجم عناية فائقة ، تجلي أثرها في اختيار الألفاظ ، وانتقاء الكلمات ، والتدقيق في المعاني ، واستقراء المدلولات استقراءً أقرب ما يكون إلى الصحة ، إن لم تكن الصحة كلها ، وعذر المترجم في ذلك واضح ، فهو يعتمد على الاستنباط والتحليل ، ودقة الفهم ، وذكاء الخاطر .

فاذا كنا نهنيء الأستاذ المترجم على ما بذل من مجهود موفق ، فإننا نهنيء - في الوقت نفسه -

المشتغلين بهذا العلم ، وفي أولهم المؤلف ذاته ، على ما قدم لهم هذا العالم الشاب من خدمة خالصة لله والعلم .

وحسبنا أخيراً أن نقرر في صدق ، أن هذا الكتاب هو الأول من نوعه ، فيما قرأناه من كتب حتى الآن ، فاعمل المترجم الفاضل يرى من الجمهور ما يكفي جهوده المضنية ، ويلقى من العلماء ما يستحق من تقدير ، فينشط في ترجمة كتاب « علم قراء اليد » وغيره من الكتب التي وعدنا بها ، والتي ننتظرها شغوفين .

أما طبع الكتاب وورقه فبالغ حد الجودة ، بالنسبة إلى غيره من الكتب ، وأما صفحاته فعددها ٢٨٨ ، فأما ثمنه فعمشة قروش ، وهو يطلب من المترجم الفاضل لعنوانه ، أو من مجلة « الصباح » الغراء .

دراسة القانون

تأليف الأستاذين: مصطفى رضا ومحمود أحمد الحفني

يتخطى المعهد الموسيقي الملكي إلى الكمال بخطوات واسعة جداً ، ولكنها - مع كل هذه السرعة والسعة - لم تفقد توازنها ، ولم تحدد عن الوفاق ، وقد كمال هذا الحزم الذي أبدته رئاسة هذا المعهد الجليل بالعطف الملكي ، فجاء هذا الرضاء العالي برهاناً واضحاً وآية كبرى على أن الله لا يضيع أجر العاملين .

قدمنا بهذه الكلمة القصيرة لمناسبة هذا الكتاب الأول في نوعه ، والذي صدر عن ذلك المعهد بعنوان « دراسة القانون » من تأليف الأستاذين الكبيرين مصطفى بك رضا رئيس المعهد والدكتور محمود أحمد الحفني ، وقد نهج المؤلفان الفاضلان في مؤلفهما منهجاً لم يسبق له مثيل في لغتنا العربية ، فأصدرا كتابهما في معرض علمي عملي معاً ، حتى ليكاد الكتاب من حسن استعراضه يعلمك صناعة العود ، دون حاجة إلى معلم ، فهو في الجزء العملي موضح بالصور ، كما هو في الجزء العلمي غاية في الأسلوب .

وقد مهد المؤلفان لبعثهما بنبذة في تاريخ هذه الآلة الموسيقية العظيمة (القانون) ، فندا بها الرأي المشهور القائل بأنها اختراع الفارابي الفيلسوف الشهير . وقد كان بودنا أن يسهبنا قليلاً في هذه النقطة التاريخية ، ليبيننا لنا : من من العرب إذن هو الذي صنع ما صنعه في شكل هذه الآلة غير الفارابي ؟ أما إنهم ينشرون الشك حول هذه المسألة التاريخية ثم يتركونها بدون تحقيق فليس في نظارنا إلا من باب عيوب القادرين الذين عناهم المتنبي بقوله :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنعق القادرين على التمام

والكتاب كما قلنا آنفاً هو الأول من نوعه ، فهو فاتحة إنشاء مكتبة موسيقية نعتقد أن الثقافة العربية في أشد أنواع الافتقار إليها الآن .

الرسالة الثانية من الخط الكوفي

بقلم الأستاذ يوسف أحمد

لصديقنا العلامة يوسف أحمد شهرة ذائعة في الآثار العربية ، لا نظن أن إنساناً عظيماً - مصرياً أو أجنبياً - زار الآثار العربية إلا وعنده عن الأستاذ يوسف فكرة حسنة ورأى جميل . والحق أن الأستاذ يوسف خدم الآثار العربية أعظم خدمة ، وعنى بها أكبر عناية ، حتى إنه في العلم بها ليعد حجة في هذا العصر بلا نزاع . وما يزيد الفراء في ذلك تأكيده ، فقد شرحناه في العدد الأسبق عند كلامنا عن الرسالة الأولى .

ويظهر أنه لتلك العناية العظيمة بهذا الفرع من فروع الثقافة التاريخية ، قد تمكن من دراسة الخط الكوفي - فهو من حين لآخر يتجف العلماء والعطاء بمجموعات خطية جميلة من هذا الرسم الكوفي الجميل .

وبين أيدينا الآن هذه المجموعة الثمينة ؛ ففيها بحث طيب عن تحسين ذلك الخط وإدخال الشكل والاعجام ، ولا يسعنا التنويه بها أكثر من أن نقول إنها كتبت بقلم يوسف أحمد ، وهو من يعرفه قراء « المعرفة » جميعاً بمقالاته الممتعة في علم الآثار ، وما إليه من خطوط ورسوم .

كواكب في فلك

بقلم الأستاذ توفيق وهبه

مجموعة شعر وأدب وسياسة بقلم الأستاذ توفيق وهبه ؛ وهو أديب عربي يقيم في باريس ليراسل جريدتي : « المقطم » و « البصير » ، والذين يقرأون هاتين الصحيفتين يعرفون ما لقلم الأستاذ توفيق من توفيق بين الديباجة العربية الناصعة الرصينة والمعاني الاجتماعية المستحدثة في هذا الزمن .

نحن نقرأ أسلوب الأستاذ يخيّل إليك أنك تقرأ ديباجة أديب قضى عمره كله في كتب العرب ، وحين تنظر في معانيه لا يسمعك إلا أن تظن أنك تقرأ أفكار كاتب أوروبي حديث . وإذا كان هذا التجديد يحمد لصاحبه ، فإن المحافظة على الرصانة العربية لتجده أكثر ؛ فنحن نهنيء الأستاذ توفيق بروحه القومية التي لم تستطع باريس أن تنسيه إياها ، كما نهنيء زميلتيينا المحترمين : « المقطم » و « البصير » على حسن اختيارهما للأستاذ توفيق .

وكم كنا نود لو أتيت لنا فرصة تحليل ما في هذا الكتاب من أغراض ومواضيع لولا ضيق المقام .

فهرس

الجزءين : السابع والثامن من السنة الثالثة

صفحة

بقلم المحرر	٥٣٤	كلمة صريحة إلى حضرات القراء
للأستاذ محمد الهراوي	٥٣٦	آني بيزانت ومذهب النيو صوفية الحديثة
للأستاذ إسعاف النشاشيبي بك	٥٤٠	تعريف أدباء مصر إلى الأفطار الشرقية
للأستاذة زينب الحكيم	٥٤٥	أرست هيكل
للأستاذ أحمد الصافي النجفي	٥٤٧	رجل الغد
بقلم المحرر	٥٥٥	على طريق بيروت (قصيدة قصصية)
للسيدة ف. ع	٥٥٧	الشباب والعروة في القاهرة
للأستاذ أحمد زكي وليدي بك	٥٦١	شوقي وحافظ (قصيدة)
للأستاذ محمد يحيى الهاشمي	٥٦٤	الاسلام والعلوم الجغرافية
لحسين شفيق ورمزي نظيم	٥٧١	الحفريات في العراق
للأستاذ عبد اللطيف ثابت	٥٧٤	في حانة خمار (قصيدة)
للدكتور زكي مبارك	٥٧٦	حياتي (قصيدة)
للأستاذ السباعي بيومي	٥٧٧	حكاية أبي القاسم البغدادي
لبرناردشو	٥٨٧	وجوه الإعجاز
للأستاذ علي الجارم	٥٩٢	الرجوع إلى ميتوزيلا
للأستاذ محمد ثابت الفندي	٦٠٠	أحلام الشباب (قصيدة)
للسيدة منيرة توفيق	٦٠١	ابن سينا وفلسفته
للأستاذ محمد علي إمام	٦٠٩	هل رمت غيري زوجة ؟ (قصيدة)
لانيقولا جوجول	٦١١	الأدب العربي كأدب عالمي
للأستاذ محمد محمد السيد	٦١٦	قصة الأنف
للأستاذ رشدي ميخائيل السيسى	٦٢٥	التلقيح عند الحيوان
للأستاذ المبارك ابراهيم	٦٣٠	المجرم (قصة رمزية)
	٦٣٣	إسماعيل صبري باشا

أبواب المعرفة

٦٤٥ العلوم والفنون

٦٤٣ مملكة المرأة والبيت

٦٤٩ مكتبة المعرفة

اعتذار

لم نستطع الكتابة عن المؤلفات التي وصلتنا أخيراً ، فقد تراكم لدينا منها عدد كبير ، بين كتب ودواوين ومجلات حديثة ، فنعتذر لحضرات أصحابها ، واعدن بافراد صفحات أكثر عدداً في الجزء الآتى . معتذرين في الوقت نفسه من عدم توفية أبواب المجلة لضيق المجال . هذا وسيكون العدد القادم با كورة موفقة فيما نعتزمه من تجديد وتنويع

فانتظروه في أول يونيو

الاعشاب

الديوان الجديد الذى أصدره في هذا العام

الشاعر محمود أبو الوفا

يطلب من المكتبات الشهيرة

ومن إدارة هذه المجلة - الثمن ٥٠ مللماً

مجموعات المعرفة

ترسل الإدارة - إلى من يطالب - مجموعة السنة الأولى بثمن قدره ٥٠ قرشاً مصرياً لمصر والسودان ، و ٧٥ قرشاً للخارج . أما السنة الثانية فنمنها ٦٠ و ٤٠ قرشاً . ولاحق لاطالب في الهدايا مطلقاً ، إذ هي وقف على المشتركين . كذلك ترسل الإدارة الأعداد الناقصة إلى راغبها نظير ٤ قروش للعدد الواحد ، عد العديدين الأول والحادى عشر من السنة الأولى فنمن كل منهما ١٠ قروش مصرية .

ويجب أن ترسل القيمة مقدماً ، أذونات او طوابع بريد ، او حوالة على أحد المصارف المالية الموجودة لها فرع بالقاهرة . ولا تدخل في هذا مصاريف التجليد . هذا والإدارة ترسل المجلة لمدة ثلاثة أشهر هدية إلى كل من يرسل إليها نسخة من العدد الحادى عشر للسنة الأولى

عنوان المجلة (شارع الهدارة رقم ١)